منال م. عمر

حافية في بغداد

قصة هوية – هويتي

وماذا يعني أن تكوني امرأة تعيش في فوضى

الأهلية

حافية في بغداد

قصة هوية – هويتي
وماذا يعني أن تكوني امرأة تعيش في فوضى

Barefoot In Baghdad
Copyright ©2010 by Manal M. Omar
All rights reserved
Arabic Language edition published by Al-Ahlia - Jordan - Copyright © 2014

الأهليّة للنشر والتوزيع
alahlia@nol.com.jo
alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردن

الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

حافية في بغداد
تأليف
منال م. عمر
ترجمة
عماد ابراهيم عبده
مراجعة وتدقيق
عزمي طبة

◆

الطبعة العربية الأولى 2014
حقوق الطبع محفوظة

◆

الصف الضوئي: إيمان زكريا، عمان هاتف: 097/534156

All rights reserved.No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب او ايّ جزء منه، بايّ شكل من الأشكال، إلا بإذن خطّي مسبق من الناشر.

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: ٤٠٦٩/ ٨/ ٢٠١٤
الترقيم الدولي: ISBN: 978-9957-39-049-5

منال م. عمر

حافية في بغداد

قصة هوية – هويتي
وماذا يعني أن تكوني امرأة تعيش في فوضى

ترجمة: عماد ابراهيم عبده

مراجعة وتدقيق: عزمي طبة

الأهلية

إلى والداي الدكتور محمد والسيدة لمى عمر،

وزوجي لتقديم الدعم لي

حتى في أوقات الجنون.

فهرس

شكر وعرفان 13
ملاحظة من الكاتبة 15
مقدمة 19

1: الفاتحة 25
2: رحلة عن طريق البر 45
3: كسر الحواجز 61
4: اختيار الأطراف 71
5: الحرُّ أشد بكثير في جهنم 85
6: هستيريا الأمل 97
7: عيون مغلقة جيداً 115
8: مكان للأوهام 139
9: فيرن 155
10: ورقة مساومة 167
11: مطلقو الصفارات 183
12: اللعب بالنار 197
13: محبوسة 231
14: أربعة رجال وامرأة 241
15: نقطة الانهيار 281
16: الأصابع الأرجوانية لا تُنظَّف 293
17: العرائس العراقيات 307

خاتمة: الفجر يقترب 317
نبذة عن المؤلفة 323

شكر وعرفان

أولاً وقبل كل شيء أتقدم بالشكر لوالداي، الدكتور محمد والسيدة لمى عمر، لتقديمهما الدعم لي دائماً.

وأتقدم بشكر خاص لطاقم موظفي العراقيين، السابقين والحاليين. وأتمنى لو كان بإمكاني ذكر أسمائهم فرداً فراداً، ولكنني أعرف مدى أهمية إخفاء هويتكم. ستبقون الأبطال الحقيقيين الصامتين وراء كل هذا العمل العظيم. أشكركم لتزويدي بوصول لمعرفة بلادكم بشكل عميق، ولأنكم كنتم تجعلونني أشعر دائماً بارتياح.

شكراً لمحررتي، شانا دريهس، لصبرها الذي لا حدود له، ولكافة الموظفين في سورسبوكس على الوقت الذي خصصوه من أجل جعل هذا الكتاب يصدر.

بضعة تصريحات علنية بالشكر:

إلى نادية روماني لكونها سند داعم ومعلمة لي، وبشكل أكثر تحديداً، لحبسها لي في شقتها في نيويورك لمدة عشرة أيام لكي أكتب الفصول القليلة الأولى. وبدون إقناع روندا روماني وأنيا شيزادلو لي بأن لدي قصة يجب أن أرويها، ما كان من الممكن لأي شيء من ذلك أن يحدث.

إلى كوري سيلور وإليزابيث ديتويلر ونيجينا ساوز وشيرين سنار لمراجعة المسودة بكاملها، وتخصيص ما يكفي من الوقت في ذلك لإعطائي التغذية الراجعة الرائعة، والأقل روعة. شكر خاص لنادين أجينا وطالب مخلص والدكتور أنس علي وعائشة علي في المملكة المتحدة لأنهم كانوا عائلتي عندما كنا في المنفى، ولدفعي لإنهاء ما بدأت به.

إلى ختام وسجى، لكونكما الامرأتين العراقيتين القويتين، ولإعادة ثقتي بالأختيّة الحقيقية (الروابط الأخوية بين النساء). وإلى أمينة شنزي وداليا الطوخي والعمة فيكي الطوخي وطنّاز حدادي وطارق عموس لدعمهم المتواصل.

إلى عناية شاهين وزينه الطالب لكونكما بوصلتي الأخلاقية.

إلى هاني: سوف أراك دائماً أخي الصغير، وسأتوقّع منك باستمرار تزويدي بكلماتك الحكيمة.

إلى النساء المدهشات اللواتي يذكّرنني دائماً بقوتنا الداخلية. إنني محظوظة بالحصول على دعمكن في العراق: السيدة آن غرينستوك وإديت شليفر وخانيم لطيف وليلى نور الدين ولوسي أسلو وماجدة السنوسي وعروب العبد وزينب سالبي.

إلى المستقبل: بنات وأولاد أخواتي وإخواني نور وجود ومحمد وعبد الملك عمر وراية وماريا وبترا مفتي وآدم وزيد عمر وفاطمة وعلي وحمزة الدبيسي. أنتم مصدر تفاؤلي.

وأهم من ذلك كله، أشكر زوجي، فما كنت لأتذكر نصف القصص أو التفاصيل بدونك. شكراً لأنك كنت الأساس الراسخ المتين لي، ولإبقائي في حالة تركيز وهدوء دائماً.

ملاحظة من الكاتبة

لقد تم تغيير الأسماء والمواقع الجغرافية والسمات المميِّزة لحماية أولئك الذين تم التشارك بقصصهم. إن هذه هي رحلتي الشخصية، والآراء المعبَّر عنها هي آرائي الخاصة ولا تمثّل سياسة منظمة نساء من أجل نساء الدولية.

كتاب حافية في بغداد يأخذ عنوانه من مثل تركماني عراقي يقول،
«امشِ حافياً وسوف يؤذيك الشوك.»
وغالباً ما يستخدم كتحذير لأولئك الذين يتحدون المعايير الاجتماعية.

مُقدّمة

◗ لقد ناضلت طوال طفولتي للإجابة عن أبسط الأسئلة: من أين أنت؟ ولدْتُ في المملكة العربية السعودية لأبوين فلسطينيين انتقلا إلى مدينة لوبوك، في ولاية تكساس، عندما كان عمري ستة أشهر. وخلال طفولتي، كان والداي يهجّراني كل بضع سنوات، من تكساس إلى ساوث كارولينا إلى فيرجينيا. وحيث أنني كنت أعيش في الجنوب الأميركي، فقد كنت بعيدة عن صورة الجمال الجنوبي، ومع ذلك فإن فصول الصيف التي قضيتها في الشرق الأوسط لم تفعل شيئاً سوى تأكيد هويتي الأميركية، وجعلت من الواضح لي أنني لن أكون في يوم من الأيام طفلة عربية نموذجية.

تعلمت عندما وصلت المدرسة الثانوية احتضان وحب جميع أجزاء هويتي المشتركة بحماس لم يكن من الممكن أن يشعر به سوى مراهق. لقد كنت عربية وأميركية، وكنت فلسطينية وجنوبية، وكنت مسلمة وامرأة. وعندما كبرت، تقبّلتُ أن التأكيد على كل جانب من جوانب هويتي من شأنه أن يتحول مع أطوار القمر. رأيت وأنا أنمو في عالم يكافح لفهم التعددية الثقافية، هذه القدرة على الانتقال بين هوياتي المتعددة على أنها قوتي الخارقة السرية.

بدأتُ، تدفعني قناعة أن هوياتي قد زودتني بميزة تنافسية، حياة مهنية في مجال التنمية الدولية. وزعمت والدتي أنني، في مكان ما على طول

الطريق، قد أصبحت خيالية، ربما لأن رغبتي في صنع تغيير في عالمي قد قادتني إلى حياة مهنية في المساعدات الإنسانية في مناطق النزاع.

ومع كون قوتي الخارقة السرية كامنة، كنت من بين أوائل العاملين في المساعدات الدولية الذين وصلوا إلى بغداد في العام 2003، وكنت من بين آخر المغادرين. وقد غيرت تلك السنتان الواقعتان بين تلك الأحداث داخل العراق حياتي للأبد.

حاول العديد من الكتّاب سرد ما حدث في العراق أثناء السنوات التي كانت بمثابة نقطة تحول، والواقعة بين العام 2003 إلى أوائل العام 2005. وقد كتب البعض عن المناورات السياسية التي كانت تجري وراء جدران المنطقة الخضراء، أو الاستراتيجية العسكرية كما رآها الصحفيون الذين كانوا جزءاً من القوات المسلحة. ولكن لم يكتب أي منهم حتى الآن من وجهة نظر أحد عمال المساعدات الدولية الذي كان لديه قدرة على الوصول إلى كل من المواطنين العراقيين العاديين وأصحاب السلطة في الجانبين الأميركي والعراقي.

في العراق، كنت قادرة أخيراً على الاستفادة من قوتي الخارقة استفادة كاملة. لقد كانت تلويحة بجواز سفري الأميركي عند نقطة التفتيش في المنطقة الخضراء المحصّنة، تتيح لي الوصول إلى ممثلي التحالف الذي كانت تقوده الولايات المتحدة. كما أن التزامي بالزي الإسلامي ولغتي العربية الطلِقة جعلا من الممكن لي العيش في حي عراقي بدون وجود رجال أمن مسلحين. هذا الوصول الاستثنائي أتاح لي رؤية عراق كان من الممكن الوصول إليه من قِبل عدد قليل من الأشخاص الآخرين. ومع كل موسم يمر، كانت البلاد تنسلخ من جلدها وتنشأ كمكان جديد تماماً. من كان

أفضل للتكيّف داخل بلد يمر بفترة مضطربة من التغيير من شخص نشأ بهوية دائمة التحوّل؟ في العراق، وجدت مكاناً ذا تناقضات معقدة بقدر ما لدي منها في نفسي. إلا أن عقدتي الداخلية ظهرت هنا في مجتمع بكامله. لقد كان زملائي الدوليون يكافحون من أجل تصنيف الثقافة العراقية عنوة، ولكنني، ببساطة، قبلتُ شكلها المتقلّب الفريد. وقد تعجّب الصحفيون من حقيقة أن النساء اللواتي كن يسدلن أغطية عليهن من رؤوسهن حتى أخمص أقدامهن، كن يمشين جنباً إلى جنب مع نساء ذوات شعر برتقالي اللون ويرتدين الجينز الضيق، ولكنني ببساطة لم أكترث بذلك. لقد كان ذلك طبيعياً بالنسبة لي. إن فسيفساء الهويات داخل العراق لم يكن زائفاً أو مفصوماً، لقد كان هو ما جعل البلاد قوية.

إلا أن الفسيفساء تحطّمت باندلاع العنف الذي أتى في أعقاب الغزو الأميركي. فمن أسلحة الدمار الشامل إلى التفجيرات الانتحارية، أصبحت حياة العراقيين العاديين مرتبطة بشكل حتمي بالعنف. لقد تبخّرت الآمال والأحلام التي كان العراقيون يتشاركون بها في السابق، في دخان تفجيرات السيارات المفخخة. اختفت الشعوب المتنوعة التي سكنت العراق -العرب والأكراد والآشوريون والمسلمون والمسيحيون والصابئة- الذين كانوا في السابق يحتسون الشاي على عتبات منازلهم، الآن من الشوارع. لقد اختبأت النساء وراء أبواب مغلقة، وكانت الصور الوحيدة من داخل العراق هي صور موت ودمار. وكانت المشاعر التي وصفها الناس هي مشاعر خيانة ويأس. وما بين عشية وضحاها تم نسيان ذلك التنوع الرائع -القوة الخارقة السرية للعراق- وتم دفنها تحت الأنقاض التي خلفتها التفجيرات.

* * *

ليست قصتي قصة إحصائيات وأعداد القتلى أو أوصاف تم جمعها من زيارات قصيرة إلى المنطقة الخضراء، وإنما تلخص قصتي رحلة أمة مصمّمة على النهوض من رماد الحرب والعقوبات، وعلى إعادة إنشاء نفسها في وجه عقبات ساحقة. ولكن هذه هي أيضاً قصتي عن الكفاح من أجل فهم هويتي مقابل خلفية بلد في حالة اضطراب. عكس ما كنت اعانية داخلياً ما كانت تعاني منه البلاد ككل. وكامرأة، لم يكن بإمكاني تحمّل رؤية تآكل الحريات البسيطة التي اكتسبتها النساء العراقيات قبل عقود من الزمن. لقد انقضت الأيام التي كان بإمكان المرأة العراقية فيها المشي في الشوارع بدون مرافقة، أو اختيار ما كانت ترغب في ارتدائه.

وكعربية غير عراقية، انتابني شعور اعتذاري تجاه العراقيين الذي كانوا متحيرين بشأن قدوم عرب من بلدان أخرى إلى العراق لتنفيذ تفجيرات انتحارية في أسواق مزدحمة وداخل الحافلات. وشعرت بالغضب لمشاهدة الأمة الأقوى في المنطقة وهي تتمزق إرباً.

وكأميركية، كنت عاجزة عن الكلام. لم يكن بإمكاني مهاجمة بلدي ولا الدفاع عنها، على الرغم من أنني وجدت نفسي أرغب بشدة في فعل كليهما. لقد حقق والداي الحلم الأميركي، ورفضت أنا تصديق أن الحرية والديمقراطية كانتا وعوداً فارغة. ولكن لم يكن بإمكاني تبرئة الولايات المتحدة بشأن دورها في السماح بأن ينحدر العراق إلى العنف. إن أكثر الأخطاء الأساسية التي ارتكبها الجيش -عدم تأمين الحدود وحلّ الجيش العراقي وتسريع عملية المضي قدماً في بناء الأمة- قد قذفت البلاد في حالة من الفوضى.

إضافة إلى تعودي تدريجياً على الحرب والعنف اللذين تطورا تدريجياً أمامي، كان يتعين علي كذلك أن أتعامل مع آثار ارتباطاتي الشخصية

المتنامية. لقد كان طاقم موظفيَّ من العراقيين وجيراني ومنظمات المرأة المحلية يعرضون أنفسهم لمخاطر كبيرة في أن يتم وصفهم بالخونة أو دمى الغرب، وذلك فقط لكونهم مرتبطين بي. ومع ذلك، فقد وجدت نفسي أطور دائرتي العائلية الخاصة داخل البلاد. لقد أصبحت النساء العراقيات، اللواتي عملت معهن جنباً إلى جنب، أخوات لي، وأصبح الرجال الذي خاطروا بحياتهم من أجل حمايتي، أخوة لي. لقد أردت بشدة أن أثبت جدارتي بجعل حياة العراقيين أفضل قليلاً، إن لم يكن أولئك الذين كانوا يعيشون في مجتمعات كنت أعمل فيها، فعلى الأقل أولئك الأقرب إلي. كنت أتجنب التفكير بأنني يوماً ما سأكون مضطرة إلى مغادرة البلاد، ورفضت الاعتراف بأن مشاعري المتنامية بالثقة والإعجاب تجاه أحد زملائي، كان من الممكن أن تكون، في الواقع، حباً. في نهاية المطاف، كانت ستتم معاقبتي ومكافأتي على حد سواء، وذلك لأنني سمحت للخطوط الفاصلة بين عملي وحياتي الخاصة بالانطماس. لقد بدأت المأساة الشخصية تصيب كل شخص عرفته. عائلة واحدة في كل مرة. وبدأ أشخاص، كنت قريبة جداً منهم، بالاختفاء بدون أي أثر.

كتاب «حافية القدمين في بغداد» ليس قصة الحرب في العراق، إنه قصة النساء في العراق اللواتي يقفن كل فجر عند مفترق الطرق. إنها قصة وقتي الذي قضيته في العمل مع عراقيين وهم يكافحون لإنشاء أمة جديدة وهوية جديدة. وقد عملت سنوات إقامتي وعملي داخل مجتمعات منتشرة في كافة أنحاء البلاد على نفخ الحياة فيه. ويروي الكتاب تجاربي الخاصة وقصصاً لرجال ونساء التقيتهم، وكل واحد منهم هو طرف فاعل في واحد من أكثر النزاعات السياسية تعقيداً في عصرنا. إنه كذلك مذكرات

لاكتشاف هوياتي العديدة ونقاط الضعف ونقاط القوة الكامنة داخلها. أخيراً، إنه قصة العثور على حب في المكان الذي يكون فيه ذلك مستبعد إلى أقصى حد ممكن. وعندما أصبحت حياتي متداخلة مع حياة العراقيين من حولي، نسيت أين كانت تنتهي آفاقي وتبدأ آفاقهم، وأصبحت توقعاتهم هي توقعاتي، وأصبحت خيبات أملهم وأحلامهم وآلامهم وخسائرهم خاصة بي.

1
الفاتحة

◖ كانت تختبئ. إلا أنه كان يبدو أن الجميع يختبؤون. كان الوقت هو شهر تشرين أول/ أكتوبر 2003، بعد مرور ثمانية أشهر على الغزو الكارثي للعراق بقيادة الولايات المتحدة.

لكنها كانت فعلياً طفلة، وقد أثبت عدوها أنه أكثر خبثاً -وتحطيماً للقلوب - من أولئك الذين قرأنا عنهم ورأيناهم على التلفاز.

كان الوصول إليها هو عقبتي الأولى، فذلك كان يعني اجتياز نقطة تفتيش، واحدة من آلاف نقاط التفتيش المنصوبة عبر بغداد. لقد تم نشر تلك المواقع المؤقتة بشكل عشوائي مثل مواقع تقديم حواضر الطعام في حي ما، ولكن بدلاً من النقانق والفاصولياء، كان هناك مزيج كئيب من أكياس الرمل العسكرية، والشرطة العراقية والأميركية، والمدافع الرشاشة.

وقف أحد رجال الشرطة -شرطي كبير في السن، له شارب كثيف يميّز العراقيين- ليستجوبني. من أنا؟ ما الذي كنت أريده؟ لم يفعل الحجاب الملفوف حول رأسي شيئاً لتهدئة مخاوفه. فبالرغم من كل شيء، كانت بغداد تعج بالصحفيات الأميركيات وعاملات الإغاثة اللواتي كن يرتدين الحجاب احتراماً للتقاليد المحلية، ولم يكن لدية أي سبب لتصديق أنني كنت مسلمة لمجرد أنني قلت ذلك.

لم يكن الاضطرار إلى إثبات هويتي أمراً جديداً بالنسبة لي. أنا أميركية مسلمة - تناقض لفظي بالنسبة للبعض. وبالعودة إلى الوطن، نشأتُ معتادة على التعهد بولائي بصوت أعلى وبأحيان أكثر من أقراني. ولكن تأكيد ولائي للإسلام؟ كانت هذه هي المرة الأولى. انحنى الرجل إلى الأمام وطلب أن أتلو السورة الأولى من القرآن، آيات يتلوها المسلمون خمس مرات في اليوم أثناء الصلاة. لقد كان ذلك مثل الطلب من مسيحي أن يتلو صلاة الرب.

أشعل يوسف، أحد زملائي، سيجارة وحدق ولديه فضول بشأن ما إذا كنت سأجتاز نقطة التفتيش.

إن نصف الدائرة من الرجال المدججين بالسلاح، إضافة إلى شعوري بتشوش خفيف بسبب الامتناع عن الطعام والشراب طوال اليوم -هذه الحادثة وقعت خلال شهر رمضان المبارك- جعلت من الصعب تذكُّر الآيات السبع. ولكنني أغلقت عيني، وفي غضون ثوان تدفقت الكلمات.

أصيب سائلي، على حد قول أحدهم، بصدمة وارتاع. أعاد جوازي السفر ولوح ليوسف ولي للمرور، ولكن ليس قبل رفع أحد حاجبيه اللذين كانا باللونين الأبيض والأسود: «أختي، البنت موراهة (سيئة).» لقد كان أسوأ شيء يمكن أن يقوله رجل عن امرأة، أنها كانت تفتقر إلى الشرف. لقد كان، بالطبع، يشير إلى البنت التي في الداخل. ولكن كلماته كانت، أيضاً، بمثابة تحذير لي. لقد كان يشير إلى أنني يجب أن أفكر مرتين قبل أن أتعامل مع أشخاص من هذا القبيل.

أمسكت جوازي السفر. لقد كانت السورة التي اختار أن يختبر فيها هويتي -وعقيدتي- هي سورة الفاتحة. وفي الواقع أنها كانت بمثابة الفاتحة للوصول إلى الفتاة.

بمجرد دخولي مبنى الشرطة، قام رجل شرطة عراقي وأحد أفراد الشرطة العسكرية الأميركية بالتحدث معي بانفتاح من أجل الدفاع عن وجهة نظر كل منهما. لقد كانت كلماتهما عبارة عن تقارير متضاربة غير متناغمة، فقد أصرّ رجل الشرطة العراقي على أن الجنود الأميركيين لا يمتلكون حقاً قانونياً في احتجاز الفتاة. وجادل بأنها كانت قاصراً، ولو ظهر زوجها أو والدها، فإن الأوصياء الذكور عليها سيكون بإمكانهم اتهام الحكومة العراقية باختطافها. ضحك ضابط الشرطة العسكرية الأميركي عند الإشارة إلى الحكومة، وقال إن الولايات المتحدة كانت هي صاحبة السلطة الآن. لقد صدّق ادعاء الفتاة بأنها سوف تتعرض للقتل في اللحظة التي كان سيتم فيها إطلاق سراحها من مركز الشرطة.

كان الرجلان على حق. كانت ستقتل إذا تم إطلاق سراحها. ولكن لم تكن الشرطة تمتلك أي سلطة، بموجب القانون العراقي، باحتجازها.

لم أكن لحسن الحظ بالنسبة لي، مضطرة إلى اتخاذ أي قرارات. لم أكن هناك لأقرر أو لأحكُم. كان الغرض الوحيد من وجودي هو التأكد من أن الفتاة كانت بأمان وتحصل على ملابس وطعام، وبصحة جيدة.

«أنا هنا فقط لأتحدث إلى الفتاة، هل يمكنني، من فضلك، أن أراها؟»

تقدَّم رجل الشرطة العراقي، وأشار إلى غرفة خلفه. أومأت ليوسف، مشيرة إلى أن عليه أن يبقى ويحاول الحصول على رواية رجل الشرطي العراقي للقصة.

فتحت الباب على غرفة صغيرة مفروشة بالأثاث الضروري فقط: موقد وإبريق شاي وثلاجة وطاولة مربعة قابلة للطي. كانت الفتاة تجلس في الزاوية المقابلة، وكانت قد سحبت ركبتيها إلى صدرها، وكانت ذقنها ترتكز فوقهما. كانت تتأرجح جيئة وذهاباً، وبالكاد لاحظت دخولي. لست متأكدة مما كنت أتوقع، ولكن رؤيتها صدمتني. كان جلدها يتدلى من عظامها، وأكّد شعرها الأسود الكثيف الطويل، الذي كان ينسدل على ظهرها، قصورها. لقد كانت طفلة محصورة في جسد امرأة عجوز.

توجهت نحوها بهدوء وجلست إلى جانبها. لم أكن متأكدة كيف أبدأ، لذا قلت، مرحباً، وقدَّمتُ نفسي.

استمرت في التأرجح، ولم تقل شيئاً.

جلسنا كِلتانا معاً في صمت بما بدا وكأنه ساعات، ولكن ربما مرَّت بضع دقائق فقط. وتكلمت أخيراً وأخبرتني أن اسمها كان كلثوم. ثم عرضت علي شرب الشاي.

عندما وقفت، أدركت لماذا قال رجل الشرطة العراقي إنه لا يستطيع أن يحميها، ولا حتى من رجال شرطته. لقد كانت طريقة لباسها -جينز كابري ضيق وبلوزة ضيقة بدون أكمام وقبَّة منخفضة- تغضِب حتى أكثر الرجال العراقيين تحرراً.

لقد امتنعت نساء النخبة عن ارتداء الحجاب، وكانت النساء المتحررات يرتدين الجينز أو التنانير القصيرة. وكلثوم تجاوزت هذه الحدود إلى حد بعيد.

كانت بحاجة إلى ملابس جديدة، وكان ذلك أمراً ضرورياً. تركتها لفترة قصيرة لأعطي يوسف تعليمات للذهاب وشراء بعض الملابس لها.

عندما عدتُ كانت كلثوم قد صبت فنجانين من الشاي. سألت وهي تبتسم، «كيف يمكنك مساعدتي؟» لقد أعجبتُ بأنها كانت قادرة على أن تكون واقعية جداً في سن السادسة عشرة.

وكانت هي أقل إعجاباً بجوابي. «لست متأكدة من أنه يمكنني مساعدتك. ولكن قبل أن أتخذ ذلك القرار، يجب أن أعرف بالضبط من أنت، وما الذي حدث لك.»

قالت بخجل، «أنا متأكدة من أنهم قد قالوا لك إنني عاهرة. أولئك المنافقين هناك في الخارج. لقد كان أحدهم من زبائني. وذلك هو السبب أنهم يتوقون جداً لإخراجي من هنا.»

لقد استغلها الرجل، أحد رجال الشرطة، لممارسة الجنس، والآن يريد أن يطلق سراحها وتركها لمواجهة الموت. ذلك لم يكن، كما يمكن أن يتوقع المرء في الولايات المتحدة، لأنه كان يخجل من كونه زبوناً لعاهرة، ففي العراق، على العكس من ذلك، لم يكن من غير المألوف بالنسبة للرجال الانخراط في مثل هذا السلوك. كانوا يفعلون ذلك بشكل علني جداً وبدون ندم. ولكن الحكم على العاهرة؟ الموت. لذا، فإن الرجل بعينه الذي ضاجع كلثوم كان يريدها أن تموت بسبب ذلك.

قلت، «كلثوم،» وأنا أشعر فجأة بفضول بشأن ما إذا كان ذلك هو اسمها الحقيقي، «لن أتظاهر بأنني أعرف ما الذي تمرين به. ولكنني أريدك أن تخبريني تماماً ما الذي حدث. من هم الرجال الذين كانوا يطلقون النار عليك؟ وأيضاً، هل لديك مكان يمكنك الذهاب إليه، غير هذا المكان هنا؟»

هزت رأسها وقد اغرورقت عيناها بالدموع. إن الرجلين اللذين كانا يطاردوها هما زوجها وشقيقه. قبل ثلاث سنوات أجبرتها عائلتها على الزواج من ابن عمها، وكانت في الثالثة عشرة من عمرها حينئذ. أخرجت صورة من محفظتها وأرتني صورتها بفستان الزفاف إلى جانب رجل كبير في السن لدرجة تجعله يبدو كما لو كان والدها. وفي ليلة عرسها، لم ترغب بممارسة الجنس، لذا، فقد ضربها زوجها الجديد واغتصبها. لقد أصبح هذا، وفقاً لكلثوم، نموذج العلاقة الحميمية العادية بينهما. لقد أخرجها من المدرسة، وحبسها في منزله. وقد فكرت بقتل نفسها.

بعد ذلك غزا الأميركيون العراق. في ذلك الأسبوع ذاته، هربت كلثوم، ووجدتها امرأة أكبر في السن في الشوارع وقدمت لها الطعام والمأوى. وقامت على رعايتها حتى استعادت عافيتها، وكانت تعطيها حبوباً لتسكين ألمها. وسرعان ما أصبحت كلثوم مدمنة. في ذلك الوقت لم تدرك أن المرأة كانت رئيسة شبكة دعارة.

لقد سمعتُ العديد من القصص المشابهة. ولكن سماعها بشكل مباشر من كلثوم، الطفلة، جعلني أشعر بالغثيان.

«لقد قصدتُ كل كلمة قلتها. كنت أريد أن أتأكد من أنك تحصلين على طعام ومأوى ورعاية صحية جيدة. وإذا كان بإمكاننا إخراجك من هذا المكان، وقررتِ أن تستمري مع المرأة الأكبر سناً، أريدك أن تحمي نفسك من المرض والحمل غير المرغوب فيه.»

قالت بهمس بالكاد يمكن سماعه والدموع تملأ عينيها، «أنت متأخرة جداً بشأن ذلك.» ووضعت يديها على معدتها لتشير إلى أنها كانت حاملاً بالفعل.

أغمضتُ عيني. كانت الشمس الآن قد بدأت غروبها. وكان حظر التجول سيبدأ في غضون بضع ساعات. وكان يتعين علي أنا أيضاً أن أخرج من هذا المكان.

احتضنت كلثوم، وشرحت لها أن أول شيء سأفعله في صباح اليوم التالي هو العودة إليها. وسألتها ما إذا كان من الممكن أن تقدِّم لي معروفاً وتقوم بتغيير ملابسها وارتداء الملابس التي أرسلت يوسف لشرائها لها. لقد كانت في قمة السعادة بشأن توقع الملابس الجديدة، إن لم يكن لأي سبب آخر سوى جعل رجال الشرطة العراقيين يتوقفون عن معاملتها كما لو كانت قمامة.

كنت آمل أن يكون يوسف قد عاد ومعه البضاعة. عندما ذهبت لأتأكد، اعترض العسكري الأميركي طريقي. «آسف يا سيدتي، لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان.»

سألت بتحدٍ، «عفوا؟» فأشار نحو شباك ورائي. التفت ونظرت إلى الخارج. كان هناك عشرات الرجال قد احتشدوا الآن عند نقطة التفتيش، وكان رجال الشرطة العسكريين ومعظم رجال الشرطة العراقيين يعترضونهم ويمنعونهم من الدخول.

«عائلة الفتاة كلها في الخارج. زوجها وإخوانها ووالدها، جميعهم يطالبوننا بتسليمها لهم. لسنا متأكدين مما سنفعله. ولكن الشرطي العراقي قال لي إنك إذا خرجتِ، فستكونين الهدف الجديد لغضبهم. سيدتي، أنت أميركية وأنت مسؤوليتي الآن.»

ألقيت نظرة إلى الخارج. كان أفراد عائلة كلثوم يبدون كما لو كانوا خارجين لسفك الدماء. لقد كان الشرطي العسكري على حق. لو رأوني

فإن ذلك سوف يستثيرهم. وإذا اخترقوا نقطة التفتيش ووصلوا إلى كلثوم، فلن يكون هناك أدنى شك بأنهم كانوا سيقتلونها. ونظراً لأن القانون العراقي يحمي الأب والزوج في حالات من هذا القبيل، فلم يكن لديهم شيء يخسرونه. كان يتعين عليّ الاختباء والابتعاد عن نظرهم.

لقد كنا جميعاً عالقين.

* * *

لم يكن قرار الذهاب إلى العراق هو قراري أنا لوحدي، بل كان شاناً أسرياً. عندما جلست لأول مرة مع والداي لأخبرهما بأنني كنت أريد قبول وظيفة لمدة سنة في بغداد، حدقا في وجهي غير مصدّقين.

أوضح والدي أنه كانت لدي وظيفة رائعة في واشنطن العاصمة. لقد كانت وظيفة، وفقاً لوالدتي، قد يقتل أي شخص نفسه من أجل الحصول عليها.

كان ذلك صحيحاً. لقد استمتعت في العمل في البنك الدولي (World Bank) لمدة ثلاث سنوات، ولكنني كنت على استعداد للالتحاق بعمل جديد. وكطالبة سابقة في العلاقات الدولية، كان هدفي دائماً مساعدة الناس، بشكل مباشر، في الدول النامية. وبدلاً من ذلك، كنت أجلس بارتياح في مبنى مكاتب زجاجي شاهق في أكثر دول العالم تطوراً. كنت أريد أن أفعل أكثر من ذلك.

سألت والدتي، «هل هذه هي طريقتك في إخبارنا أنه تم طردك؟» رافضة تصديق أن أي ابنة عاقلة لها من شأنها أن تتخلى عن مؤسسة متعددة

الجنسيات مرموقة من أجل عمل في منظمة غير حكومية وغير معروفة وصغيرة بنصف الراتب الذي تحصل عليه.

باشرت بالشرح مرة أخرى. كنت بحاجة ماسة إلى أن يحاول والداي فهم أن هذه كانت فرصة العمل. لقد عرِض علي منصب مدير قُطري مع منظمة «نساء من أجل نساء» الدولية، وهي مجموعة كانت تساعد الناجيات من الحرب من أجل إعادة بناء حياتهن.

كان العراق قد بدأ للتو يلعب دوراً بارزاً في حياتي الخاصة. لقد بدأت حياتي المهنية، في السابق في العام 1997، في بغداد، وكنت المسؤولة عن إعداد التقارير في برنامج النفط مقابل الغذاء التابع للأمم المتحدة. وقد أدى الخوف من صدام حسين إلى أوامر صريحة بعدم الاختلاط مع أي من السكان المحليين، وكان ذلك من أجل سلامتهم أكثر مما كان من أجل سلامتنا. وقد كنت أعِد نفسي دائماً بأنني كنت سأعود إلى بغداد في ظل ظروف مختلفة.

شرحت لوالداي أن هذه كان فرصتي لتحقيق حلمي في مساعدة المجتمعات للنهوض من الأسفل إلى الأعلى.

جلس والدي بصمت، وكوني ابنة والدي كان يعني عدم رفض أي شيء لي أبداً. دعوت بصمت أن لا يبدأ والدي بقول لا الآن.

قال، «فهمتُ الأمر. أفهم لماذا تريدين ترك البنك. ولكنني لا أعتقد أنه يتعين عليك البدء بالعراق أو أي مكان آخر محفوف بالمخاطر. نحن لم نتخلص بعد من الذعر الذي سببته في أفغانستان الشهر الماضي. ولا أعتقد أنه يتعين عليك الذهاب للعمل مع منظمة صغيرة. هذا النوع من العمل

يحتاج إلى منظمة كبيرة يمكنها أن تدعم موظفيها في الميدان.» كانت نبرة صوته حازمة، ما يشير إلى أن هذا كان هو جوابه النهائي، وأنه ليس هناك مجال للتفاوض.

بدا ذِكر أفغانستان مؤلماً. لقد كنت في كابول على رأس وفد من النساء الأميركيات من أجل اليوم العالمي للمرأة عندما قامت الولايات المتحدة بغزو العراق. وأصدرت السفارة الأميركية أوامر بأن يدخل جميع الأميركيين في «حالة سبات،» وهو التعبير الرسمي لتجنب لفت النظر إلينا. النتيجة العملية: قبَعتُ داخل فندق مصطفى بالقرب من شارع تشيكن، منطقة المغتربين الأكثر شعبية في كابول، وشاهدتُ مسلسل «الجنس والمدينة» (Sex and the City) على الأقراص المدمجة. وكان أكثر ما يخيفنا هو أن يتعطل التلفاز.

تجاهلتُ قول والدي وواصلت الضغط بشأن قضيتي، وهذه المرة بالمناشدة على صعيد شخصي أكثر، فقد سمعني في الماضي أتحدث عن جمال بغداد، وكنت أكرر كم عشقت المدينة: الرحلات المتأنية في القوارب عبر نهر دجلة، والمكتبات المصطفّة على طول شارع المتنبي، والقهوة العربية القوية.

لم ينجح ذلك.

ردّت والدتي بمرارة، «إذا كنت لا بد أن تساعدي أحداً، ساعدي أقاربك في فلسطين. إنني فقط لا أفهم، لقد كان رئيسك يحبك، لماذا سيطردك؟»

تنهدتُ. لقد كانت والدتي حالة ميئوساً منها. وبدا والدي قابلاً للإقناع أكثر نوعاً ما. بعد ذلك هز رأسه، وكان الجواب لا. لم يكن هذا

يبشّر بخير. لقد كان رجلاً قليل الكلام، وكنت أعرف أن كلامه كان نهائياً عندما نطقه. لقد كان يأخذ وقته لاتخاذ قرار، ولكن بمجرد أن يقرر، كان من المستحيل، تقريباً، قلب حُكمه. تقريباً. وبالرغم من ذلك كله، فقد كنت ابنة والدي، وقد ورثت الإصرار ذاته.

الشيء التالي الذي كان يتعين عليّ أن أفعله هو اقناع أشقائي الثلاثة وشقيقتي، رولا. ومن الطبيعي أن رولا كانت حليفاً وفياً، ولكن لم يكن من الممكن الاعتماد عليها في هذه المناورة. لقد أخبرتني أنها كانت غير راغبة في فقدان شقيقتها الوحيدة من أجل حرب كنا جميعا غير موافقين عليها.

في الوقت ذاته، واصلت الالتقاء مع إدارة منظمة «نساء من أجل نساء»، وكان مسؤول اللوجيستيات الرئيسي سيغادر إلى العراق في الأسبوع الأول من حزيران/ يونيو للبدء بإعداد العمل الأساسي للمكتب. وكان يجب علي أن ألحق به بعد شهر.

لذا، فقد بدأت بعقد سلسلة من الاجتماعات العائلية في طابق التسوية بمنزل شقيقي في نورث فيرجينيا. لقد كنت أحترم والداي إلى حد كبير جداً، ولم أتمكن من الذهاب بدون موافقتهما. وكنت أدافع عن قضيتي في اجتماع بعد اجتماع، وفي كل مرة كان يتم إحباطي. لقد كانت المرة الأولى التي تتحد فيها عائلة عمر ضد شيء ما - ضدي أنا. لم يكن هناك أي شيء من الممكن أن يقنع عائلتي بأن حاجتي إلى الذهاب إلى العراق كانت منطقية. غيّرت تكتيكاتي، وحاولت أن أجعلهم يرون أنه كان لدي شيء يجب أن أقدّمه. خبرتي ودراساتي، مجتمعة مع خلفيتي كمسلمة عربية، كانت مطلوبة في البلد.

أصر والدي، «ليس هناك في العراق سوى عملاء للمخابرات المركزية الأميركية أو الوعّاظ.»

رددت عليه، «ربما الأمر كذلك، ولكن ذلك يجعل من وجودي هناك أمراً أكثر أهمية!»

عند حلول الاجتماع الثالث، كنت قد بدأت بتحقيق نجاح، أو ربما أنني فقط أنهكتهم. بصرف النظر عن ذلك، أصبحت ردودهم أقل عدوانية وأكثر توجهاً نحو ما كنت سأفعله عندما أكون في العراق. أين سأسكن؟ وما الذي سوف يقدمه البرنامج؟

بدأت بشرح برنامج منظمة «نساء من أجل نساء» الدولية لوالدي. كان يبدأ ببرنامج رعاية، حيث كانت تتم مؤاخاة كل امرأة مسجَّلة مع أخت من دولة متقدمة، غالباً من الولايات المتحدة. وقد منح البرنامج النساء العراقيات أموالاً نقدية للمساعدة في الآثار المباشرة للحرب، مثل الغذاء والماء والدواء، وغيرها من الضروريات. كما كن يتلقين الدعم العاطفي على شكل رسائل.

لقد ركزت منظمة «نساء من أجل نساء» الدولية على النساء الأكثر عرضة للخطر. وهذا كان عادة يعني أولئك اللواتي كن المعيلات الرئيسيات في منازلهن: النساء الأرامل أو المطلقات أو غير المتزوجات اللواتي يُقِمن مع أبوين مسنين. وإضافة إلى التحديات الاقتصادية، كانت هناك وصمة عار اجتماعية مرتبطة بهؤلاء النساء. وهذا كان يعني أن إيجاد عمل لهن كان أكثر صعوبة.

إن البرنامج الذي سأقوم بالمساعدة في تأسيسه من شأنه أن يدعم النساء على مستويين. المستوى الأول هو أن البرنامج قد تناول التحديات

الواقعية المتمثلة في تأمين الغذاء والماء والمأوى، وكان هدفنا الرئيسي هو تدريب المشاركات على المهارات الوظيفية التي من شأنها أن تمكّنهن من كسب دخل. والمستوى الثاني هو أن البرنامج كان يستضيف جلسات نصف شهرية كانت النساء فيها تناقش طرقاً لتحسين حياتهن. وكان جزء كبير يركز على حماية حقوقهن. وفي الوقت ذاته سوف ننظّم ورشات عمل توعية تركز على الرعاية الصحية، وتنظيم الأسرة والحصول على التعليم. لقد أظهرت تجربة «نساء من أجل نساء» الدولية أنه لم يكن بإمكان النساء أن يكنّ مستعدات للمستوى الثاني من التدريب إلا عندما كانت تتم تلبية احتياجاتهن الأساسية.

شرحت لعائلتي أن زينب سالبي كانت قد أسست المنظمة، وكأميركية عراقية ولِدت ونشأت في العراق، فقد كانت هي نفسها إحدى الناجيات من الحرب. لقد كانت مصدر إلهام لي لأنها رفضت أن تكون ضحية، ووجهت تجربتها نحو مساعدة النساء في جميع أنحاء العالم. ومنذ تشكيلها في العام 1993، أثّرت منظمة «نساء من أجل نساء» الدولية بشكل إيجابي على أكثر من خمسمائة ألف عائلة وفرد من أفراد المجتمع في سبعة بلدان.

والآن، كانت زينب تعرض علي فرصة للانضمام إليهن.

سألت رولا، «حسناً، كم هو المبلغ الذي نتحدث عنه؟»

أجبت، «حوالي خمسة عشر دولاراً.»

قال والدي مقاطعاً، «عن جد؟ هل هذا البرنامج جدِّي؟ أنت تخططي لإعطاء النساء العراقيات خمسة عشر دولاراً؟ إننا نتحدث عن

العراق: واحد من أغنى البلدان العربية، بلد لديه واحدة من أفضل البُنى التحتية في العالم للتعليم والصحة. تريدين الذهاب إلى ذلك البلد الغني، وتعتقدين أن بإمكانك مساعدتهن من خلال إعطائهن فستق سوداني. إن ذلك لن يكون غير مجدٍ فقط، بل سيكون مُهيناً!»

لقد كانت المرة الأولى التي رأيت فيها والدي منزعجاً جداً لدرجة أنه وقف وخرج فجأة دون أن يقول لي شيئاً. وعبس إخوتي في وجهي ولحقوا به. لم تكن لدي فرصة لشرح أنه كان يوجد في العراق، كما في الولايات المتحدة، جيوب فقر، ولم يكن الجميع أثرياء. وكانت الخمسة عشر دولاراً في المناطق الفقيرة تمثل الفرق بين تضور أفراد عائلتك جوعاً وبين إطعامهم.

بكيت، ليس بسبب ما قاله والدي، وإنما بسبب الطريقة التي قاله فيها. ولأول مرة كان وجه والدي ممتلئاً بخيبة أمل عندما نظر إلي. وطوال الوقت الذي كنت أكافح فيه من أجل الذهاب إلى العراق، كنت أعتقد أن العقبة الوحيدة كانت سلامتي الشخصية. وبدأت أدرك أنني كنت في وسط معركة أيديولوجية، أيضاً. فبالنسبة لعائلتي الفلسطينية كانت حرب العراق تلامس وتراً حساساً، فقد اعتبر والداي الحرب بمثابة تذكير لما حدث للفلسطينيين في العام 1948. لقد شكّلت ذلاً آخر للعالم العربي على أيدي الغرب. وبقدر ما كان بإمكانهما أن يعرفا، كنت أرغب بأن أكون جزءاً منه - وكنت على الجانب الخطأ.

لقد آلمتني بشدة خيبة الأمل التي واصل والداي التعبير عنها. كانت والدتي تبكي كل ليلة، وتنتهز كل فرصة لتنتحب وتشكو همومها في المناسبات الاجتماعية. وفي العديد من المناسبات العائلية، كانت والدتي تشتكي بشأن كيف كانت ابنتها تعاقبها.

كانت تقول، «لو كنت أعرف فقط ما هي الجريمة التي ارتكبتها، لحاولت التكفير عنها. ولكنني فعلت كل ما بوسعي لأمنحها حياة فضلى. إنني لا أفهم الأمر. إننا نضحي بكل شيء لإخراج أولادنا من منطقة الحرب، وهذه الحرب تواصل الارتداد إلينا!»

كانت معاناة والدي أقل علنية. كان يأخذني جانباً ويتحدث إلي، وكان يقول إنه كان يحاول أن يتحدث إلي ببعض المنطق لإقناعي. وفي إحدى محادثاتنا، ألقى علي محاضرة عن خدع وكالة المخابرات المركزية (CIA)، التي قال إن لها تاريخاً بتجنيد المثاليين أمثالي. وقد اعتقد فعلياً لوهلة أنني كنت سأعمل بشكل سري لصالح المخابرات الأميركية.

وحذرني، «قد تعتقدين أنك تقدمين مساعدة، ولكنك لا تفعلين ذلك. إن أفضل طريقة لمساعدة شعبنا هي الحصول على أفضل الشهادات، وأن نكون الأفضل فيما نفعله. بتلك الطريقة نكسب احتراماً لا يمكن لأحد إنكاره. إن نجاحك هنا ثمين أكثر من أي شيء يمكنك أن تفعلينه هناك.»

كان هناك جزء مني يرغب في التراجع وأن أكون ابنة مسلمة عربية جيدة، ولكن شيئاً ما بداخلي كان يرفض ذلك. لقد كانت لدي فرصة لإحداث فَرق. لقد أصبتُ بإحباط بمشاهدة أناس يجلسون على الهوامش ويتذمرون بشأن حرب جورج بوش وتدمير العراق. لقد رأيت السلبية ذاتها أثناء العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق بعد حرب الخليج في العام 1991. وبحلول العام 2003 كانت العقوبات قد تسببت بإصابة الاقتصاد العراقي بالشلل، ودمَّرت البنية التحتية. وأشارت وكالات الأمم المتحدة إلى وفاة ما يقرب من نصف مليون طفل نتيجة للعقوبات. لقد كان هناك الكثير من الكلام عن جرائم ضد الإنسانية، ولكن لم يتم

اتخاذ إجراءات تُذكَر أبداً. والآن -بعد الغزو بقيادة الولايات المتحدة- تم ترك المدنيين العراقيين ليعانوا مرة أخرى. سوء تغذية وأمراض وأوبئة ومساكن غير كافية. كان الناس يفتقرون إلى ضروريات الحياة الأساسية.

أردْتُ أن أتوقف عن الكلام وأبدأ العمل.

لقد وصلنا كعائلة إلى مرحلة حاسمة يتعين علينا فيها اتخاذ قرارات هامة. لم يكن أي منا على استعداد لتقديم تنازلات. والدي لن يوافق، وأنا لن أتوقف عن المحاولة. كنا نقترب من نهاية حزيران/ يونيو، وكان من المقرر أن أغادر في غضون أسبوعين، وكان أشقائي وشقيقتي غاضبين مني لما كنت أفعله لوالدينا. ولكنني لم أستطع ترك ذلك الأمر يمنعني من ممارسة الضغط لإقناعهم بأنني كنت على حق.

في النهاية، لم أكن لأذهب إذا لم يمنحني والدي بركاته، فقد كان هذا خطأً لا يمكن تجاوزه أبداً. كنت أعرف ذلك، وكان والدي يعرف ذلك. ومع ذلك لم يستخدم والدي أبداً حق النقض بشكل عرَضي، فقد كان يؤلمه أن يقف في طريقي. لقد كنت عازمة على الاستماع إلى كلمته النهائية، ولكن كان من حقي على نفسي كذلك أن أحاول كل ما بوسعي لإقناعه حتى آخر لحظة.

كان من الواضح أن لدى والداي الاستراتيجية ذاتها. فأينما كنت أذهب، كان أصدقاء العائلة يسحبونني جانباً ويلقون علي محاضرة. كانوا يقولون، «أتعلمين ما الذي تفعلينه لوالدتك؟» وكنت أومئ برأسي، وأصغي إلى المحاضرة، وأبتعد وأنا أكثر تصميماً من أي وقت مضى.

لقد أصبحْتُ أتوقع مثل تلك المواجهات، وما لم أتوقّعه كان أن أصدقائي المقربين بدأوا بمواجهتي، أيضاً. لقد كان معظم أصدقائي

يعملون في مجال التنمية الدولية ذاته، وكان معظمهم نشطاء متحمسين في مجال حقوق الإنسان، وقد توقعت الحصول على دعمهم غير المشروط. وبدلاً من ذلك تلقيت المزيد من خيبة الأمل والانتقاد. لقد كانوا يجادلون بأنه بصرف النظر عن طريقة تفكيري بالأمر، فإن قراري يعتبر بمثابة دعم لإدارة بوش. أي نجاح في العراق كان يعادل نجاحاً لبوش.

باختصار، كانوا يرونني خائنة من كل زاوية.

لقد وصلت إلى نقطة الانهيار تحت الضغوطات، وكنت بحاجة إلى الابتعاد والتفكير برويّة. منذ أن كنت في المدرسة الثانوية، كنت أجد الهدوء عند نهر شيناندواه في ويست فيرجينيا. دخلت على الإنترنت وحجزت غرفة في نزل يوفر مبيتاً لليلة وإفطار في ويست فيرجينيا. وكان الوصول إلى هناك يستغرق فقط ساعة واحدة من شقتي في واشنطن العاصمة. وكنت قد تركت رسالة في المنزل تفيد بأنني كنت سأقضي ليلة في الخارج. لقد كان الوقت قد حان لبعض البحث الصريح عن الذات.

هل كان هذا كله يستحق الألم الذي كنت أسببه لوالديَّ؟ هل كنت حقاً خائنة وغبية جداً لمعرفة ذلك؟ هل كنت حقاً أحاول أن أصنع فرقاً، أم هل كان هذا طريقة نرجسية ما سعياً لإثارة الاهتمام؟

قضيت الليل كله أصلي صلاة الاستخارة، وهي صلاة خاصة للمسلمين لمساعدتهم في اتخاذ قرارات صعبة. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت ولدي وضوح بشأن الوضع أكثر مما كان لدي في أسابيع. وكان ذلك شيئاً يتعين عليّ أن أفعله. لقد أصبحت الآن في الثامنة والعشرين من عمري، وإذا لم أسيطر على أمور حياتي الآن، فإنني لن أسيطر عليها أبداً.

وجهت المناشدة الأخيرة إلى والدي. وقمت، مسلحة بالتكنولوجيا الحديثة، بوضع خطة بأفضل طريقة لإقناعه بأنني كنت على حق. البريد الإلكتروني. أرسلت رسالة طويلة بالبريد الإلكتروني إلى والدي، وأوضحت له حججي مرة أخرى. وجاء في الفقرة الأخيرة ما يلي:

أبي، من المسلَّم به أن كلمتك ستكون هي الكلمة النهائية. وأنا أعرف أن لا شيء مما ورد أعلاه يمكن أن يقنعك، ولكنني، في نهاية المطاف، أطلب منك أن تؤمن بي وأن تثق بي، إنني بحاجة للقيام بهذا الأمر. إنني متأكدة أن بإمكاني تقديم المساعدة. ولن أتمكن من فعل هذا أبداً بدون مباركتك.

بعد أن أرسلت رسالتي بالبريد الإلكتروني، عدت بالسيارة إلى فيرجينيا. وعندما وصلت إلى المنزل، وجدت رد والدي المقتضب في صندوق رسائلي الواردة:

لا أعرف ما هي القوة الشيطانية التي تجرّك إلى العراق، ولكنني أعرف أنه لا يمكنني إيقافك. اذهبي، وليباركك الله.

لم تكن تلك بالضبط هي المراسلات بين والد وابنته التي تخيلتها، ولكن كان من شأنها أن تفي بالغرض. لقد كانت والدتي مصرّة على أنني كنت ألعب بالنار، ولكنها كانت تعرف أنه بمجرد أن يكون والدي قد وافق، لم يعد هناك الكثير مما يمكن قوله. وفي الواقع أن جميع الأمور سارت فوراً بشكل مُرضٍ.

في 4 تموز/ يوليو، 2003، وهو ذكرى عيد الاستقلال الأميركي، غادرت مطار واشنطن دالاس الدولي إلى عمّان، الأردن. لم تكن مرارة السفر في يوم الاستقلال هباء، حيث فكرت بالمناقشات التي لا تعد ولا تحصى التي أجريتها عن العراق بين التحرير والاحتلال. وعلى الرغم من اختلافاتنا، فقد حضر جميع أصدقائي وأفراد عائلتي إلى المطار لوداعي. لقد شعرت بالامتنان لأولئك الموجودين في حياتي. وبقدر ما عارضوا قراري، فقد منحوني الحرية في اتخاذه. وعندما حان الوقت، كانوا إلى جانبي ليتمنوا لي حظاً سعيداً.

حتى والدتي حضرت إلى المطار، وعانقتني، على مضض، وحذّرتني، من خلال دموعها، من أنني ربما قد خدعت والدي، ولكنها كانت لا تزال غير راضية عن قراري. لذا، فقد وعدتني، إذا متُّ، فإن العائلة لن تقيم أي مراسم جنائزية.

وبالمقابل، وعدتها بأن أزورها كثيراً.

2
رحلة عن طريق البر

كنت خائفة. كنت أعلم أنه لم يكن هناك سبب حقيقي لأكون خائفة، ولكن لم أستطع منع نفسي من ذلك. كانت الساعة 3:30 فجراً، وكنت أقف خارج ساحة مواقف سيارات أحد الفنادق في الأردن وأنتظر رحلتي إلى بغداد. كان برنامجنا يتمثل في الذهاب إلى حدود الأردن-العراق، وكان يتعين علينا الانتظار حتى شروق الشمس للعبور إلى داخل العراق، ومن ثم كنا سنعبر البلد بسرعة كما لو كان هناك شيطان يطاردنا.

لقد كنت سأفعل هذا فعلياً. ولم أتمكن من تصديقه تماماً.

قبل أقل من أربع وعشرين ساعة كنت قد صعدت على متن طائرة رحلتي من مطار واشنطن دالاس الدولي، مفعمة بالترقب، وقد وصلت اللحظة التي قضيت ثلاثة أشهر أكافح من أجلها. ولكن لوهلة ما أثناء ذلك، اجتاحني شعور بالرهبة. وبدلاً من الصراخ من شدة الفرح، كنت أريد أن أستدير وأهرب.

لماذا لم أذهب بالطائرة إلى بغداد؟ حسناً، لم تكن هناك رحلات جوية رسمية. وكان السفر براً هو الخيار الوحيد. ولكن لم يقم أحد بجعل الطرق بين الحدود وعاصمة العراق آمنة. وكانت مقاهي عمّان مليئة بقصص عن

مسافرين لم ينجحوا أبداً في الوصول إلى وجهتهم. فقد كانت السرقات على الطرق السريعة، التي كانت عقوبتها في السابق الإعدام في ظل حكم صدّام، منتشرة. والأكثر من ذلك أن الجسور السابقة داخل المدينة قد تعرضت للقصف، ما جعل المسافرين يعتمدون على طرق بديلة. وعلى الرغم من أنه تمت الإطاحة بحكم صدام من السلطة الرسمية، فإن البعثيين الآن كانوا يسيطرون على المناطق الواقعة حول بغداد. وكان الجميع يعرف أنهم كانوا مسؤولين عن كل حركة المرور المدنية داخل البلاد.

وكان السفر الأكثر خطورة في العراق هو الرحلة التي كنت على وشك الشروع بها.

ولجعل الأمور أسوأ، كنت مسافرة إلى بغداد مع زينب سالبي، رمز للمرأة التي نجحت في مواجهة الحرب وتداعياتها. وكانت قد أسست منظمة «نساء من أجل نساء» الدولية في العام 1993 في البوسنة والهرسك، ومنذ ذلك الحين فتحت المؤسسة مكاتب في مناطق مزقتها الحروب، مثل الكونغو ونيجيريا وأفغانستان. وتم تكريم زينب نفسها في العام 1995 من قِبل الرئيس بيل كلينتون لعملها في البوسنة والهرسك، وتم اختيارها المرأة المبتكرة لذلك الشهر في مجلة تايم، وحصلت على جائزة تريل بليزر للعام 2005، والتي تمنحها مجلة فوربس. إنها واحدة من قادة المنظمات غير الحكومية الذين يظهرون في برنامج أوبرا وينفري، وكانت ضيفة أوبرا لخمس مرات.

كان الوجود مع زينب مثيراً للخوف بالنسبة لي، وكان يملؤني الشك بذاتي باستمرار، واعتقدت أنني ارتكبت خطأ. أنظر إلى هذه المرأة! إنها هادئة جداً ومسيطرة على نفسها. هذه امرأة تعرف ما الذي تفعله. هذه

امرأة تدخل إلى بلد مزقته الحرب لتساعد نساء أخريات. لست أنا هذه المرأة!

أثناء وقوفي قلقة أمام الفندق، ودّعت زينب شقيقها الأصغر وداعاً مطوَّلاً، فقد احتضنته، وقرصت خديه، واحتضنته مرة أخرى. لم أتمكن من التخلّص من الشعور بأنني لم أكن أنتمي إلى هذه الرحلة. وما جعل الوضع يتفاقم هو أن شركة الطيران قد فقدت أمتعتي. وتشبثت بالشيء الوحيد الذي أمتلكه: حقيبة الكتف، فقد كانت محتويات الحقيبة هي كل ما كنت أمتلكه الآن: جواز سفري وجهازي الآي بود وطقم لوازم إسعافات أولية صغير وكتاب وبلسم للشفاه ومناديل معقِّمة ونسخة صغيرة من القرآن الكريم. وقد جعلني إدراك ذلك أشعر حتى بحزن أكثر.

لقد وصلتنا بعض الأخبار الجيدة، فقد قامت بضع سيارات دفع رباعي (إس يو في) أخرى بالاتصال بنا لاسلكياً لإخبارنا بأنهم سوف يقابلونا عند الحدود، بحيث سنسافر الآن في قافلة مكونة من أربع سيارات جي إم سي أردنية بدلاً من مركبة واحدة. وكان سائقنا لا يزال يبدو متوتراً، ولكن عندما غادرنا ساحة موقف السيارات، بدأت زينب بالدردشة معه. من أين هو؟ منذ متى وهو يسافر على خط عمّان- بغداد؟ أين يعتقد أن صدام كان يختبئ؟ حاولت أن أدخل في غفوة وأن أتوقف عن الانتباه إليهما. لقد كان صوتها مفعماً بالنشاط إلى حد كبير بالنسبة للساعة 4:00 فجراً!

بدأت زينب بالبحث داخل المبرِّد الذي كان شقيقها قد أحضره لها، وسألت وهي تزيل الورق عن شطيرة فلافل، «هل هناك أحد يريد فلافل؟»

ضحك السائق بصوت منخفض، وحاولتُ أن أتظاهر بالبرود وأن أضحك بهدوء أيضاً، ولكن الضحكة خرجت كأنها صوت شخير أكثر. كيف يمكنها أن تأكل في وقت مثل هذا؟ أردتُ أن أذكِّرها إلى أين كنا ذاهبين. بغداد. إلى داخل بلد كان في خضمّ حرب - بصرف النظر عن ما قاله الرئيس بوش.

أخرجتْ وسادة على شكل حرف يو (U) قابلة للنفخ، وقناع للعينين، متناغم، ووضعته فوق شعرها المقصوص قصيراً والذي كان يجعلها تبدو كتوأم مطابق لشقيقها.

أخبَرَت السائق، «سوف آخذ غفوة. إذا واجهنا أي من قطّاع الطرق، أو خلية متجولة من خلايا القاعدة، تأكد من إيقاظي. لا أريد أن أفوّت عليّ الإثارة.» وبعد أن قالت ذلك، اختفت داخل المقعد الخلفي.

الآن، كان لدينا مدمنة أدرينالين حقيقية. كانت أي إثارة أحسست بها في البداية بشأن الذهاب إلى بغداد قد تلاشت منذ فترة طويلة.

أجبرني لعب دور المحامي طوال الأشهر القليلة الأخيرة على أخذ موقف الهجوم، ولم تكن لدي حتى لحظة للنظر في الشكوك والمخاوف التي كانت مكتومة في الداخل. وقد منحتني رحلة الساعات الثماني عشرة هذه الكثير من الوقت لتعويض ما فاتني.

* * *

لم أبدأ بفهم المدى الكامل للمخاطرة التي كنت أخوضها من خلال إطلاق مكتب مخصص للنساء المهمّشات في العراق، إلا عندما وصلتُ إلى

بغداد. وعلى الرغم من حقيقة أن الرحلة إلى داخل بغداد كانت هادئة وخالية من الأحداث، فقد كانت سيناريوهات الحالة الأسوأ للحياة في المدينة تعصف داخل ذهني.

قد ينضم التمرّد إلى القاعدة ويجعلان العراق مكاناً كالجحيم.

قد أتعرض للاختطاف.

قد يتم اعتقالي من قِبل القوات الأميركية بسبب خطأ في تحديد الهوية.

قد أعلق في تبادل لإطلاق النار بين القوات الأميركية والبعثيين.

ستتم إثارة نقاش فوق جثتي بشأن ما يجب وضعه على بطاقة تعرِّفني: خائنة أم إرهابية؟

كانت مخيلتي تصبح أكثر شروداً مع كل ساعة تمر. وعلى الرغم من تطمين زينب (لقد كانت في هذه الأنواع من الأوضاع من قبل، وكانت تعرف ماذا كانت تبدو الاحتمالات)، لم أتمكن من خفض مستوى اليقظة لدي، وأصبحتَ مقتنعة بأنه كان مقدَّراً للعراق أن يصبح فيتنام أخرى، وكنت أتصارع مع فكرة أن زينب كانت ستعود في غضون بضعة أيام إلى واشنطن العاصمة، وسأبقى وحدي.

حاولْتُ التشارك بأفكاري مع زينب بشكل غير مباشر، وفي كل مرة كانت تجيب بنظرة صرامة جليّة في عينيها البنيتين الداكنتين. وبدون النطق بأي كلمة، كانت النظرة تحذرني من أنني إذا كنت أعاني من نقص في الشجاعة، فقد كان من الأفضل لي أن أنسى الأمر برمته. بسرعة! لقد كان ذلك الخيار الوحيد. لقد وثقت ثقة عمياء بتوظيف فتاة عشرينية كمديرة

لمشروع البلاد، و سوف يسبب قيامي بالتخلي عن الأمر في اللحظة الأخيرة إحراجاً لكلتينا. ومع ذلك كانت هناك طيبة في نظرتها، ونوع من التشجيع لامس ابتسامتها، مما جعلني أخجل من الاعتراف بالشك الذي كان يساورني. عظيم، لقد تدبرت إضافة بند جديد إلى قائمة مخاوفي: التسبب بخيبة أمل لزينب.

حاولْت بشدة أن أضع قلقي ومخاوفي جانباً بحيث يمكنني، ببساطة، أن أستوعب المدينة كما كانت عليه.

* * *

لقد كانت زينب مغتبطة بأن تكون في وطنها ومع عائلتها. ومنذ لحظة وصولنا، مكثنا مع خالها. كان منزله محشوراً داخل زاوية في منطقة الكاظمية، حيث كانت هناك جدران خرسانية كبيرة تفصل البيوت عن بعضها البعض. وداخل الجدران الباردة كان دفء عائلتها الممتدة ينتظرنا.

قفزت زينب خارج السيارة واختفت خلال البوابة. وخرج شاب من غرفة الحراسة وبدأ بإنزال أمتعتنا. حسناً، أمتعة زينب. تبعتها من خلال البوابة. وفي اللحظة التي مررت فيها عبر البوابة استقبلني كلبان، وأخذا يركضان حول كاحلي وتناوبا في محاولة القفز على حجري. منذ طفولتي كنت من محبي الكلاب، لذا فقد جثمت إلى مستوى عيونهما، وقمت بالتربيت على بطن أحدهما بكف يدي في حين كان الآخر يركض من حولي. لقد كنت مسرورة لرؤية صديقي الجديدين بحيث أنني لم ألحظ رجلاً كبيراً في السن يقف بالجوار ويراقبني.

قال وهو يمد يده اليمنى للتحية، «بالتأكيد أميركية.»

أميركية - الكلمة التي يستخدمها العرب للإشارة إلى الأميركيين. إن لدى معظم العرب والمسلمين كراهية شديدة للكلاب، حيث تعتبر الكلاب، عقائدياً، نجسة من قِبل الغالبية من السنيين والشيعيين، والاستثناء الوحيد هو ضمن المذهب المالكي من الفكر الإسلامي والذي كنت من أتباعه.

وقفت، وكنت محرجة أن أمدّ يدي له بعد أن لعقها الكلبان.

ابتسمت رداً على ابتسامته، «أنا نفسي مهجّنة قليلاً،» ومددت يدي على أي حال. وظننت أنه قد يكون من الأسوأ بكثير ترك يده معلقة.

لقد كانت مصافحة الرجل قوية، والابتسامة العريضة التي أظهرها أثناء موازنة السيجار على طرف فمه، انعكست في عينيه الرماديتين المائلتين إلى الأزرق. كان طوله حوالى خمسة أقدام وثمانية إنشات، وله بطن كبير، سمة مميِّزة للعراقيين، جعله يبدو كما لو كان حاملاً في الشهر التاسع بتوأم، وكان يشعّ بالثقة والدفء. وكائناً من كان، فقد عرفت أنني أستلطفته، حيث جعلني شيء ما فيه أشعر تلقائياً بارتياح.

أتت زينب مسرعة خارج المنزل، ورمت نفسها بين ذراعيه، وقالت، «هذا عمي فهد، إنه الشخص المفضل لدي في العالم.»

اتسعت ابتسامته باتجاه أذنيه. لقد كان من الواضح أنها كانت ابنة أخيه المفضلة.

قامت زينب بسرعة بالتعريف بي، واستدرنا نحو المنزل. لقد كان منزلاً حديثاً كبيراً فيه بركة سباحة صغيرة في الجهة الأمامية. وما أثار

إعجابي بشدة هو ما كان يكمن خلف المنزل، فقد تم بناء المنزل على ضفة نهر دجلة، الذي يجري عبر مدينة بغداد. وسرت رعشة في عمودي الفقري عندما نظرت نحو الطريق المائي التاريخي المذكور في الإنجيل مرتين، والذي كان شريان الحياة بالنسبة للسومريين القدماء.

لقد ذكَّرني كيف بدأت قصة حبي لبغداد، في الماضي في العام 1997 عندما كنت هنا مع الأمم المتحدة. وبمجرد أن أدركْتُ أن كل زاوية شارع كان لها جزء من ثقافة أو فن أو تاريخ مع كون النهرين -دجلة والفرات- كالإلهام، وقعت في الحب. لقد كنت مبتهجة لأنني عدتُ.

كانت توجد بجانب البركة حديقة فيها كراسي خاصة بفناء المنزل، وكان هناك ثلاثة صبيان صغار يركضون حول الكراسي ويلعبون لعبة حرب وهمية، ويختبئون خلف جدران وهمية وهم يطلقون النار على بعضهم البعض بواسطة مسدسات بلاستيكية. هزّت زينب رأسها واستدارت نحو عمها.

«هذه هي المشكلة في العراق. من سن صغيرة نعطي أولادنا مسدسات ونربيهم على العنف.»

ابتسم العم فهد، «إنها مشكلة (broblem) في العالم كله، يا عزيزتي.»

كانت لغة فهد الإنجليزية جيدة جداً، بشكل عام، مع الاستثناء الواضح بالاستبدال المستمر للحرف b بدلاً من الحرف p، حيث لا يوجد مرادف للحرف p في الأبجدية العربية، ولهذا فإن الكثير جداً من العرب يستبدلونه بالحرف b. أثناء نشأتي، كنت وإخوتي نرتمي أرضاً من الضحك كلما طلب أحد أبوينا بيبسي (Bebsi) بدلاً من بيبسي (Pepsi). وكنا نغيظ أبوينا بلا رحمة لدرجة أنهما كانا يشددان بشكل مبالغ فيه على حرف p عندما

يكونون في مكان عام. وكانا في بعض الأحيان يرتبكان لدرجة أنهما قاما بتعويض كل سنوات اللفظ الخاطئ للحرف p باستبدال جميع أحرفهم الـb. لذا فقد تحولت كلمة بيكيني (bikini) إلى كلمة پيكيني (pikini)، وبايك (bike) إلى پايك (pike). وكانت النتيجة النهائية أنني كنت أتمتع بطلاقة في لغة إنجليزية ناشئة، وكان بإمكاني أن أفهم العم فهد بسهولة.

تركنا الأولاد، ووضع العم فهد يده في يدي وأدخلني إلى غرفة المعيشة. وأثناء استرخائنا على الأريكة، شرح لي ما اعتبره أنه كان وضع البلاد.

وقال، «العراق آمن جداً. لا تستمعي إلى القنوات الفضائية العربية. كل عراقي سعيد أننا تخلصنا من الدكتاتور المرعب صدام. إن بلدنا لم تسنح لها الفرصة لتعرف إمكانياتها. والآن سنحت لها. وهذا أمر مخيف بالنسبة للكثير من جيراننا.»

كنت أومئ برأسي وهو يتحدث. لقد كان ذلك تقريباً كل ما كان بإمكاني القيام به. وكنت مرهقة جسدياً وذهنياً بسبب الرحلة التي استغرقت ثماني عشرة ساعة إلى بغداد. ولم أكن متأكدة لماذا بدأ بحماس التحدث معي بمثل هذا الموضوع الجدي جداً بشكل عاجل جداً.

ابتسمت زينب لنا من المدخل، وقالت، «لا تقلق يا عمي فهد، لقد أمضت منال معظم حياتها في أميركا. إنها أميركية أكثر منها عربية، حتى من الناحية الإسلامية. كنت مضطرة إلى الاستماع إليها وهي تغني أغنية نيللي 'هوت إن هير' طوال الطريق.»

ثم التفتت إلي وشرحت، «إن عمي قلق من أن تكوني وهابية أو أصولية. إن حقيقة أنك آتية من أميركا وترتدين الحجاب يجعل الناس

يفترضون أنك متطرفة. وكذلك، فإن معظم العراقيين محبطون من الكلام العربي عن المتمردين. إن أشخاصاً مثل عمي لا يريدون سوى فرصة لإعادة بناء العراق وتأمين مستقبل لأولادهم. إنه يريد التأكد من أنك لست متأثرة بقناة الجزيرة.»

«أوه.» لقد كان ذلك منطقياً بالنسبة لي. «لا تقلقي. إن لغتي العربية ليست جيدة بما يكفي لكي أشاهد قنوات إخبارية عربية. قد أكون قلقة أكثر بشأن اعتمادي على السي إن إن التي أعتبرها إم تي في للكبار.»

ضحك العم فهد. «إنك على حق. إن جميع القنوات الإخبارية قمامة. فقط عديني بشيء واحد. خذي وقتك في الاستماع إلى العراقيين. إننا نعاني كثيراً، ولكننا لسنا أناساً أغبياء. إننا نعرف بالضبط ما نحتاج وما نريد.»

لقد كانت كلماته الحكيمة بمثابة الركن الأساسي للعمل السليم في القضايا الإنسانية والتنمية. وبقدر ما كنا نعتقد أننا كنا نعرف ما كنا نحتاج إليه، ففي النهاية المجتمعات التي خططنا للعمل معها كانت تعرف حقاً. في تلك الأمسية قطعت وعداً له ولنفسي على حد سواء: أن أبقي أذناي مفتوحتان، وأن أستمع إلى العراقيين.

شعرت بالخجل من كل الخوف الذي اجتاحني في الرحلة إلى بغداد، فبعد كل شيء كان الخطر الوحيد الذي واجهناه في طريقنا إلى المدينة هو القيادة المتهورة.

كنت أعرف أن الناس في العراق قد عانوا كثيراً: الحرب بين إيران والعراق، وحرب الخليج الأولى بعد غزو الكويت في العام 1990، والثلاث عشرة عاماً من العقوبات، والآن عملية حرية العراق. وقد حان

الوقت ليتولى العراقيون زمام أمور مستقبلهم. لقد طال انتظار ذلك كثيراً وهو مستحق بجدارة.

شعرت بفورة من الإثارة بشأن فكرة أنه كان بإمكاني أن أكون جزءاً من تغيير إيجابي، ولكن تبعها فورة من الإرهاق. لقد طال انتظار الوقت للتغيير، ولكن كان لا بد من الانتظار حتى صباح اليوم التالي. كنت بحاجة للحصول على بعض النوم.

* * *

بعد ثلاثة أيام، وخمسة أرطال أثقل بسبب طعام العم فهد الممتاز، كان قد حان الوقت لوداعه. لقد كان من الصعب المغادرة. لقد ذكرني العم فهد بحسن الضيافة العراقية الأسطورية، فقد كنا في كل ليلةٍ نقيم في حديقته وليمة من الوجبات العراقية التقليدية، من الكفتة (طبق من اللحم المفروم والخضار المشوية)، والكباب إلى أطباق الأرز البرياني الرائع. لم أتمكن من تذكُّر متى استمتعت آخر مرة بمثل وجبات العشاء هذه اللذيذة. وكنا ننهي الليلة بتدخينه لسيجار كوبي، وتدخيني لشيشة (أرجيلة مع تبغ منكَّه).

كانت أيامي مليئة برحلات قصيرة إلى الأحياء المجاورة حيث بدأت تقييماً أولياً لاحتياجات المجتمع داخل المدينة وحولها. ولم أكن لأتمكن من طلب مرشد أفضل من زينب. لقد كانت خبرتها الغنية في العمل مع النساء في المناطق التي دمرتها الحرب، إضافة إلى حقيقة أنها كانت مواطنة عراقية، جعلها مجسَّداً لكنز عراقي. ولأننا بقينا مع العم فهد لبضعة أيام، كنا قادرتين على تأخير وقوعنا في الحياة المضطربة للمغتربين من جنود

وصحفيين وعاملين في القطاع الحكومي وعمال إغاثة أجانب، التي كانت آخذة في النشوء. وكنا قادرتين على تجربة العراق في شكل خام ونقي.

لم أكن أرغب في ترك فهد، ولكنني كنت أعرف أنه لم يكن بإمكاني الاستمرار في استغلال كرم ضيافته. لقد كانت رحلة زينب داخل وطنها قصيرة، وكان هدفها الرئيسي هو مساعدتي لكي أبدأ، وكان من المقرر أن تغادر إلى عمّان في اليوم التالي.

كانت وجهتي التالية هي الفندق الذي كنت سأدعوه المنزل طوال الشهر التالي. وكان مارك، موظف الخدمات اللوجستية لمنظمة «نساء من أجل نساء» والذي سبقني إلى البلد، قد حجز لي غرفة. وقد أوضح أنه بالبقاء في الفندق لمدة شهر سيكون بإمكاننا أخذ وقتنا في البحث عن منزل لي بالإيجار. وكان يتعين علينا بذل ما بوسعنا من أجل العثور على مكان جيد. لقد كان ينتظر خارج منزل العم فهد مع سائق لمرافقتي إلى الفندق.

كانت لا توجد بعد أي معلومة بشأن أمتعتي. وكان يتعين علي أن أكون مبدعة في تكرار استعمال قطع الملابس الثلاث التي اشتريتها من حي المنصور، وهو حي راقٍ في بغداد، حيث تصطفّ محلات لديها أحدث الأزياء التركية. لم أكن قلقة جداً بشأن ملابسي، على أي حال، فقد كانت توجد في حقيبتي أدوية لظهري، أيضاً.

قبل سنتين، عندما كنت على ظهر حصان في رحلة في الأهرامات في القاهرة، سقطت عن ظهر الحصان عندما أتت عربة يجرها حمار حول الزاوية وأجفلت حصاني. ويبدو أن الضرر الذي أصابني من سقطتي لم يكن شيئاً يذكر مقارنة مع الضرر الذي سببته لنفسي بركوب الحصان مباشرة بعد ذلك ومواصلة الرحلة. وكانت النتيجة ألم مزمن في أسفل

الظهر، يميل إلى الازدياد بعد رحلات طويلة. لقد كنت بحاجة ماسّة إلى دوائي الذي يعمل على إرخاء العضلات.

خرج العم فهد ليودعني. «لا تعتبري نفسك غريبة. لمجرد أن زينب غادرت لا يعطيك سبباً لتختفي عني.»

ووعدتُ أن أبقى على اتصال.

* * *

في الطريق إلى الفندق، مررتُ ومارك على المعلَم المفضَّل لدي في بغداد - تمثال كهرمانة الذي يوجد في منتصف دائرة سير عند مفترق الطرق بين كرادة داخل وكرادة خارج. وقد تم بناء كهرمانة في ستينيات القرن العشرين، وهو مستوحى من قصة علي بابا والأربعين حرامي من قصص ألف ليلة وليلة. أحب التمثال لأسباب عديدة، فحقيقة أنه بني منذ ما يقرب من أربعة عقود كانت شهادة على موهبة كافة الفنانين العراقيين. وأكثر شيء مثير للإعجاب كان حقيقة أن بطلة القصة كانت امرأة. ولم تقم أي دولة عربية أخرى بعرض عمل فني معاصر يصوِّر بطلة (أنثى) في منتصف شوارعها.

طلبتُ من السائق أن يبطئ السرعة حتى أتمكن من التقاط صورة، ولكن عندما أدركت أنه لم يكن هناك ماء في النافورة، أخبرت السائق أن يواصل المسير.

عندما كان يوجد ماء في النافورة، كان يتدفق من جرّة كهرمانة على الجرار الأربعين في الأسفل. وكان الماء المتدفق كالشلال يعطي التمثال عظمته. لم أرغب في الحصول على صورة لكهرمانة بدون الماء المتساقط.

بعد عِشر دقائق، توقفنا عند فندق قصر السلطان، بالقرب من ساحة التحريات. وكان الفندق عبارة عن مزيج من التصاميم العربية والشرقية والغربية. وقد ذكَّرني المبنى المشيّد بطوب بني اللون بمنازل مدينة جورج تاون. كان مبنى الطوب يبرز في تباين مع المنحوتات الفنية الهندسية الخشبية المستطيلة التي كانت تميّز كل طابق من طوابق الفندق. وهناك شرفة مثلثة الشكل كانت بمثابة مدخل إلى الفندق. كانت تبدو ملائمة لمعبد بوذي أكثر من فندق في بغداد. كما دمجت الأبواب الخشبية، التي كانت بطول ثمانية أقدام، العمل الفني الهندسي، تصميم بفن الزخرفة العربية الشعبي (أرابيسك)، الذي كان يمتد إلى الجزء الداخلي للفندق.

قال مارك وهو يسلمني المفتاح، «الكهرباء تعتمد مائة بالمائة، تقريباً، على مولِّد الفندق. ولو كنت مكانك لاستخدمْت الدرج، وليس المصعد.»

ليست مشكلة. فبعد كل الطعام الجيد في منزل العم فهد، كان بإمكاني الاستفادة من التمارين الرياضية. وكانت غرفتي في الطابق السادس، وفي الوقت الذي كنت أصل فيه إليها، كنت ألهث تماماً. ولكن صعود الدرج كان يستحق ذلك العناء، فقد كانت الغرفة فسيحة، وفيها تلفاز وثلاجة صغيرة، ولم يكن بإمكاني طلب أكثر من ذلك.

رتّب مارك عشاء مع بعض جيراننا في الفندق. وعندما وصلتُ إلى الطابق السفلي، وجدتُه مع ثلاثة رجال آخرين وامرأة، فقام بتقديمي للجميع. كانوا جميعهم من طائفة واسعة من منظمات غير حكومية وغير ربحية أميركية، وقد وصل معظمهم إلى بغداد قبل شهر. كان كل منهم يحتسي كأساً من البيرة.

طلبتُ علبة كولا دايت من المقصف، وشعرت بارتياح عندما وصلت. إنني مدمنة على ذلك الشيء، وعندما كنت أعيش في العراق في العام 1997، كان من المستحيل، تقريباً، الحصول على الكولا. عندما نظرت في كافة أرجاء مطعم الفندق الذي كان مزدحماً بأشخاص من كافة الجنسيات، كان بإمكاني أن أرى بتفصيل شديد أن بغداد كانت مدينة مختلفة جداً. ففي العام 1997 كان من المستحيل أن ترى هذا التنوع خارج مجمع الأمم المتحدة.

عندما توجهنا نحو بهو الفندق، بدأت، ذهنياً، بصياغة أول بريد إلكتروني جماعي إلى أصدقائي وعائلتي، إذ لم أتمكن من الانتظار لأخبرهم أنني كنت على حق طوال الوقت. كل شيء كان سيسير على ما يرام.

3
كسر الحواجز

◖ على الرغم من أن الحياة في العراق قد راقت لي على الفور، فإنه سيكون من المضلل قول إنني أحببت العراق الجديد. لقد قاومت بشدة الشعور بأنني كنت المرأة الغربية الموجودة. كل ذلك بدأ عندما قام مارك بتقديمي إلى أفراد طاقمنا الوطني المكوّن من ثلاثة أشخاص.

وبدون أي برامج معدَّة، كان طاقمنا مكوناً فقط من فريق لوجيستي محلّي: يوسف وفادي ومائس. وحيث أنه لم تكن لنا مساحة مكتبية، فقد كانت المرة الأولى التي قابلتهم فيها في مطعم الفندق. وكان مارك قد وصل قبل شهر لتقليص خياراتنا بشأن المكان الذي سوف نقيم فيه المكتب. وكان يتعين علينا اتخاذ قرار نهائي في غضون الأسابيع القليلة التالية.

اصطف الموظفون الثلاثة بجانب بعضهم البعض وهم ينظرون إلي كما لو كنت قد هبطت من الفضاء الخارجي. مددت يدي لأصافحهم. بدا الثلاثة متجمدين في أماكنهم، ومن ثم صافحوني بشكل مرتبك، وتبسموا في وجهي ابتسامة قسرية متوترة. وكانت نظرة خيبة الأمل واضحة على وجوههم، على الرغم من أنني لم أعرف مصدرها.

حاولت أن أكسر الارتباك بطرح بضعة أسئلة. كانوا يتمتمون بالإجابات، ويبدون منزعجين أكثر منهم مرتاحين. ولا بد أن مارك كان قد

أحس بالتوتر، وبدأ يتحدث بشكل مفكك عن العمل الرائع الذي كان يوسف وفادي ومائس قد قاموا به على مدى الأسابيع القليلة الماضية.

تدخّلت بسرعة لكسر حاجز الصمت مرة أخرى، «حسناً، كل ذلك جيد، ولكن في نهاية المطاف لا يزال ذلك غريباً بعض الشيء. «نساء من أجل نساء»، وكل ما أراه أمامي هو أربعة رجال. سوف نكون مضطرين إلى تغيير ذلك.»

كانت تلك اللحظة ستكون أقل إيلاماً لو أنني اصطدمت بجبل جليدي. استمر الثلاثة بالنظر إلي بنظرات تحديق فارغة. حاولت أن أتلمّس طريقي عبر ارتباكي بطمأنتهم أنني كنت فقط امزح، وأنني كنت أقدّر بشدة عملهم الجاد. لم أفعل شيئاً سوى أنني جعلت الأمور أسوأ، وشعرت في الأيام القليلة التالية كما لو كنتُ طالبة خرقاء مبتدئة في المدرسة الثانوية. وفي وقت لاحق، علمتُ أن الرجال الثلاثة قد حصلوا على وعد بالحصول على فرصة للعمل مع امرأة أميركية. وبدلاً من ذلك، كانت رئيستهم تشبه إلى حد كبير أي امرأة عراقية.

انسحبت ببطء إلى بهو الفندق، وكان بإمكاني سماع ثلاثتهم يتجادلون بشأن أيهم سيحظى بالبقاء مع مارك - الأميركي الحقيقي.

* * *

الأول الذي شعر بالشفقة عليّ كان فادي، وهو طالب جامعي في التاسعة والعشرين من عمره، يدرس الأعمال والتجارة في كلية مسائية. وكان كاثوليكياً من البصرة، وهي مدينة حضرية كبرى تقع جنوبي العراق.

وكان والداه قد انتقلا إلى بغداد عندما كان طفلاً، وقد قضى معظم حياته في سن الرشد هنا. ونظراً لأنه كان يتعين على فادي العمل خلال النهار، فقد كان يجتاز سنوات الجامعة بصعوبة خلال السنوات الثمانية الماضية، على الرغم من أنه كان الآن في سنته الأخيرة. كانت لغته الإنجليزية ضعيفة جداً، وكان حريصاً على ممارستها مع شخص تكون اللغة الإنجليزية هي لغته الأم.

في الأيام القليلة الأولى، قضيت معظم وقتي متنقلة في سيارة فادي التي تشبه سيارة الفلينستونز، وكانت بيجو بأربعة أبواب، صناعة إيرانية، وذات لون بيج باهت. وبوجود انبعاجات على الباب الجانبي وغطاء المحرك، كانت تبدو كما لو أنها خرجت للتو من تدافع جماعي لجمهور مذعور. عندما رأيت المركبة للمرة الأولى، اعتقدت أنها لا يمكن أن تتحرك، ولكن فادي طمأنني أنها كانت بحالة ممتازة على الرغم من شكلها الخارجي. ومع شمس العراق التي كانت تسطع بحرارة شديدة عليّ، كان لدي سؤال واحد فقط: هل كان التكييف يعمل؟ ووعدني أنه كان يعمل.

كنا متجهين إلى اجتماع في فندق يقع بالقرب من حي الجادرية الراقي لحضور اجتماع تنسيقي لمبادرة جديدة باسم مجلس تنسيق المنظمات غير الحكومية في العراق (NCCI). لم يعطني مارك الكثير من الشرح عن ما كان الاجتماع يدور حوله، ولكنني اكتشفت أنني لم أكن في الواقع بحاجة إلى شرح. لقد كان كل شيء واضح في الاسم، فقد كانت المنظمات غير الحكومية ستحاول تنسيق جهودها. وكما أتذكر من خبرتي في أفغانستان، فإن هذه المهمة البسيطة كانت واحدة من أكثر المهام، التي عانيت منها، إيلاماً. ولم أكن متلهفة إليها.

أثناء رحلتنا في السيارة، طرح فادي أسئلة عن خلفيتي، وأجبته بشكل مباشر قدر الإمكان. لقد كان مرحاً جداً، وقد جعلني أسلوبه السلس أشعر بارتياح على الفور، ووجدت نفسي انفتح أمامه وأخبره عن المسرحية العائلية التي سبقت وصولي إلى العراق. وكان بإمكاني الشعور بأنه قد أصبح مسترخياً عندما بدأ بالتشارك معي بقصص عائلية مشابهة. وبدأ بتشغيل أشرطة تسجيل لمغنين عرب مشهورين، وهو يسألني ماذا كانت أغنيتي المفضلة. وشرحت له أنني نادراً ما كنت أستمع إلى أي أغان عربية.

«حسناً، لدي أغنية رائعة سوف تعرفينها بالتأكيد. إنها قديمة جداً.» وأدخل أحد الأشرطة وتدفق صوت امرأة عربية على إيقاع إسباني.

هززت رأسي وابتسمت.

رمقني فادي بنظرة متشككة. «هل تقولين لي إنك لا تعرفين أليسا؟»

ضحكت بخفة على عدم اليقين في نبره صوته. لقد كان كما لو أنني لم أسمع بالبابا. هززت رأسي مرة أخرى. الشيء التالي الذي عرفته كان أن فادي داس بقوة على الكوابح.

قلت، «ما الذي تفعله بحق الجحيم؟»

أجاب فادي وهو يهز رأسه باستنكار، «أين كنتِ؟ ألا تعرفين أليسا؟ أين كنتِ؟ حتى نحن العراقيون نعرف أليسا، وقد تم عزلنا عن بقية العالم.»

انحنيت على الفور بالضحك، إذ لم يكن قد أصيب بصدمة فقط، بل كان مستاءً، وعرفت بسرعة لماذا. لقد كانت أليسا هي المغنية المفضلة لدى

فادي، وقد كان يتابع مسيرتها المهنية بشغف منذ أن ظهرت لأول مرة على ساحة الموسيقى العربية. لقد كانت شخصية ذات تأثير كبير في العالم العربي، وواحدة، كما يُزعم، من المطربين اللبنانيين الأكثر شهرة. وكان مستعصياً على فهمه أنني لم أسمع بها. وكررت أنني لم أكن أستمع أبداً إلى الموسيقى العربية، وأنني كنت معجبة أكثر بموسيقى الهيب هوب والموسيقى غير التقليدية.

وانطلق فادي بإلقاء خطاب عن كيف كانت الموسيقى هي شكل التواصل الموحِّد عبر الثقافات، وطلب مني كتابة أسماء المغنين المفضلين لدي. قلت مجبرة: ماري جي. بلاج، وإيمينام، وشين بول، ووريدج أغينست ذا ماشين (Rage Against the Machine) ونيرفانا. وإذا كانت الموسيقى موحِّدة عظيمة، إذن، فقد كان لدي شعور بأن جهازي الآي بود لن يكون له دور كبير كجسر.

أوقف فادي السيارة أمام الفندق، وبدت سيارته في المكان الخطأ إلى جانب سيارات الدفع الرباعي الضخمة التي كانت تقف في الخارج. وقال إنه كان سيعود لاصطحابي في غضون ساعة. كان الاجتماع باللغة الإنجليزية، ونظراً لأنه لن يكون قادراً على فهم ما كان سيُقال، لم يكن هناك سبب لبقائه.

* * *

دخلتُ إلى غرفة المؤتمرات الصغيرة حيث كان سيتم عقد المؤتمر. كان هناك ما لا يقل عن خمسين شخصاً يجلسون حول مجموعة من الطاولات التي تم ترتيبها على شكل مربع. بحثتُ عن وجه مألوف. لم يكن

هناك أي وجه مألوف، لذا فقد جلست في أول مقعد فارغ وجدته. كنت متأخرة عشر دقائق، وكان الاجتماع قد بدأ بالفعل. وكان قد تم القيام بالتعارف، وكانت المجموعة تناقش البند الأول من جدول الأعمال. وكان الرئيس يقترح تقديم رسالة مشتركة إلى سلطة الائتلاف المؤقتة (CPA) بقيادة الولايات المتحدة. ونظراً لأن قوات التحالف قامت بالإطاحة بالحكومة العراقية السابقة، فقد كان مطلوب منها بموجب القانون الدولي توفير حكم في الفترة الانتقالية. ونظراً لأن سلطة الائتلاف المؤقتة كانت هي السلطة الانتقالية التي أنشئت لحكم العراق، فإن مجلس تنسيق المنظمات غير الحكومية في العراق قد جادل بأنه ينبغي توجيه الرسالة المشتركة إليها، وأن يتم توقيعها من قِبل كافة المنظمات غير الحكومية. وتم توزيع نسخ من الرسالة.

حدَّقت بسرعة في الرسالة كلها. لقد كان أمراً لا يُصدَّق. كانت الرسالة قاسية وعدوانية للغاية، ناهيك عن أنها كانت مكتوبة بشكل رديء. وكان من الواضح أنها كانت مكتوبة من قِبل شخص لم تكن الإنجليزية هي لغته الأم. وقد أشارت الرسالة بشكل متكرر إلى حرب غير شرعية، وغزو، وإلى سلطة الائتلاف المؤقتة على أنها القوة المحتلة. وتلا ذلك قائمة طويلة من المطالبات. ولم يكن لدي أي شك بأنه لو نجحت الرسالة في الوصول إلى مكتب مسؤول كبير في سلطة الائتلاف المؤقتة، فإنها سوف تستقر في سلة المهملات بعد ذلك بفترة وجيزة.

لم يكن يوجد في محتوى الرسالة أي شيء أختلف في الرأي معه. وفي الواقع أنني كنت موافقة بكل صدق على الرسالة الرئيسية، فقد كان العراقيون ينتظرون أن يتم الوفاء بوعد بحياة أفضل. وقد كانوا متعاونين لأنهم كانوا يعتقدون أن سلطة الائتلاف المؤقتة كانت ستفي بذلك الوعد.

لقد كانت قوات التحالف في سباق مع الزمن لإظهار تحسينات ملموسة، وبالتالي المحافظة على الدعم العراقي. وكان جوهر الوعد يكمن في كون القوات الأميركية قادرة على تحسين الأمن الشخصي والخدمات العامة للغالبية العظمى من العراقيين. لقد كان الوقت يشكّل عنصراً حاسماً، وذلك لأن حرارة الصيف الحارقة، التي كانت تبلغ بالمتوسط 110 درجات فهرنهايت، كانت قد بدأت بالفعل. وكانت الخدمات المبيّنة في الرسالة -الحصول على الغذاء والماء النظيف والكهرباء- هي الحد الأدنى من المعايير. ومع ذلك، فإن الرسالة، كما تمت كتابتها، قد لا تتم قراءتها أبداً.

رفعت يدي وحاولت بدبلوماسية أن أوضح المشكلة. كما عرضت المساعدة في إعادة الكتابة. وبالرغم من ذلك، أسقط الرئيس، وهو رجل فرنسي، اقتراحي على الفور، وقال، «المقصود من الرسالة هو أن تكون قوية. وأولئك الأوغاد هم هنا بشكل غير قانوني، وليس خياراً جعل الحياة أفضل، إنه واجبهم.»

نظرْتُ حولي لأرى أن جميع الجالسين حول الطاولة، تقريباً، كانوا يومئون برؤوسهم بحماس. وكان استخدام الألفاظ البذيئة في اجتماع رسمي لا يبدو عادياً سوى في منطقة الحرب. أبديت استهجاني، وأوضحت أنني لن أكون قادرة على توقيع الرسالة كما كانت مكتوبة حالياً.

ردّ قائلاً، «بالطبع لن توقعي. إنك أميركية.»

أجبت، وأنا مدركة تماماً كم كنت أبدو أميركية، «ليس لذلك علاقة بكوني أميركية. إنه بسبب أنني محترفة. وكما قلت، إنني أتفق مع كل شيء ورد في الرسالة. ولكنني لا أوافق فقط على النهج.»

شعرْتُ بالإحباط من حقيقة أن هذا الرجل الفرنسي كان يرفض جميع مخاوفي بسهولة. ومن الواضح أنه صنّفني بمجرد سماعه للهجتي. لم أكن أحاول أن أكون عقبة، كنت أحاول أن أضمن أن يكون للرسالة تأثيرٌ على صنّاع القرار.

وقفت سيدة أكبر في السن، كانت تجلس في آخر الغرفة وعلى الجهة المقابلة لي، وعرّفت بنفسها على أنها مارغريت حسان، رئيسة العمليات العراقية لمنظمة كير، وهي منظمة إنسانية مقرها في المملكة المتحدة. وكررت مارغريت النقطة ذاتها التي كنت أحاول أن أوضحها، وشدّدت كذلك على أن منظمتها لن تكون قادرة على توقيع الرسالة بالشكل الذي كانت عليه. كما عرضت كذلك المساعدة في إعادة صياغة الرسالة. وعلى الرغم من أنها لم تتلقَ الرد الفظ ذاته الذي تلقيته أنا من الرجل الفرنسي، فإنها لم تتمكن في تغيير رأيهم.

وفي النهاية صوتت المجموعة على إرسال الرسالة مع بضعة تعديلات نحويّة. وكانت النبرة الفظة ستبقى. كنت أستشيط غضباً.

* * *

ذهبت إلى موقف السيارات ووجدت فادي ينتظر بإخلاص. رأى أنني كنت منزعجة، وسألني ما الأمر. ذكرت له ملخصاً سريعاً عن الاجتماع. ضحك وأخبرني أن هذا كان شيئاً عادياً. لقد تم تقسيم العراق بين أشخاص كانوا مؤيدين للحرب وأشخاص كانوا مناهضين للحرب، وكان جميع العراقيين مهمَلين.

كان بإمكاني أن أفهم أن العالم كان مستقطباً في التقسيمات السياسية ذاتها، ولكنني كنت أشعر بخيبة أمل لرؤية ذلك في قطاع التنمية والأعمال الإنسانية، أيضاً. من الذي يمكن أن يكون مؤيداً للحرب من عمال الإغاثة؟ ولكن النقاش في رأيي كان نقطة جدال غير ذات أهمية عملية: الحرب وقعت، والشعب كان يعاني، والآن، ما الذي سنفعله بشأن ذلك؟

كنت غاضبة من التلميح بشأن أن رأيي كان مشوَّهاً لأنني كنت أميركية، كما لم أتمكن من منع نفسي من الشعور بالغضب لأنه تم عزلي عن المجموعة. كنت أتطلع إلى شعور بالتضامن مع أشخاص كانوا يعملون في المجال ذاته. وبدلاً من ذلك قام رجل فرنسي وقح بمهاجمتي.

بدأنا رحلة العودة إلى فندق قصر السلطان. وأثناء القيادة، أخرج فادي المفاتيح من قفل التشغيل، وأعطاني إياها.

ووجّه إلي طلباً، «افتحي الشاكماشا.»

سألت، وأنا أحدِّق في قفل التشغيل الخالي من المفاتيح، ومذهولة بأن السيارة كانت لا تزال تمشي، «كيف بحق الجحيم فعلت ذلك؟ وما هو بحق الجحيم الشاكماشا؟»

ابتسم فادي ابتسامة عريضة، «سيارتي مميّزة جداً. وهذه واحدة فقط من خدعها الكثيرة.» وأشار إلى درج القفازات الذي كان أمامي. «هذا هو الشاكماشا.»

فتحت درج القفازات، ومد يده وأخرج شريط تسجيل. وأدخله في جهاز تسجيل السيارة، وبعد ثانية كانت أغنية ماري جي. بلاج «فاميلي آفير» تصدح.

قال فادي، «لقد سجلت لك شريطاً،» وكان يبدو فخوراً جداً بنفسه.

عندما كنت في الاجتماع، عبر فادي الشارع إلى أحد محلات الفيديو والموسيقى الكثيرة، التي تتاجر بطريقة غير مشروعة، وطلب من الشخص المسؤول عن تسجيل الأغاني في المحل القيام بتسجيل شريط منوَّع لي.

ذهلتُ، لقد كانت تلك لفتة تنم عن اهتمام برغباتي، ووجدتُ نفسي أنسى كل شيء عن الاجتماع وأستمتع بماري جي بلاج. وسألت ما إذا كانت الموسيقى قد أعجبته.

أظهر فادي ابتسامة الحائز على جائزة. «أنا كاثوليكي، كيف يمكنني أن لا أحب إنسانة اسمها ماري؟»

ضحكتُ. على الأقل أصبح فادي يتقبلني.

وبقي السؤال، هل كان أي شخص آخر سيتقبلني؟

4
اختيار الأطراف

◖ بعد أسبوع كان لدي جوابي.

لا.

على الرغم من أن فادي كان قد أصبح الشخص الجديد الجدير بالثقة بالنسبة لي في بغداد، كان يوسف ومائس لا يزالان يعاملاني بطريقة رسمية متصلّبة. ولم يكن لدي الكثير من الوقت للقلق بشأن بناء فريق، على أي حال، وذلك لأن علاقتي مع المنظمات غير الحكومية الأخرى كانت قد أصبحت متوترة بعد الاجتماع التنسيقي لمجلس تنسيق المنظمات غير الحكومية في العراق. لقد تم تصنيفي كمنظمة غير حكومية أميركية. لا قدَّر الله. ومن الواضح أن المنظمات غير الحكومية الأميركية كانت ترى أن لها مدونة سلوك مختلفة عن المنظمات غير الحكومية الأوروبية.

لم أتمكن من لومهم تماماً، فقد كانت للمنظمات غير الحكومية الأوروبية مبادئ توجيهية صارمة بشأن الدخول إلى المنطقة الخضراء والعمل مع سلطة الائتلاف المؤقتة. وكانت معظم المنظمات غير الحكومية الأميركية أكثر تساهلاً، فقد كانت مستعدة لحضور اجتماعات في المنطقة الخضراء، وكانت تذهب في كثير من الأحيان إلى فعاليات كانت تستضيفها

سلطة الائتلاف المؤقتة. وحقيقة أنني كنت أميل أكثر نحو مدونة السلوك الأوروبية، وأنني كنت حذرة من ربطي بالغرض العسكري بدلاً من حقوق المرأة، كانت غير ذات صلة. لقد كنت أميركية تعمل لصالح منظمة غير حكومية أميركية. وقد تم اختيار الأطراف بشكل افتراضي.

وفي الوقت ذاته، كان مائس عادة يسحب مارك جانباً ليشكو له عن سياستي المعلنَة ضد التفاعل مع الجيش الأميركي. وكان مائس ينتمي إلى معسكر المؤيدين للحرب الذين كانوا المشجعين الرئيسيين لكل الأشياء الأميركية. وكان يجادل بشكل متكرر بشأن أن العراقيين كانوا مدينين للولايات المتحدة لإطاحتها بصدام، وأننا يجب أن لا نتجنب التفاعل مع الجيش الأميركي. حاولت أن أستدير إلى فادي للحصول على دعم، ولكن مجال خبرته كان يتمحور حول الموسيقى الأفضل، والكباب الأفضل، وأفضل المواقع التي تستحق المشاهدة.

وبقي يوسف على الحياد. لقد كان لغزاً حقيقياً بالنسبة لي. حاولت أن أجعله يشارك في أي محادثة، ولكنه كان يدخِّن سيجارة بصمت ويتركني أتحدث بشكل أخرق.

بينما نبذني مجلس تنسيق المنظمات غير الحكومية في العراق لكوني أميركية جداً، كان مائس يصفني باستمرار بأنني مناهضة للأميركيين. ولم أتمكن، ببساطة، من إرضاء الجميع.

وفي الوقت ذاته، لم أكن أكوِّن كذلك أي صديقات من بين القيادات النسائية العراقية، إلا أنني تعلمتُ بسرعة أن لا أعتبر ذلك أمراً شخصياً.

لقد كن بالكاد يثقن ببعضهن البعض.

ولمدة ثلاثين سنة، كان أي شكل من أشكال التنظيم في العراق يعتبَر خيانة، وكانت عقوبة العضوية فيها هي الإعدام. كانت هناك بضع منظمات قائمة بشكل سري. وكانت أي أحزاب معارِضة تفرّ إلى دول الجوار، لا سيما إيران. كان معظم العراقيين يعيشون في جو من الخوف. وكانت أفضل آلياتهم للتكيُّف تتمثل في تجنب الحياة العامة. لقد كانت الحياة العراقية مركَّزة بشكل أساسي داخل المنزل. وحتى في ذلك، لم يكن من المضمون للعراقيين الهروب من غضب صدام ورفاقه. وكانت القصص كثيرة للغاية عن عائلات تم اتهامها بالخطأ بالخيانة من قِبل أحد أعضاء حزب البعث بنيَّة ثأر شخصي. وإذا كنت محظوظاً، كنت ستسجن أو يتم تجريدك من جوازك السفر العراقي وأخذك إلى الحدود الإيرانية. ولم يكن معظم العراقيين محظوظين. فكانوا إما يُعدَمون علناً أو يختفون فحسب. وبالرغم من ذلك، كانت العائلات العراقية تحاول بيأس الاختباء في الملاذ الذي توفّره منازلهم. وقد اختفت الثقة تماماً، وغالباً ما كان يتم تقليص التفاعل مع الجيران والزملاء وحتى الأسرة الممتدة.

لم تختفِ ثقافة عدم الثقة لحظة دخول الدبابات الأميركية إلى شوارع بغداد. في الواقع أنها كانت أقوى من أي وقت مضى. إن الأسلوب القديم في كتابة تقارير الأخ الكبير والتبليغ عن أولئك الذين كانت لديهم مشاعر معادية للبعثيين، غالباً ما كان يقود إلى اختفاء الأشخاص في منتصف الليل - وهذه الممارسة كانت لا تزال مستمرة. والشيء الوحيد الذي كان قد تغيّر هو سطر الموضوع والمستلِم. والآن كانت التقارير تعتبر اتهامات ضد بعثيين سابقين، وكان يتم توجيهها إلى الجيش الأميركي. وغالباً ما كانت هذه التقارير تؤدي إلى الفصل من العمل أو إلى زيارة في منتصف الليل من قِبل جنود كانوا يكسرون الأبواب ويصرخون، «اذهب! اذهب! اذهب!»

إن حلّ أي شكل من أشكال الحكومات المحلية، وعدم وجود منظمات شعبية، كان يعني أنه لم يكن هناك نظراء كان بإمكاننا العمل معهم. وهذا كان صحيحاً على كافة المستويات، من المؤسسات الحكومية إلى منظمات المجتمع المدني إلى الجماعات النسائية. وتم إلقاء المنظمات الدولية داخل حفرة سوداء، وإجبارها على استكشاف المنطقة الجديدة معتمدة على نفسها.

وعلى الرغم من التحديات، فقد كان المجتمع المدني المحلي داخل العراق ينمو. وفي الواقع أنه كان يزدحم بالسكان، ففي غضون بضعة أشهر من إعلان ختام عملية الحرية العراقية في نهاية آذار/ مارس 2003، كان آلاف العراقيين يصطفون خارج المنطقة الخضراء لإعلان عضويتهم في منظمات غير حكومية. ومع هذا التكاثر في المنظمات غير الحكومية، كان من الصعب فرز الانتهازيين للعثور على الشيء الحقيقي.

ومع عدم قدرة العراقيين على الوثوق ببعضهم البعض، فقد كانوا بالتأكيد غير قادرين، تقريباً، على الوثوق بي. وفي الواقع أنهم أوضحوا أنه لم تكن لديهم فكرة عما يصفوني به. ونظراً لأن معظم القياديات العراقيات كن في أوائل الخمسينيات من أعمارهن، فقد ارتبكن في البداية بسبب عمري، وسألن بصراحة ما إذا كان أفضل ما كان لدى أميركا لتقدمه لتأييد قضية المرأة العراقية هو فلسطينية في العشرينيات من عمرها.

كافحت لجعل نفسي منفتحة أمام تساؤلاتهن، وكان من الصعب للغاية السماح لهن بطرح الكثير من الأسئلة الشخصية، التي قاربت بعضها على أن تكون هجمات خاصة. وتساءلت إحدى النساء بصراحة كيف كان بإمكاني أن أقول إنني كنت أعزز حقوق المرأة في حين أنني كنت أرتدي غطاء الرأس، الذي كان في رأيها أفضل مثال على تفسير الإسلام لكراهية النساء.

لقد كانت هؤلاء النساء مختلفات تماماً عن نساء قابلتهن في المناطق الفقيرة من البلاد. وفي الواقع أن معظم هؤلاء النساء رفضن الاعتراف بأنه كانت توجد أي مناطق فقيرة. وجادلن بأن الفقر كان موجوداً فقط في المحافظات الجنوبية. وعندما حاولت أن أريهن صوراً من أحياء بغداد، اتهمنني بأنني كنت ألعب دوراً يؤدي إلى الخلاف بين النساء العراقيات.

صاحت إحدى النساء العراقيات الناشطات أثناء اجتماع للقيادات النسائية، «أنت تريدين أن نشعر بالأسف على أنفسنا. إنك تحاولين جعلنا نبدو كما لو كنا نساء أفغانيات أو إفريقيات. حسناً، نحن لسنا كذلك. إننا نساء قويات!»

وأضافت امرأة أخرى، «أنت تقولين إنك أتيت من أميركا، ولكنني لم أرك أبداً مع الأميركيين. كيف لنا أن نعرف أنك لست من إيران؟ أنت تريدين جعل كافة النساء العراقيات يغطين رؤوسهن كما تفعلين. إننا نحب حرياتنا، والآن بعد أن حصلنا عليها، لا يستطيع أحد نزعها منّا!»

لم أتمكن من اتخاذ قرار بشأن ما إذا كان يجب أن أعجب بروحهن، أم أشعر بالإهانة من هجماتهن. كنت أعلم أن ارتداء الحجاب كان سيكون تحدياً، ولكنني لم أتوقع أن الأشخاص الوحيدين الذين بدوا أنهم يشككون في حجابي كانوا النخَب العراقية! لم أقابل من قبل أبداً أشخاصاً شعروا بالإهانة ظاهرياً بسبب لباسي الديني، وكنت أواجه صعوبة في معرفة الطريقة التي أردّ بها. وأدركت أن الطريقة الوحيدة لكسب ثقتهن وتفهمهن كانت الحفاظ على أسلوب صريح وشفاف - بصرف النظر عن كم كانت بعض النساء العراقيات يجعلن ذلك صعباً.

وكان من الواضح أيضاً أنهن كن يثقن بالأشخاص الذين كانوا يرتدون زياً رسمياً. وكانت سلطة الائتلاف المؤقتة قد رعت سلسلة من ورش العمل والمؤتمرات، ودعت كافة القيادات العراقية للحضور إذا كانوا شجعاناً بما يكفي لدخول المنطقة الخضراء. ولا حاجة لقول إن هذه كانت نسبة مئوية ضئيلة، ولكنها كانت مجموعة مثيرة للإعجاب. فقد حضر أطباء ومحامون ومهندسون إلى اجتماعات المنطقة الخضراء، والتي كان يرأسها غالباً شخص يرتدي الزي العسكري. وحقيقة أنني لم أكن أحضر هذه الاجتماعات كانت واضحة جداً للقيادات النسائية العراقية. إذا لم أكن هناك، فأنا لست أهلاً للثقة.

وبالرغم من ذلك، رفضْتُ السماح لنفسي بأن أكون مفضلة لدى سلطة الائتلاف المؤقتة أو لدى الجيش الأميركي. لقد كانت سلطة الائتلاف المؤقتة امتداداً لإدارة بوش، وكنت أعتقد بشدة أن القوات الأميركية في العراق لم تكن ستجلب سوى الدمار للبلاد. وعلى الرغم من الحماس لسلطة الائتلاف المؤقتة من جانب الكثير من العراقيين الذين قابلتهم، فقد تشبثْتُ بقوة بشكوكي. كنت أرى الحرب على أنها مسألة تأمين مكاسب ومصالح شخصية، وبدا لي أن رفاه العراقيين كان آخر الاهتمامات في أفكار أي صانع قرار أميركي.

من ناحية أخرى، كانت سلطة الائتلاف المؤقتة تبذل قصارى جهدها للوصول إلى المنظمات غير الحكومية. وقد حصرْتُ حضوري في أي اجتماع تنسيقي بتلك الاجتماعات التي كانت تستضيفها الأمم المتحدة. ولم يكن مبنى القناة (Canal Building)، القاعدة الرئيسية للأمم المتحدة، جزءاً من المنطقة الخضراء. وفي الواقع أنه تم وضع المقر الرئيسي للأمم المتحدة في

المبنى الذي عملت فيه قبل ست سنوات. وإضافة إلى اجتماعات الأمم المتحدة، كانت الكثير من المنظمات غير الحكومية، التي كان مقرها في الولايات المتحدة، تحضر أيضاً اجتماعات بشكل منتظم داخل المنطقة الخضراء. ومن خلال الوكالة الأميركية للتنمية الدولية (USAID)، كانت الحكومة الأميركية تقوم بتوفير ما يبدو أموالاً لا حدود لها من أجل برامج تنمية. وكانت تحاول الدفع مقدَّماً في محاولة لكسب قلوب وعقول العراقيين.

أردْتُ أن أنأى بنفسي عن طريقهم. وكنت أعلم أنهم كانوا سيستخدمون المنظمات غير الحكومية الدولية كأداة لتحقيق أهدافهم. وفي حين أنني كنت أفتقر إلى حنكة الدبلوماسيين، فقد كنت أعتقد أن استراتيجيتي الأفضل كانت تتمثل بالتركيز على سبب مجيئي إلى العراق: النساء. لن تكون جهودي موجهة نحو النساء النخبة اللواتي، من الواضح، لم يكنَّ بحاجة إلى مساعدة لجعل أصواتهن مسموعة. وبدلاً من ذلك كنت سأركز على النساء المهمشات، النساء اللواتي عانين من الإهمال في عهد صدام، واللواتي كن معرضات لمخاطرة أن يتم نسيانهن الآن.

ولكن حملة سلطة الائتلاف المؤقتة لكسب القلوب والعقول كانت واسعة النطاق وتشمل الجميع، فقد أنشأت سلطة الائتلاف المؤقتة نظام هاتف، ووفرت خطوطاً مجانية ومفتوحة للجميع في مجتمع المساعدة الدولي. ولدى نظام الهاتف الجوال العالمي هذا، الأول من نوعه الذي يتم إنشاؤه في العراق، بادئات أميركية، حيث كان يمكن للأشخاص في الولايات المتحدة الاتصال ببغداد مقابل نفس سعر المكالمة الوطنية. وكما لو أن ذلك لم يكن سبباً كافياً للتوجّه إلى المنطقة الخضراء، فقد قامت سلطة الائتلاف المؤقتة، خارج مركز المؤتمرات، بإنشاء مقطورة كانت تتسع لعشرين محطة كمبيوتر

مع وصول عالي السرعة إلى الإنترنت. وكان الحضور ممنوحاً لأي شخص يحمل شارة إحدى المنظمات غير الحكومية، وفي غضون دقائق كان بإمكان المرء تصفح الإنترنت في مكان مكيّف تكييفاً قوياً جداً لدرجة أنني أسميته «الثلاجة.» وفي الواقع أن تصفح الإنترنت كان هو الطريقة الفضلى للاستمتاع بالبرودة في حرارة صيف بغداد الشديدة.

كان مركز المؤتمرات يقع وسط المكان في المنطقة الخضراء التي كانت تُعرَف سابقاً باسم «ملعب عُدَي.» وكان لعدي، أحد أبناء صدام حسين، سمعة بأنه كان منغمساً بالملذات بجنون. (وكان يقال إن الابن الأصغر لصدام، قصي، كان بمثابة اليد اليمنى لوالده.) وكان كِلا الابنين على رأس قائمة الجيش الأميركي للمطلوبين بشدة، وكانت بغداد تعج بالإشاعات بشأن آخر مرة شوهِدا فيها.

كان ملعب عُدي يشتمل على قصور صغيرة، وملجأ تحت الأرض، وضريح الجندي المجهول، وفندق الرشيد، ومركز المؤتمرات. وبين مركز المؤتمرات وقصر صدام الرئاسي، كانت هناك حديقة كبيرة يوجد فيها تمثال السيوف المتقاطعة الذي كان يتم تصويره أثناء الاستعراضات العسكرية للنظام القديم. وقد كان مركز المؤتمرات، في الماضي، مفتوحاً فقط أمام الموالين للنظام البعثي. والآن أصبح الموقع الرئيسي للسيطرة بالنسبة لسلطة الائتلاف المؤقتة.

عند هذه المرحلة، لم نكن أنا ومارك قد وجدنا مكتباً بعد، وكان اتصالنا الوحيد بالعالم الخارجي يجري بواسطة هواتف مكلفة جداً تعمل بواسطة الأقمار الصناعية. وكانت هناك بضع مقاهي إنترنت تظهر فجأة في حييّ بغداد، حي المنصور وحي الجاذرية، ولكن زمن التنزيل كان مثيراً

للغضب، فقد كان الرد على بريد إلكتروني واحد فقط يستغرق مني ثلاثين دقيقة، ناهيك عن أنني كنت في أغلب الأحيان الأنثى الوحيدة الجالسة وسط مراهقين عراقيين ذكوراً كانوا يكتشفون الإمكانيات اللامحدودة للشبكة العنكبوتية العالمية. وفي السابق، كانت الإنترنت، على غرار الهواتف الجوالة والقنوات التلفزيونية الفضائية، خاضعة لرقابة مشدَّدة من قِبل صدام حسين.

وكان الإغراء بالاستفادة من سرعة وراحة الثلاجة هائلاً.

*   *   *

«كن حذراً من يونانيين يحملون هدايا،» حذّرت مارك الذي أصرّ علينا لقبول عرض للحصول على ثلاثة هواتف مجاناً. وعلى الرغم من أن ذلك كان من الممكن أن يكون هِبة من الله على المستوى الشخصي، فقد كنت أخشى أن يبني استخدامنا للهواتف والثلاجة جسراً من الصلة بين سلطة الائتلاف المؤقتة وبيننا. إضافة إلى ذلك، فإنه في حين كان ذلك مجاناً لنا، فهناك شخص ما سيدفع الفواتير. وإن لم يكن دافع الضرائب الأميركي، فإنه سيكون حتماً العراقيين أنفسهم.

أوضح مارك أن هذا كان قراري. كما أوضح أنه لم تكن لدينا أموال كافية لاستخدام الهواتف التي تعمل بواسطة الأقمار الصناعية، إلى ما لا نهاية. وإذا قررت عدم الاستفادة من هواتف سلطة الائتلاف المؤقتة، فذلك من شأنه أن يعني أن أبقى تماماً بدون أي اتصال.

تدخّل مائس، «إنك فقط ترين الأميركيين أعداء، ونحن لا نراهم كذلك.» لقد كان في غرفة مجاورة وسمع المحادثة. وكانت مهارات مائس

الإنجليزية هي الأقوى من بين نظرائي العراقيين الثلاثة، وكانت لديه طلاقة عملياً، والفضل يعود إلى قناة عُدي التلفزيونية المحلية -شباب تي في- التي كانت تعرض ساعات وساعات من الأفلام الأميركية.

لم يرَ مائس هاتفاً جوالاً أبداً إلى أن دخلت القوات الأميركية إلى بغداد في العام 2003. ولأنه حرِم هذا الجهاز على مدى ثلاثين عاماً، فإنه لم يكن سيدع هاتف المنظمة غير الحكومية الخاص به يؤخذ منه الآن.

أوضحت، «أنا لا أدعو أحداً عدواً، إنني فقط أريد التأكد على أن نبقى مستقلين.»

وأضح مائس، «أفضل طريقة لتكوني مستقلة هي التعامل مع كافة الأطراف. ولا يمكنك تجاهل الأميركيين، إنهم يسيطرون على كل شيء. إنهم الحكومة الجديدة. هل ستتجاهلين الحكومة، حتى حكومة تكرهينها، في أي دولة أخرى؟»

كان مائس على حق. لقد عملت المنظمات غير الحكومية مع حكومات معادية على مدى عقود من الزمن. ولم تحلم أبداً برفض التواصل مع الخرطوم أثناء قيامها بالعمل في دارفور. وحتى أثناء عهد طالبان، قامت المنظمات غير الحكومية بالتنسيق مع الحكومة الأفغانية من أجل أن تكون قادرة على تنفيذ البرامج. أومأت براسي موافقة - لقد كان الحل يكمن في تأكدنا من أننا كنا نعمل مع كافة الأطراف.

قلت، «أتعلم ماذا يا مائس، لديك وجهة نظر. لا تزال لدي تحفظاتي، ولكن بالنسبة للوقت الحالي، هاتفك الجوال في أمان.»

نظر مائس باندهاش. لقد كان مستعداً للشجار. وبدلاً من ذلك، ابتسم وشكرني للاستماع إلى وجهة نظره.

* * *

مرت الأيام القليلة التالية بسلاسة نسبياً، وكنت أمضي معظم وقتي أجوب الأحياء مع مارك، وأبحث عن موقع للمكتب وعن مكان أدعوه منزلاً للسنة المقبلة. وكان يتعين علينا التحرك بسرعة، ففي غضون أسبوعين كان مارك سيغادر، وسأكون مسؤولة عن البرنامج بكامله.

لقد كانت الحالات السابقة بشأن مكان وضع مكتب متنوعة، فقد قامت الكثير من المنظمات غير الحكومية بإنشاء متجر في الفنادق، وقامت مجموعة أخرى باستئجار عدة منازل متراصفة في حي راقٍ، مع تقسيم المنازل بين مكان للإقامة ومكاتب. ونظراً لأن مهمة منظمتنا كانت مساعدة النساء الأكثر ضعفاً، فقد كنت أريد مكتباً في منطقة تعاني من فقر شديد.

قدّمت الإجابة عن موقع المكتب نفسها أثناء أحد اجتماعاتي السريعة مع العم فهد. لقد كان منزل والده القديم يقع في حي الشواكة غربي بغداد، ونصحنا بإلقاء نظرة عليه. عرفت في اللحظة التي رأيت فيها المنزل أن منظمة «نساء من أجل نساء» قد وجدت مقرها الرئيسي الوطني الجديد. لقد تم هجر المنزل بحد ذاته لعدة سنوات، وبدا الباب الخشبي كما لو أنه كان من الممكن أن ينخلع إذا تم دفعه بقوة شديدة. وفي الداخل، كانت البلاطات القديمة مكدّسة في الفناء. وفي الوسط كانت هناك نافورة على الطراز القديم، لم تعد تعمل.

لم يكن أي من ذلك يهم. كان بإمكاني بسهولة أن أرى المنزل مجدّداً في مخيلتي. لقد كان منزلاً عثمانياً من القرن الثامن عشر، وكان قد تم بناؤه على طراز منازل دمشق الشهيرة، مع فناء مفتوح في وسط المنزل. وكان الطابق الثاني يطل على نافورة، ويؤدي إلى شرفة مدهشة تطل على مشهد خلاب لنهر دجلة. وعندما كنت أقف على الشرفة، كان بإمكاني رؤية سوف السمك إلى يساري، والسفارة البريطانية المهجورة إلى يميني. وكان العم فهد قد أوضح أن الشواكة كان حيّاً راقياً في عهد النظام الملكي العراقي. وبوصفه حيّاً ذا هيمنة شيعية كانت موالية لمحمد باقر الصدر، فقد تعرض للإهمال خلال حكم صدّام.

كان محمد باقر الصدر مؤسس حزب المعارضة الرئيسي ضد صدام، ومؤسس حزب الدعوة، وتم إعدامه في العام 1980. وكان من الشائع في نظام صدام معاقبة عدم الولاء من خلال فقر مُمأسَس. وبإهمال صيانة الخدمات الأساسية، أوجد صدام الكثير من أحياء الأقليات في كافة أنحاء بغداد. وكان حي شواكة أحد تلك الأحياء. وقد تم بناء بيوت من الطين في فناءات منازل أكبر، وترك نظام الصرف الصحي المفتوح سيولاً من المياه القذرة تتدفق خلال المنازل.

أخذت جولة حول الحي وتم الترحيب بي من قِبل نساء تغطيهن عباءات سوداء. كن يقفن عند مداخل بيوتهن وينظرن إلي بفضول. وعرض عليّ بعضهن دعوات حارَّة لدخول بيوتهن ومشاركتهن بفنجان من الشاي. توقفت برهة لأعرِّف بنفسي على أنني جارتهن الجديدة، ووعدتُ أن أزورهن في وقت آخر. وعلى الرغم من جهود صدام لتدمير الحي، كان لا يزال يبدي شخصية قوية تروي قصة أيام مجده. ولا شيء يمثّل هذا أفضل

من المشربية الخشبية القديمة (سواتر شبكية تتدلى من كل نافذة). وكان لكل منزل مشربية خشبية منقوشة بإتقان مع ألواح زجاجية على الطرف الآخر، ما يعطي إضاءة وتهوية للمنزل. لقد كانت رمزاً للتصميم الحضري الإسلامي. وكانت تصطف على الشارع مواجهة لنهر دجلة، وتمثل بجرأة الوضع المزدهر الذي كان يتمتع به سكان الشواكة في الماضي. ولم يكن لدي أي شك بأن هذا كان هو الموقع المثالي لمكتبنا.

ولكن، كان لا بد لي من إيجاد حل وسط... إن منزل الشواكة لن يكون جاهزاً قبل بضعة أشهر. في البداية، كنت مصرَّة على الحصول على مكتب منفصل تماماً عن مقر إقامتي. فقد كان من الصعب العمل في بيئة ما بعد الصراع، وكنت بحاجة إلى مكان خاص يمكنني فيه الانعزال وتجديد طاقتي عند اللزوم، ولكنني وقعت في حب حي الشواكة ووافقت على أن يكون منزلي بمثابة مكتب لنا لفترة مؤقتة إلى أن يتم استكمال أعمال التجديد في الشواكة.

تركت مارك ليتفاوض بشأن التفاصيل مع العم فهد. وكان من الممكن حذف بند العمل هذا من رأس قائمتي. مكان رائع للمكتب - تم إيجاده وتأمينه. والآن كنت أريد منزلاً فقط.

5

الحرُّ أشد بكثير في جهنم

◖ كانت الأمور قد بدأت تتضح. قمنا بالتوقيع على عقد الإيجار مع العم فهد، وبدأتْ أعمال التجديد في مكتب الشواكة. كما قمت بتحديد ثلاث محافظات -بغداد والحلة وكربلاء- حيث كنا سنبدأ باجتذاب نساء للانضمام إلى البرنامج. وكنت أستخدم الثلاجة ومقصف الفندق كمكتب فعلي لي. وبقي هدف واحد فقط: العثور على امرأة للعمل لصالح منظمة «نساء من أجل نساء» الدولية.

اتضح أن هذه المهمة كانت أكثر صعوبة مما توقعت. كانت هناك مجموعة واسعة من المهندسات والطبيبات والمحاميات والأستاذات الجامعيات والمعلمات، أعربت جميعهن عن اهتمام شديد بالعمل لحماية حقوق المرأة، ولكنهن جميعهن أبدين تحفظات بشأن العمل في مناطق منعزلة. كنت بحاجة إلى شخص ليس مستعداً فقط للعمل في هذه المناطق، بل أن يكون مقبولاً على نحو واسع في هذه المجتمعات.

وصل بحثي إلى نهايته في المكان الأقل احتمالاً. كنت في مدينة الصدر أجري مقابلات مع نساء للتسجيل في برنامجنا. لقد بُنِيَت مدينة الصدر في العام 1959 من قِبل رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم لمعالجة النقص في الإسكانات، وهي واحدة من مناطق بغداد التسع. وتعتبَر المنطقة الأكثر

فقراً واكتظاظاً بالسكان، مع ما يزيد عن مليون نسمة من الشيعة. وخلال نظام صدام، كانت المنطقة مهملة أكثر واستمرت غارقة في دوامة الفقر. وبالنسبة لي، كانت موقعاً مثالياً لتجنيد النساء اللواتي كن سينتفعن من دعم منظمة «نساء من أجل نساء».

وبناء على المقابلات التي أجريتها مع مجالس المناطق المعيَّنة من قِبل سلطة الائتلاف المؤقتة والزعماء المحليين الدينيين والقبليين والوجهاء في المجتمعات، قمتُ بإعداد قائمة بأسماء النساء الأكثر تهميشاً في المنطقة، وقمت بالطواف من منزل إلى منزل كجزء من عملية التسجيل. وفي أحد هذه المنازل قابلت منى حسين التي شاركت بقصتها بصدق محزن ينفطر له القلب.

تزوجت منى في عمر السادسة عشر، وعانت على يدي زوج مسيء لعدة سنوات. وفي أحد الأيام قرر زوجها أنه قد ضجر منها، وألقى بها خارج المنزل. وتم إرسالها إلى منزل شقيقها وأجبرت على التخلي عن ابنتها وابنها.

وقالت، «لا أعرف لماذا طلقني، كنت أفعل كل ما كان يطلبه مني. لقد رضينا بالهمِّ والهم لم يرضَ بنا،» مكررة المقولة العراقية الشهيرة. بعد مرور عشر سنوات، لم تكن قد حصلت بعد على أي معلومة عن ولديها.

وعاشت منى كواحدة من عبيد العصر الحديث لزوجات أشقائها الأربعة، وكانت خائفة من التعبير عن أي شكوى خشية إلقائها في الخارج. كانت تتشارك في منزل من الطين، تبلغ مساحته ستة أقدام في أربعة أقدام، مع أشقائها وعائلاتهم. وكان كل شقيق يحدد زاوية، ويفصل منطقته بملاءات سرير يتم إلصاقها لتكون بمثابة جدران. وكانوا يتشاركون

بمرحاض خارجي مع اثنتي عشرة عائلة أخرى كانت تعيش في منازل طينية مشابهة.

ومع ذلك، كانت منى تشع بقوة داخلية وثقة، فقد أخبرتني بقصتها كما لو كانت تتشارك بسلسلة من حقائق معروفة جيداً، بدون شفقة على نفسها أو يأس. وقد وصفت لي الأعمال المختلفة التي عملت بها على مدى العقد الماضي من أجل كسب لقمة العيش. وأثناء حديثنا عرفتُ أن منى كانت ستكون موظفة مثالية. فهي ليست فقط على استعداد للمجازفة في أكثر الأحياء عزلة، ولكنها كانت هي من تلك الأحياء. من أفضل منها لمساعدتي في تجنيد النساء؟

سألت منى ما إذا كانت مستعدة للعمل معي. قفزت من على الوسادة التي على الأرض حيث كانت تجلس، وعانقتني. وبدموع في عينيها، أومأت برأسها بحماس. كانت منى ستصبح، على مدى السنوات الخمس المقبلة، العمود الفقري للمنظمة في العراق.

* * *

كان هناك قلق يهيمن علي، صباح يومي الذي أمضيته في مدينة الصدر، بشأن اجتماع كان سيعقد بعد الظهر، وكان يجب علي أن أحضره. وكجزء من محاولتي الأخيرة لتسوية الأمر مع مائس، فقد وافقت على الذهاب إلى اجتماع في المنطقة الخضراء. ومن أجل التوافق، كنت مستعدة للتسوية من خلال استخدام هواتف وثلاجة سلطة الائتلاف المؤقتة. وبالرغم من ذلك، .بدا حضوري للاجتماعات مع الجيش الأميركي، بالنسبة لي، كمستوى جديد كلياً من التخلي عن مبادئي.

وكان مائس يختلف مع هذا الرأي إلى أقصى درجة. لقد أوضح أنه على الرغم من أن الكثير من الدول المجاورة كانت تعتبر الجيش الأميركي محتلاً، فقد كانت لا تزال هناك مجموعة مهيمنة من العراقيين الذين كانوا يرونه محرِّراً. وعندما أدرك أن الجدال أصبح مقبولاً لي قليلاً، استغل نقطة ضعفي.

أوضح مائس أن الأميركيين كانوا يقررون مستقبل العراق. ولا بد أن يكون هناك أحد للدفاع عن وجهة نظر العراقيين. لقد أمضينا الأسبوعين الماضيين في التحدث مع نساء مهمشات لن يكون بإمكانهن أبداً الوصول إلى المنطقة الخضراء. وأثناء مناقشاتي، كن يطرحن أسئلة عن مستقبلهن. هل كان أولادهن سيحصلون على وظائف؟ متى ستعود الكهرباء؟ هل سيستمر توزيع السلال الغذائية من الأمم المتحدة؟ هل ستتحسن حياتهن؟

سأل مائس، «من كان سيعطي صوتاً لوجهة نظرهن؟»

تم إقناعي، ووافقت على الذهاب إلى الاجتماع المقبل. لقد كان مائس متحمساً جداً لدرجة أنه عرض علي اصطحابي على الرغم من أن الاجتماع كان بعد انتهاء ساعات العمل.

* * *

وصلتُ ومائس إلى نقطة التفتيش خارج مركز المؤتمرات، حيث كان يتم انعقاد كافة اجتماعات سلطة الائتلاف المؤقتة. وطلب أحد الجنود هوياتنا، وقمنا على الفور بتسليمها له. وكان هناك جندي آخر يجلس على

كومة من أكياس الرمل. كان يرتدي نظارات طيار شمسية داكنة، ويرتشف الماء من حقيبة كمل (camel pack) (حقيبة توضع على الظهر وتكون مملوءة بالماء). أومأ لي برأسه.

سأل، «ألا تموتين من الحرّ وأنت مغطاة بالكامل؟»

قلت بابتسامة، «ليس بالضبط. برأيي الشخصي الجو أكثر حرارة في جهنم.»

هتف الجندي الذي يحمل هويتي، «أوه، يا إلهي، أنت تتحدثين الإنجليزية بإتقان.»

قلتُ بلامبالاة، «نعم، أنا أميركية.»

قال الجندي الذي يضع نظارات الطيار وهو يقف، «حقاً؟ أنت تعلمين أن الوضع آمن هنا. لست مضطرة إلى ارتداء ملابس تنكرية.»

أجبت، «شكراً، ولكنني على ما يرام.»

قال باستفزاز، «أنا متأكد من أنك على ما يرام.»

مشى الجندي الذي كان يضع النظارات ليقف بجانب الجندي الآخر، وأخذ هوياتنا، وسأل مائس، «نساء من أجل نساء. الآن تلك منظمة رائعة. هل تعمل معهن، أيضاً؟»

أومأ مائس برأسه، وهو لا يجرؤ على قول أي شيء.

«حسناً، إذن، أعتقد أنه من المناسب تماماً أن تخضع للتفتيش مع النساء.» وأشار نحو مترجمة عراقية كانت تجلس على بعد بضعة أمتار. «اذهب مع الأميركية المتخفية هنا واخضع للتفتيش.»

قامت المرأة العراقية بتفتيشي، ولكنها كانت محرجة جداً لتفتيش مائس بشكل مناسب. وقامت بمجرد التربيت على ظهره وتركتنا نمضي في طريقنا.

احمرّ وجه مائس تماماً وتمتم بشان الطريقة التي تم بها إذلاله. لم أقل أي شيء، فبالرغم من كل شيء، كانت تلك فكرته أن نكون هنا.

انتظرت خارج غرفة المؤتمرات حيث كان الاجتماع سيُعقَد. كان الجميع يرحبون ببعضهم البعض، ويتبادلون آخر المستجدات بشأن عملهم. لقد كان مزيجاً من الجنود بالزي الرسمي والنساء العراقيات. ألقيت نظرة متفحصة على الوجوه في محاولة يائسة للعثور على شخص أعرفه. وأخيراً رأيت شخصاً كان من الممكن تمييزه: أميركي عراقي كان مارك قد عرّفني عليه في الليلة الماضية على العشاء. كان اسمه ريّان. ولا بد أنه شعر بحاجتي الماسّة، لأنه توجّه نحوي بابتسامة متعاطفة.

وسأل، «أول مرة، آه؟»

أومأت برأسي.

سأل ريّان، «حسناً، منال، من أي جزء من العراق أنت؟»

أجبت، «أنا لست عراقية.»

قال بسخرية مع غمزة، «نعم، نعم، أنت أميركية. أفهم ذلك. أنا أميركي أيضاً.» كان بإمكاني أن أعرف أنه كان يَفترِض أنني كنت عراقية الأصل.

لم أتمكن من تذكُّر أي منظمة كان يمثلها. كان ينبغي أن أنتبه بشكل أفضل عندما قام مارك بعملية تعريفنا ببعض. كل ما تذكرته كان أن مارك

قال إنه كان سياسياً قنبلة موقوتة غير مناسبة، وذو قلب كبير مدفون تحتها. كانت لديه لهجة تنم بوضوح عن أن الإنجليزية لم تكن لغته الأم، ما جعلني أعرف أنه لم يذهب إلى أميركا منذ وقت طويل جداً. وقد جعلني شعره الأسود الكثيف وشاربه، إضافة إلى لون بشرته الداكن، أشتبه في أنه كان عربياً. ولكن بصراحة لا يمكن للمرء أبداً أن يكون متأكداً جداً. وكان من الممكن بسهولة كبيرة افتراض أن يكون لاتيني أو إيطالي أو هندي.

أجبت وقد قررت أن أتجاهل سخريته، «لا، حقاً، أنا لست عراقية. أنا فلسطينية الأصل.»

سأل، «أوه، إذن ما الذي تفعلينه هنا؟» ثم التفت نحو مائس ليوجه السؤال التالي، «ألم يتمكن رئيسك العراقي من العثور على أميركي عراقي لشغل المنصب؟»

لم يُجب مائس على الفور. « تقوم «نساء من أجل نساء» بالتوظيف على أساس المؤهلات فقط، وليس الجنسية. أنا متأكد من أن زينب لم تزعج نفسها مطلقاً حتى بالسؤال من أين كانت.»

شعرت بدون سبب منطقي على الإطلاق بأن قلبي كان سينفجر فخراً من رد مائس. لقد كان من السهل بالنسبة له أن يضحك مع رفيقه العراقي على حسابي، ولكن لم يكن ذلك هو السبب الذي كنت فخورة جداً لأجله. نعم، لقد وجه لكمة سريعة عني، ولكن الأهم أنه رفض أن يتم إكراهه على عمل ذلك. وكان ريّان يحاول أن يكرهه على فعل ذلك.

ركّز الاجتماع على إنشاء حاضنة للأعمال التجارية التي تقودها نساء. وبالنسبة لي، كان هذا عديم الجدوى. لم أتمالك سوى أن أتساءل أين كان

يعيش موظفو سلطة الائتلاف المؤقتة، فقد كان الطلب الرئيسي الذي كنت أسمعه من النساء هو بضع ساعات أخرى من الكهرباء كل يوم. لقد مرت أشهر منذ وصول قوات التحالف، وكان لا يزال هناك القليل من النتائج الملموسة.

تحمّلت الثلاثين دقيقة الأولى، ولكنني سرعان ما شعرت بالحاجة إلى قول شيء ما. بالرغم من كل شيء، فذلك هو السبب الذي جعلني أوافق على الحضور. كنت أتشارك معهم في بعض قصص النساء اللواتي قابلتهن، وكنت أشدِّد على حاجتهن للخدمات الأساسية من طعام وماء وكهرباء. وإذا لم تتم تلبية هذه الأساسيات، عندئذ كان كل الحديث عن التنمية وإعادة الإعمار غير منطقي.

لقد توقعت أن يكون الحاضرون غير متقبلين. وبدلاً من ذلك كان بإمكاني القول إنهم كان يصغون باهتمام إلى ما كان لدي لأقوله. بعد ذلك، حضر العديد منهم إلي للتعبير عن موافقتهم على النقاط التي أثرتها. لقد بدا أنه ربما لم يكن الاجتماع مضيعة للوقت بعد كل شيء.

* * *

بعد ساعتين، لحقتُ ومائس بيوسف وفادي داخل الثلاجة. كنت متشوقة لتفقُّد بريدي الإلكتروني. كان مائس لا يزال يستشيط غضباً بشأن الحادثة عند نقطة التفتيش، وكان بإمكاني سماعه وهو يخبر فادي ويوسف كيف أذلَّه الجندي.

سأل يوسف، «صدقاً؟ هل تقول أنه تم التربيت عليك وتفتيشك جسدياً من قِبل امرأة؟»

أومأ مائس برأسه. واحمّر وجهه من جديد.

تأوه فادي، «لا أستطيع أن أصدق أنك تتذمر. لم أكن أبداً محظوظاً هكذا!»

وطوال رحلة العودة واصل الاثنان إغاظته، والطلب منه إعادة سرد التجربة. وبالضبط عندما لاحظت أننا لم نكن نتوجه نحو الفندق حيث كنت لا أزال أقيم، سأل فادي ما إذا كنت أرغب في الانضمام إليهم لتناول العشاء في منزل والديه. وكانت والدته قد طبخت الدولمة (خضراوات محشوة بمزيج من الأرز)، وبدا ذلك أفضل بكثير من الكباب الجاف الأبدي الذي كنت أتناوله في مطعم الفندق. ووافقت على الفور.

لقد سررت لمقابلة والديّ فادي. كان والده مديراً مالياً كبيراً في مصرف الرافدين. وكعضو في الجمعية الكاثوليكية العراقية، فقد نجح في الاختباء والابتعاد عن رادار نظام صدام، ففي العقد الأخير كان صدام يستهدف، بشكل رئيسي، الشيعة والأكراد. وعلى الرغم من ذلك، ونظراً لأنه كان مواطناً من البصرة، فقد تم حرمانه من حق شراء منزل في بغداد. وقد أقاموا لمدة العشرين سنة الماضية في منزل أحد أقاربهم الذي كان يعيش في الولايات المتحدة. لقد أثار والد فادي إعجابي واحترامي، وبدأت بطلب مشورته بشأن الطريقة الفضلى لدفع برنامجنا قدماً، وأثبت أن لديه بصيرة رائعة، وحتى أنه وعد بالمساعدة بإنشاء حساب مصرفي للمنظمة.

بعد تناول الوجبة العراقية الشهية المطبوخة في المنزل، تم تقديم شاي عراقي لي. لقد كانت فرصة رائعة للتعرف بشكل أفضل على الرجال الذين كنت أعمل معهم. وقد شعرت أن علاقتي بفادي ومائس قد تحسنت بشكل كبير على مدى الأيام القليلة الماضية. وسنحت الكثير من الفرص

للتفاعل على مدى الأسابيع القليلة الماضية، وأصبحا يتصرفان بشكل أقل رسمية معي.

من ناحية أخرى، بقي يوسف بعيداً. وخلافاً لفادي ومائس، اللذين كانا يتمتعان بالسمات العراقية المميِّزة من شعر أسود وبشرة سمراء، كان يوسف يتمتع بألوان أفتح، وبشعره الأشقر الداكن والمقصوص على الطراز العسكري، كان من الممكن بسهولة أن يُظَن أنه أحد جنود القوات البحرية. وكان متحفظاً أكثر بكثير من الشخصين الآخرين، وبقيت أجد صعوبة في بدء محادثة معه. ومع ذلك، فطالما كان فادي موجوداً، لم أكن بحاجة إلى ذلك، فقد كان يبدو مفعماً بطاقة لا تنضب، وكان يفتح موضوعاً تلو الآخر.

وبالاقتراب من نهاية المساء، سألني فادي ماذا كان انطباعي الأول عنهم. ابتسمت وأخبرتهم أنني شعرت بتوتر وانتابني شعور غريب بأنهم لم يحبوني. نظروا إلى بعضهم البعض وضحكوا، ومن ثم هزوا أكتافهم مستهجنين ذلك مني.

قال مائس على نحو سمج وهو يمد الكلمة أكثر من اللازم، «حسناً، ذلك صحيح نوعاً ما.»

لم أكن أتوقع أن يقفزوا إلى إنكار ذلك، ولكنني لن أكن أتوقع أن يعترفوا به بصراحة شديدة.

قال فادي، وهو يقفز «أنظري، عندما انضممنا إلى المنظمة، أخبرنا مارك أن المرأة الأميركية كانت قادمة. وشعرنا بالحماس. كما نرى كل تلك النساء الشقراوات ذوات العيون الزرقاء، واعتقدنا أننا سنحظى بفرصة

للتعرف على واحدة منهن. وبدلاً من ذلك كانت لدينا امرأة عربية.» وابتسم ابتسامة عريضة.

قاطعه مائس، «لا، الأمر ليس كذلك. إنه ليس أنك لست شقراء فقط، على الرغم من أن ذلك كان صدمة نوعاً ما. بل أنك كنت مغطاة بالكامل أيضاً. أعني، من تغطي نفسها في أميركا؟»

صرخ يوسف في وجه مائس، «كحلتها وعميتها»[1]. آسف يبدو الأمر سيئاً عند شرحه بهذه الطريقة. لنتركه فقط على أننا كنا نتوقع شخصاً آخر.»

لم أتمالك سوى أن أضحك. كان بإمكاني فهم وجهة نظرهم. وقد تذكرت محادثة مع زينب فور وصولي، فسألتهم باستفزاز، «إذن، فقد اعتقدتم أنني كنت متطرفة؟»

أنكر فادي ويوسف ذلك على الفور، «لا!»

ولكن كان قد فات الأوان، فقد كان مائس يومئ برأسه بحماس.

ضحكت مرة أخرى، وأكدّت لهم أنه كان بإمكاني تفهّم لماذا أصيبوا بخيبة أمل. كما أخبرتهم بأنه كان هناك الكثيرات مثلي من حيث أتيت. فهناك الكثير من النساء الأميركيات المسلمات المهنيات المحبات للعشرة المحجبات. وكانوا متحمسين للسماع عن تجاربي وأنا أكبر، وشعروا بالسعادة لمعرفة أنه كانت لدي آراء متحررة على الرغم من لباسي المحافظ.

(1) القول العراقي يعني أنك أضفت الملح على الجرح. والترجمة الحرفية يمكن أن تصبح، «حاول أن يضع لها كحلاً فأصابها بالعمى بدلاً من ذلك.»

وبالضبط عندما كنت متوجهة للخروج من الباب رن هاتفي الذي حصلت عليه من سلطة الائتلاف المؤقتة. لقد كانت ريما خلف، رئيسة جمعية نساء النهرين المستقلة، وأوضحت أنها حصلت على رقمي من ريّان، وكانت تريد أن تدعوني إلى اجتماع في نادي الصيد.

قالت ريما، «أردت فقط أن أخبرك بأنني أعجبت بشجاعتك في الاجتماع. كنتُ وبعض النساء نناقش النقاط التي طرحتها، وأدركنا، على الرغم من عُمرك، أن لديك فعلياً خبرات نود أن نسمع المزيد عنها.»

أنزلت الهاتف وابتسمت. أصبحت معتادة على النمط العراقي في إلقاء مجاملة مغلفة بإساءة. وقد نجحت في القفز عن أول عقبة - عُمري. ألقيت نظرة على الرجال الثلاثة الذين كانوا سيساعدونني في إنشاء البرنامج. كان العشاء في منزل فادي فكرة جيدة، فقد شعرت بأنني أصبحت أقرب إليهم فعلياً. والآن المكالمة الهاتفية من ريما. كان يبدو أن الأمور قد أصبحت أخيراً تجري في مسارها الصحيح.

6
هستيريا الأمل

◖ لم يكن قد مضى على قدومي إلى العراق شهر، وبطريقة ما كانت جميع أفكاري، التي لم تكن تقبل المساومة، قد وجدت طريقها إلى طاولة المفاوضات، بمعنى أنني كنت قد صِغتُ في ذهني حقائق مطلقة كان من المقرر أن أتمسك بها بوصفها مقدسة. وكنت قد رسمت حدوداً كان من المقرر أن لا يتم تجاوزها. ومع ذلك، يوماً بعد آخر، كان يتم إسقاطها كما لو كانت من أعضاء المعارضة أمام فرق صدام حسين للإعدام رمياً بالرصاص.

دخلت العراق وأنا على ثقة من أنني وضعت إصبعي على نبض وجهة نظر غالبية العرب والمسلمين. وكنت بعيدة كل البعد عن الحقيقة. وكلما تعاملت أكثر مع العراقيين، رأيت أن حقائقي الواضحة وضوح الشمس تتحول إلى أشكال مشوهة غامضة.

لم يكن بإمكان حرب بوش في رأيي أن تجلب شيئاً سوى الموت والدمار، إلا أنه بدلاً من اليأس، كان العراقيون الذين تعاملت معهم مفعمين بالآمال والأحلام بمستقبل أفضل. وقد شعرت بغضب شديد من القهر الذي عانى منه العراقيون في العقود الثلاثة الماضية على يد الدول الغربية، إلا أن العراقيين كانوا يوجّهون أصابع الاتهام إلى مكان آخر، وألقوا باللوم، بشكل صريح، على نظام صدام حسين بشأن الوضع الراهن

في بلادهم. كما أنهم حمَّلوا جيرانهم العرب مسؤولية لموافقتهم، من خلال الصمت، على طغيان نظام صدام. ومضى بعض العراقيين إلى أبعد من ذلك بكثير في اعتبار الأميركيين محررين ومدافعين عن الحرية.

كانت مشاعري للوهلة الأولى هي أن العراقيين كانوا مخطئين، وقد انكمشت غير مصدّقة عندما أجبرت نفسي على مشاهدة مشاهد مثل تلك التي شهدتها في كربلاء. وقد هالني رؤية المقيمين في مدينة كربلاء المقدسة وهم يندفعون نحو الشوارع مهللين بسعادة أثناء مرور الجنود الأميركيين. كان بعض الأهالي يحملون صوانٍ فيها فناجين شاي، يقدمونها للجنود كضيافة خفيفة. وكان ذلك في وقت لا يزال مبكراً من الحرب، وكان الجنود الأميركيون يتوقفون باعتزاز شديد لتحية السكان المحليين والتمتع بدفء الترحيب بالأبطال. وكان يبدو بالنسبة لي أن هناك أمر خاطئ بصورة متأصّلة في الصورة. كانت النساء يرتدين عباءات طويلة فضفاضة بينما كن يحتشدن حول الجنود الأميركيين ويصرخن، «يسقط، يسقط صدام! الآن سيعيش العراق!» وأجبرت نفسي على أن أشاهد فقط، وقاومت آلاف الأفكار التي تنطوي على أحكام، والتي كانت تهدد بأن تغمر ذهني. ومع ذلك بقيت وساوس الشكوك.

ما الذي كانت تفكر به تلك النساء؟ كيف يمكن أن يُنظَر إلى أولئك الأولاد المراهقين الذين يرتدون الزي العسكري الصحراوي والخوذات والسترات الواقية من الرصاص على أنهم مبشرو سلام؟ بكل تأكيد كانت بنادق إم 16 المتدلية من أكتافهم، والمسدسات على أوراكهم إشارات على العدوان. كيف كان بإمكان العراقيين أن يروا القوات الأميركية بأي صورة أخرى غير كونهم محتلين؟

ولكن البنادق أصبحت أمراً مألوفاً جداً لدى العراقيين، ولم يكن هناك أي شيء ينذر بالخطر بشأنها. وفي الواقع أنها كانت تمثل السلطة والقوة التي كانت هناك حاجة لها. وقد شرح العراقيون لي، مراراً وتكراراً، أن الوسيلة الوحيدة لتحقيق السلام هي باستخدام القوة.

رفضت أن أقتنع. لم يكن هناك أي شيء جيد يمكن أن ينتج عن العدوان. ولكن أقنعتني النساء العراقيات، بطريقة ما، بالنظر إلى الوضع من خلال عدسات الرؤيةِ الخاصة بهن. وتدريجياً بدأت تقبُّل فكرة أنه ربما يكون هناك سيناريو ناجح يلوح في الأفق.

وقد عرفت أنني قمت بالغوص في جحر الأرنب في اليوم الذي وافقت فيه على الالتقاء مع جمانة. ولم تكن قصتها فريدة من نوعها.

كانت واحدة من آلاف النساء اللواتي تعرضن للسجن والتعذيب من قبل النظام البعثي. وتقدمت جمانة بوصف مفصَّل لتجربتها. ولم تكن قصتها بشأن من كانت بقدر ما كانت بشأن أين كانت.

دُعيت إلى اجتماع في فندق الرشيد في المنطقة الخضراء، وكانت آخر مرة دخلت فيها إلى الفندق في العام 1997، وكان علي أن أخطو فوق بلاط فسيفسائي يشكل صورة وجه الرئيس جورج إتش. دبليو. بوش مع عنوان «بوش مجرم.» وكان المشهد بعد خمس سنوات آتياً مباشرة من بوليوود: الفندق الآن يعجّ بالجنود الأميركيين الذين كان جورج دبليو. بوش قائدهم الأعلى.

كان اجتماعي مع القاضي دونالد كامبيل، وأتيت مزودة ببعض المعلومات الأساسية عنه، والتي حصلت عليها من غوغل. إنه من المحاربين القدماء في فيتنام وحصل على أوسمة، وقاضٍ متقاعد من المحكمة العليا في

ولاية نيوجيرسي، ويعمل حالياً بوظيفة كبير مستشاري وزير العدل مسلّحاً بخبرة سابقة في إصلاح النظام القضائي المتداعي في هاييتي في ظل القبضة الحديدية لديكتاتور.

وكان من المقرر أن يقابلني القاضي ليرى ما إذا كان من الممكن الوثوق بي لمقابلة جمانة. أعجبت على الفور بطبيعة الرجل المتواضعة، وعبَّر عن قلقه على جمانة وأطفالها، وكان في توق لسماع توصياتي. كان ردي الأول يتمثل بمنح وسائل لإعادة دمجها في المجتمع العراقي، وذلك بشكل رئيسي من خلال توليد دخل وجماعات دعم للنساء. هز القاضي كامبل رأسه، وشرح أن وضعها تجاوز مرحلة إعادة الدمج، فلم تكن تلك مجرد امرأة تم تعذيبها من قِبل البعثيين. لقد كانت امرأة مستعدة أن تعلن قصتها على الملأ، وكانت تمثل السلعة المنشودة بشكل أكبر في بلد يحاول الحصول على أدلة عن جرائم حرب: المعلومات. كانت جمانة تُزود بأسماء ومواقع وتفاصيل.

عثرت سلطة الائتلاف المؤقتة عليها بفضل تقرير استقصائي قديم جيد: مقالة على الصفحة الأولى لصحيفة واشنطن بوست. وقد عمل العنوان الرئيسي، امرأة وحيدة تشهد على نظام الإرهاب (A LONE WOMAN TESTIFIES TO IRAQ'S ORDER OF TERROR)، على لفت انتباه المسؤولين الحكوميين من بوتوماك إلى دجلة. أبلغت أن قصص التعذيب التي روتها وقد تم التحقق منها بعد أن كشف الفحص الطبي عن ندب دائرية تشبه قطر سيجارة، وأشارت ندوب أخرى إلى أنه قد تم ربطها وعضها من قِبل كلاب. حصلت إحدى المجلات المحلية على المقال وقامت بترجمته إلى اللغة العربية، واستخدم الصحفي من بوست اسمها الحقيقي، وقامت المجلة العراقية برسم صورة كاريكاتيرية لترافق المقالة.

لم يكن من الصعب على أي شخص العثور عليها، وبالتالي كان من الواضح أن جمانة كانت في خطر محدّق.

كان واضحاً أنني لم أكن الوحيدة في استنتاج ذلك، فقد كان لجمانة أصدقاء في مناصب عليا في الحكومة الأميركية نتيجة لمقال بوست، وتم تشكيل برنامج ارتجالي لحماية الشهود من أجل حمايتها، وقد اشتمل ذلك على نقل جمانة، ووالدتها وطفليها إلى مقطورة خلف أحد قصور صدام حسين داخل المنطقة الخضراء.

كان القاضي كامبل قلقاً بشأن حالة جمانة النفسية، وعندما كانت هناك إشاعات بوجود عاملة معونة أميركية من أصل عربي تعمل مع منظمة نسائية غير حكومية في بغداد، تحمّس لإجراء اتصال نيابة عنها. والآن بعد أن قابلني، سألني إن كنت أرغب في مقابلتها. وانطلاقاً من فضولي، وافقت.

وكان يوسف هو الشخص الوحيد الذي رافقني، وكان ينتظرني في مركز المؤتمرات، وقد جعلني ذلك أشعر براحة كبيرة لأنه أثبت مراراً وتكراراً أنه الشخص الأكثر موثوقية من بين الموظفين الثلاثة الذين يعملون معي. كان يوسف حذراً جداً، وكان يحثني دائماً على التخطيط. وكان منضبطاً تماماً في مواعيده وينجز المهام المناطة به على الفور. وحيث أن الحذر كان مخالفاً لطبعي، كنت أجد من الأبسط أن أدعه يقوم بذلك النوع من التخطيط من أجلي.

افترضت أن اللقاء مع القاضي كامبل سوف يكون قصيراً وحددت مواعيد مباشرة بعده. وكان يوسف قد نبهني إلى ضرورة تخصيص بضعة ساعات بدون لقاءات نظراً لأن اجتماعات المنطقة الخضراء تستمر دائماً لفترة طويلة. قمت بتحديد مواعيد اللقاءات على الرغم من ذلك، ولم يكن

لدي أرقام هواتف أي من الحاضرين للاتصال بهم إن احتجت إلى إلغاء أو إعادة تحديد موعد اللقاء، ولذلك اتصّلت بخجل مع يوسف وأخبرته أنني كنت سأبقى لعدة ساعات أخرى. وبطبيعة الحال كانت لديه جميع الأرقام الضرورية لاجتماعاتي، ووافق على الاتصال وتأجيل هذه الاجتماعات لليوم التالي، وطمأنني أيضاً أنه سينتظرني حتى أعود.

وكانت تلك أول جولة أقوم بها داخل المنطقة الخضراء بما يتجاوز مركز المؤتمرات، وتم اصطحابي على متن حافلة مكوكية، كانت تستخدم في الغالب من أجل الموظفين العراقيين الذين كانوا يعملون في المنطقة الخضراء. وصعد العمال إلى الحافلة بتثاقل وكل منهم يحاول أن يبقى على مسافة من الآخرين خشية أن يتم التعرف عليهم خارج أمن المنطقة الخضراء.

جعلتني مرافقتي أمشي عبر نقطة التفتيش وإلى داخل القصر الذي كان يضم مكتب السفير بول بريمر، وأوقفتني عند مكتب السفير من أجل تقديمي إلى مساعده وإلى بعض أعضاء طاقم موظفيه، وقد أعربوا جميعهم، بصورة شخصية، عن مخاوفهم بشأن سلامة جمانة. كانت كلمات القاضي كامبل ما تزال تدور في ذهني، ولم أستطع أن أتخلص من الشعور غير الواقعي، فقد كان مشهد قصر صدام حسين وبحر من الزي العسكري الأميركي غامراً. وببساطة لم يكن بمقدوري استيعاب البيئة المحيطة بي. كان الوضع بعيداً كل البعد عن شوارع بغداد، والمطاعم المحلية التي أتردد عليها الآن، وفندقي المهلهل على مشارف الكرادة. وكان هذا المكان ينتمي إلى حقبة مختلفة. كانت الأرضيات من الرخام البكر. وكانت التشطيبات المذّهبة تشير إلى ترف صارخ. وكانت الصالات الهائلة تمثل الازدهار. لقد تم إبعاد صدام وأعوانه بصورة سحرية عن خشبة المسرح، واستبدالهم بمجموعة جديدة من الممثلين.

وعاد الواقع فقط بعدما وجدت نفسي داخل المقطورة التي كانت تقيم فيها جمانة، ووجدتها ممدة على سرير موضوع بشكل موازٍ لجانب الحائط. وقفزت جمانة على الفور من السرير وإلى ذراعَيّ.

وذهلت من عناقها، وهتفَتْ بالعربية، «منال عمر. قالوا لي إنك سوف تحضرين ولكنني لم أصدقهم. لم أصدق أن أختاً عربية سوف تأتي لرؤيتي. لا يمكنني أن أعبر لك عن مدى سعادتي بقدومك.»

لقد كنت مصدومة إلى درجة أنه لم يكن بإمكاني أن أجد أي كلمات أرد بها، فلم أكن قد التقيت مع جمانة أو سمعت بها حتى إلى ما قبل ساعة. ومن حسن حظي أنني لم أكن مضطرة للرد. فقد انتقلت جمانة على الفور إلى قصتها.

كانت الابنة الوحيدة لعائلة آشورية مسيحية بارزة. وكانوا يعيشون في أحد أحياء بغداد الأكثر ثراء قرب شارع عرصات الهندية. كانت مدللة من قِبل والديها وكانت تعتبر واحدة من أجمل النساء في المدينة. لم يكن من الصعب تخيل ذلك بعد الأخذ بالاعتبار شعر جمانة الأشقر وعينيها الزرقاوين المائلتين إلى اللون الأخضر. ومن الممكن لامرأة عراقية أن تمتلك بنية بدنية لعملاق بشع ووجه أخت شريرة من زوجة الأب خارجة من حكاية الأخوين غريم، ومع ذلك تعتبر جميلة لمجرد أن يكون لون جلدها أقرب إلى اللون الأبيض ولها شعر أشقر وملامح فاتحة. وصرحت جمانة باعتزاز أنه على الرغم من تودد الكثير من الرجال إليها، إلا أنها قررت أن تتزوج من تُحب.

واستدارت جمانة نحو صندوق يحتوي على أمتعتها، وسحبت صورة. كانت صورة لجمانة الشابة، وفي الواقع الجميلة جداً، وهي ترتدي

سروالاً وقميصاً هندياً أحمر اللون مزين بالذهب. وفي منتصف جبهتها كانت النقطة الحمراء التقليدية التي ترمز إلى المرأة الهندية.

تأوهت وهي تقول، «نصيبي كان هندياً.» وكان حب حياتها رجل هندي فقير، وبينت أنه تم التقاط الصورة ليلة زفافها. وأظهرتها صورة أخرى إلى جانب رجل طويل القامة وأسمر ووسيم. ابتسمت عند رؤية الصورة، ولبرهة من الزمن اعتقدتُ أنها نسيت أنني كنت موجودة.

«لقد أحببته. على الرغم من أن حبنا دمر حياة كلينا.»

وأخبرتني جمانة أنها تزوجت الرجل الهندي ضد رغبة والديها، وأنها أنجبت طفلين. وابتسمت عندما شرحت معنى أسماء ولديها: صابر وأيوب. وشرحت أن صابر تعني الصبر في اللغة العربية، وأيوب تيمناً بالنبي أيوب الذي كان مثالاً للصبر والصمود على مر الزمن.

«أنظري، منذ اليوم الأول أدركت أن الرب سيختبر صبري. لقد عرفت ذلك لأنه أرسل إلي أصعب رجل يمكن أن أحبه في العراق.»

وفي الواقع أن زواجها لم يجلب سوى وجع القلب، والتعذيب والموت لزوجها. وشرحت أن زواجها كان يعتبر غير شرعي نظراً لأن زوجها لم يكن عراقياً، على الرغم من أنه ولد في العراق. وعندما حاولت جمانة أن تستخدم علاقات عائلتها من أجل الحصول على إذن حكومي من الأسرة الحاكمة، تم سجن كليهما. وتم إرسال جمانة إلى سجن الكلاب الشاردة في بغداد لمدة عامين ونصف. وتم إطلاق سراح زوجها فيما بعد ومن ثم سُجن مرة أخرى وقتل.

كانت جمانة الآن تجلس على السرير مرة أخرى. كنت قد غمرت بالمشاعر - بسبب البيئة المحيطة، وبسبب القصة، ولكن أكثر من ذلك كله

بسبب التعامل معي كما لو كنت إحدى صديقات جمانة في روضة الأطفال، والتي افترقت عنها منذ وقت طويل. لا عجب أن الجميع في سلطة الائتلاف المؤقتة كانوا حريصين على حمايتها. فقد كانت تتكلم ببراءة تجعل من الصعب تصديق أنها كانت أم لطفلين في الأربعين من العمر. وتوقفت لبضعة ثوانٍ فقط قبل الانطلاق في رواية قصة سجنها. وشرحت كيف اعتدوا عليها واغتصبوها وعذبوها هي وباقي النساء. وتشاطرت بقصص باقي النساء، اللواتي كان الكثير منهن مجرد مراهقات.

وقالت مستخدمة اسمي بألفة كبيرة، «منال، كانوا يربطونني إلى جذع شجرة، ويفركون جميع أنحاء جسدي باللحم، ومن ثم يطلقون الكلاب اللعينة لذلك اللعين عُدي. وهناك علامات على جسدي تُثبت ذلك.» قالت ذلك وقامت بحركة لخلع قميصها. ولكنني أوقفتها بسرعة. ولم يكن هناك حاجة لأن تكون حميمية أكثر من اللازم.

وربما كان قد مضى على وجودي في المقطورة ساعات وأنا أستمع إلى قصص جمانة المروعة، إلا أنه تمت مقاطعتنا من قِبل جنديين شابين كانا يرافقان طفلي جمانة في عودتهما من مسبح صدام الأولمبي. وقام صابر الذي كان في السابعة من العمر، وأيوب الذي كان في الخامسة من العمر بالقفز بضجيج إلى داخل المقطورة. كانا طفلين جميلين. وكان لونهما الأسمر الطبيعي قد اكتسب مزيداً من السمرة، على الأرجح من كثرة ترددهما على المسبح منذ انتقالهما إلى المنطقة الخضراء.

وراقبت بينما التفت الطفلان لتحية جدتهما. وكانت تجلس بصمت شديد في زاوية المقطورة إلى درجة أنني لم أدرك حتى أنها كانت موجودة هناك. وانتهزت الجدة فرصة التوقف في المحادثة لتقحم أفكارها الخاصة بشأن وضع ابنتها.

وقالت لي، «يا بنتي، أرجوك ألا تعيدي كلمات ابنتي. فهي مُهلِكة. ونحن بالفعل مسجونون في هذه المقطورة، وأستطيع أن أتخيل أن الوضع سيصبح أسوأ فقط. وقد ناشدتها أن تبقى صامتة. إلا أنها لم تصغِ إلي وتصر على أن تجرنا جميعاً نحو الجحيم.»

وشعرت برغبة في أن أقول لأم جمانة، التي يبلغ عمرها السبعين عاماً تقريباً، إن الأوان قد فات. فقصة ابنتها تُقرأ في كل مكان في واشنطن العاصمة وفي بغداد.

وأدركت أن الوقت كان متأخراً وبدأت في التوديع. وسألتُ جمانة إن كان هناك أي شيء تحتاج إليه. وكان لديها طلبين فقط. الأول هو أن أقوم بزيارتها مرة ثانية. والثاني أن أُحضر لها إنجيلاً باللغة العربية. وقد وعدتها أن أبذل قصارى جهدي لتحقيق طلبيها.

* * *

لم يكن هناك شيء استثنائي يمكنني أن أفعله من أجل جمانة. فقد كان لها حلفاء أقوى مني بكثير. ومع ذلك فقد توسلت إلى حلفائها من أجل السماح لي بزيارتها في المنطقة الخضراء. ووافقتُ. ولم أكن أبداً متأكدة لماذا. وقد عملت موافقتي على مساعدة جمانة إلى دفعي نحو نقطة اللاعودة. وكانت جميع محاولاتي للنأي بنفسي عن سلطة الائتلاف المؤقتة بلا فائدة. وحقيقة أنني كنت أدخل المنطقة الخضراء بصورة منتظمة كانت تعني أن علي أن أعبر خط اعتصام وهمي من المناهضين للحرب بين المنظمات الدولية.

وربما أنني وافقت على المساعدة لأنني كنت قد عدت من الحلة، حيث قمت بزيارة مقبرة جماعية. ووفقاً لوسائل الإعلام العربية الشعبية، كان هذا التركيز على المقابر الجماعية يعتبر حيلة لتحويل الانتباه عن أسلحة الدمار الشامل غير الموجودة. ولكن تلك المقابر حقيقية، وكانت النساء المرتبطات بالضحايا حقيقيات أكثر.

وكانت المقابر الجماعية من الانتفاضة الشيعية في تسعينيات القرن العشرين قد تم تأكيدها وفضح أمرها بعد الغزو الأميركي. وتوافدت النساء إلى المواقع، تنقبن بين البقايا عن أدلة، وكن يبحثن على مهل وبكرامة عن أي أثر لشخص محبوب، وشرحن لي أن الله استجاب لصلواتهن بمنحهن فرصة لوضع حد لمآسيهن والحداد على موتاهن. وكانت هناك كومة صغيرة من المقتنيات الشخصية التي لا تتحلل بيولوجياً - صندل بلاستيكي، مسبحة بحبات خشبية، أزرار قميص - هي فقط ما توفر من أدلة للنساء على ما قد حدث.

وفّرت شهادة جمانة فرصة للحصول على أدلة مادية ضد بعض مرتكبي هذه الجرائم. وأشار القاضي كامبل إلى أنها كانت تزود السلطات بتفاصيل، بما في ذلك تحديد مواقع المقابر الجماعية وأماكن التعذيب في بغداد لمحققي الحكومة الأميركية.

لم أفقد أبداً التركيز في أنها كانت واحدة من كثيرات، وقد أجريت العديد من اللقاءات مع نساء اعتقدن أن نهاية الدكتاتورية ترمز إلى بداية جديدة بالنسبة لهم، ونهاية لحقبة اليأس الذي كان قد طوق معظم العراقيين في ظل صدام. قابلْتُ نساء من شتى الطبقات الاجتماعية والاقتصادية ومن مختلف الطوائف الدينية اللواتي بدأت حياتهن تزهر بعد الحرب، وكنّ

منجرفات في دوامة لولبية متصاعدة من الأمل، وفي مرحلة ما، سمحت لنفسي أن تنجرف بها أيضاً.

* * *

جلست بعد أسبوع على حافة السرير في غرفتي في الفندق. لقد بدت الأسابيع الأولى في العراق كما لو كانت سنوات، وكان كل يوم يطول كما لو كان بلا نهاية بينما كنت أعدو في كافة أنحاء البلاد لإطلاق برنامج «نساء من أجل نساء». وفي هذا اليوم كنت متعبة للغاية من رحلتي في النهار إلى بابل كجزء من تقييم المجتمع، فأقنعت سائقي أن يقوم بالانعطاف إلى الموقع الأثري، ولكنني سرعان ما ندمت على ذلك. لقد تم إرغام الأطلال على أن تكون شاهدة على أحداث التاريخ، وفي كثير من الأحيان كان عليها أن تدفع ثمناً. وكان صدام قد أعاد بناء الموقع على غرار ديزني لاند ونقش الأحرف الأولى من اسمه على كل حجر. وأدى الوجود العسكري الأميركي إلى خسارة أخرى، فقد تمت تسوية أجزاء من الموقع التاريخي لإنشاء منصة هبوط للطائرات المروحية.

جلست على سريري وأنا أفكر في ما إذا كانت الغلبة ستكون لجوعي أم لشعوري بالإنهاك. كنت أشعر بحرٍّ وتعب شديدين، إلى درجة أنه لم يكن بإمكاني ارتداء ثيابي والنزول إلى المطعم. كنت أريد أن أبقى في غرفتي، حيث يمكنني أن أسترخي في بنطالي القصير وقميص بدون أكمام، ناهيك عن أن كتفي الأيمن كان يؤلمني ألماً مبرحاً.

حدقت بذهن شارد في الجاني - حقيبة الطوارئ الخاصة بي. منذ وصولي قبل أقل من شهر وأنا أجرها معي في كل مكان. وهززت رأسي على

مقدار الوقت والبحث اللذين أنفقتهما في محتويات الحقيبة عديمة الفائدة. وربما أن الوقت قد حان لكي أقرّ بأنني كنت دراميّة بشكل مفرط. وكان بإمكاني، بكل بساطة، أن أترك الحقيبة في غرفتي. ولم تكن هناك أي حاجة لحملها معي في كل مكان كل يوم. ومع المولدات الكبيرة المحيطة بالفندق، لم يكن لدي أي سبب لاستخدام المصباح اليدوي الذي وضعته في الحزمة.

ولكنه ربما كان لا يزال من الممكن استخدامه لغرض ما. وربما أن الوقت قد حان للتوقف عن تخزين قطع البروتين والوجبات الغذائية التي حزمتها. تحسست داخل الحقبة باحثة عن ألواح اللونا، وسحبت الصندوق الأزرق الفاتح الذي كان يحتوي على أقنعة الوجه، وهو حل وسط توصلت إليه مع مارك بعد صراع معه بشأن ما إذا كان يجب أن أشتري عداد غايغر أم لا.[1] وكنت مقتنعة أنني سأكون بحاجة إلى واحد للكشف عن المناطق الملوثة باليورانيوم المنضب.

ربما أن وجود ذلك في أماكن سكني الجديدة لم يكن ضرورياً، أيضاً. كنت، أخيراً، أخطط لترك فندقي في الكرادة. وكنت قد وجدت، مؤخراً، مكاناً قريباً من حي الجامعة، حيث كان يعيش عدد من أعضاء هيئة التدريس. وكان الأشخاص الذين يمتلكون المنزل جزءاً من العائلة الممتدة لصديقة مقربة في واشنطن العاصمة. وكانت الأسرة التي تمتلك المنزل عائلة كردية الأصل من أربيل، ولكنهم كانوا قد أمضوا الأربعين عاماً الماضية في بغداد. كنت سأنتقل إلى المنزل في غضون أسبوع. لقد كنت متحمسة لفكرة أنه سيكون لدي جيران عراقيين حول مكان خاص بي. وبدأت أشعر بالاستقرار، وكنت أشعر بالأمان.

---

(1) يستخدم عداد غيغر للكشف عن أشعة بيتا وغاما.

وعندما غفوت بينما كنت أشاهد عرضاً مُعاداً لـ فريندز (أصدقاء)، أيقظني انفجار كبير في هزة شديدة. وفجأة أصبحت الغرفة مظلمة، والتلفاز مُطفأ. ظننتُ أنه تم فصل مولدات الفندق. وأعقب الانفجار بضع طلقات من النار. قفزت من سريري وبحثت عن حقيبة الطوارئ التي كانت محتوياتها مبعثرة على الأرض. وارتديت بسرعة بنطال رياضة وقميص تي شيرت بأكمام طويلة وحجابي. ولم يكن بإمكاني أن أقرر ما إذا كان يجب أن أترك غرفتي، ولكن، بعد ذلك، تم اتخاذ القرار نيابة عني عندما سمعت أصوات إطلاق النار من بنادق. وكان إطلاق النار قريباً جداً. في الوقع أنني كنت متأكدة فجأة من أن الصوت كان آتياً من الحراس أمام الفندق. وتم الرد على ذلك بمزيد من إطلاق النار. وتدريجياً أصبح إطلاق النار تدفقاً مستمراً للرصاص الذي أصبح صوته أعلى وأعلى. وكانت هناك زيادة في الشدة، وفي غضون دقائق كان يبدو كما لو أن سكان الحي جميعهم قد أخرجوا أسلحتهم وفتحوا النار.

وعادت مخيلتي تعمل بكامل قوتها. لا بد أن الحي قد نظم هجوماً على الفندق. أليس ذلك هو السبب الذي جعلني أستمر بسماع إطلاق النار المستمر من الحراس في الطابق السفلي؟ ولم يكن ترك غرفتي خياراً، وكذلك كان البقاء في نفس الوضع في انتظار أولئك الذين كانوا في طريقهم لاقتحام الفندق واكتشاف وجودي. وقررت أن أفضل شيء يمكن أن أفعله هو أن أختبئ. ولم تكن هناك خيارات كثيرة في غرفتي في الفندق. تحت السرير. لن يكون ذلك مهمة سهلة بالنسبة لامرأة ذات بنية متوسطة يبلغ طولها خمسة أقدام وعشرة بوصات.

ومباشرة بعد أن تدبرت أمري في لعب أوريغامي بجسدي وحشر نفسي أسفل السرير، سمعت طرقاً على باب غرفتي. لقد كان طرقاً بسيطاً.

ليس ضجيج الطرقات التي فكرت مخيلتي أنها مناسبة للمشهد الذي يتكشف حولي. ربما سيتم جرّي إلى الخارج من قِبل متمرد مهذب وودود. مكثت تحت السرير. وكانت هناك طرقة أخرى. ومن ثم قام شخص ما بمناداة اسمي.

«منال، هل أنت في الداخل؟»

حبست نفسي. وكان الجزء المنطقي من دماغي يقول لي إنني أعرف ذلك الصوت. لقد كان مارك. عظيم، صرخت مخيلتي، لقد قبضوا على مارك وقام بالإبلاغ عني!

«هيي، كل شيء على ما يرام هناك. يبدو أن هناك بعض الهرج والمرج في الخارج. سوف أصعد إلى السطح لمعرفة ما يجري. هل تريدين القدوم؟»

فتحت الباب، وكنت محرجة من حقيقة أنني كنت أتنفس بصعوبة بالغة بسبب المشقة التي واجهتها في ضغط نفسي كي أخرج من تحت السرير.

«ماذا بحق الجحيم؟» كانت هي الكلمات الوحيدة التي تدبرت أمر قولها.

ابتسم مارك. ربما أدرك أنني كنت مفزوعة. «تقول الأخبار إن قواتنا تمكنت من أبناء صدام.»

«وماذا عن الطلقات النارية من الحراس؟»

«نعم، يبدو أنهم قد انضموا إلى الاحتفالات. هل تريدين أن تأتي إلى السطح معي؟»

وكان أول ما فكرت به هو: بالطبع لا أريد أن أصعد إلى السطح يا راعي البقر المهووس. ولكن بعدئذ لا أريد أن أترَك لوحدي مع مخيلتي مرة أخرى.

تبعت مارك. وتوقفت عند الباب الذي يؤدي إلى السطح وراقبته وهو يمشي نحو الخارج. وكان الأمر يبدو كما لو أن أحدهم قد نصب موقداً في وسط السماء. لقد كانت هناك احتفالات بهيجة في كل مكان، وكان بإمكاني أن أسمع صوت الموسيقى وطرق الأرجل من رقص الدبكة المرتجلة.

لم أنم تلك الليلة. قضينا مارك وأنا الليل متنقلين بين السطح وبهو الفندق نستمع، بينما كان يتشارك الموظفون العراقيون بكوابيس عُدي أو قُصي التي عانت منها أسرهم. وبينما كنت أستمع إلى القصص، ذهبت أفكاري إلى جمانة. أين كانت الآن؟ هل سمعت الأخبار؟ فالكثير من قصتها كان متمحوراً حول عُدي والقسوة الوحشية لأعوانه. وتذكرت وصفها للتعرض لاغتصاب جماعي، والكثير من النساء العراقيات اللواتي عشن في خوف من جذب عين هذا الرجل المجنون. وقد تم تحقيق العدالة في نهاية المطاف بالنسبة لهؤلاء النساء.

* * *

كان من المقرر أن أذهب في زيارة إلى جمانة في اليوم التالي. وقبل أن يتم أخذي لرؤيتها، حذرني مرافقي من أنه قد تم إبلاغها بمصرع عُدي وقصي قبل ساعات قليلة فقط. وكانوا قلقين بشأن ردة فعلها على الأخبار.

.وعندما دخلت إلى المقطورة، كانت جمانة تتمشى على مهل ذهاباً وإياباً. والتفتت إلي وابتسمت.

وقالت: «اليوم هو يوم تسديد الحساب بالنسبة لي. إنه اليوم الذي كنت أنتظره. إنها الرؤية التي تمسكت بها في كل لحظة كان يتم تعذيبي بها. اليوم، أعتقد حقاً أن العراق سوف يكون مكاناً جديداً.»

ابتسمت. فقد كان صوت جمانة يكرر القصص التي سمعتها في الليلة الماضية. وكان الناس قد وصفوا كيف أنه لم يعد بإمكانهم تذكر زمن قبل نظام صدام. ولم يكن بمقدورهم حتى تخيل زمن بعد صدام. لقد كان اليوم معجزة.

عانقتني جمانة. «اليوم قررت أن أسمح لنفسي أن أشعر بالأمل مرة أخرى.»

7
عيون مغلقة جيدا

◗ استوعب تشارلز ديكنز الحرب. «كانت أحسن الأزمان، وكانت أسوأ الأزمان.» وعلى مدى الشهور الثلاث الماضية، كانت بغداد مقسمة إلى مدينتين منفصلتين، كل واحدة منها غريبة ومن غير الممكن التعرف عليها من قِبل الأخرى.

أولاً، كانت هناك مدينة ثقافية نابضة بالحياة. وقمت، في تلك البيئة، بالانضمام إلى نادي الصيد المرموق في حي المنصور، وكنت أذهب كل يوم ثلاثاء للسباحة، وكنت ألعب بينغو في مساء كل يوم جمعة. كنا نأكل. أوه، كنا نأكل حقاً. لقد أعد فادي قائمة بأفضل المطاعم في بغداد، وفي كل مساء كنا نشطب واحداً من القائمة. وكان المفضل بالنسبة لي هو ساسيبون، في الجاذرية، والذي كان يتميز بمنطقة جلوس شاسعة في الهواء الطلق وسط حديقة على الطراز البريطاني. كنا ندخن الشيشة هناك حتى منتصف الليل. وكان هناك مكان آخر مفضل وهو شارع عرصات الهندية في الوسط التجاري لبغداد، والذي كان مقراً للعديد من السفارات الأجنبية. ومن بين المطاعم التي كنا نتردد عليها أكثر من غيرها كان المطعم الفرنسي بابيش والمطعم اللبناني نبيل. وقد كان مزيجاً من أفضل ما لدى كِلا العالمين،

الشرقي والغربي. وكان لدى بابيش العديد من الأطباق على النمط الغربي، بما في ذلك شرائح اللحم بالفلفل والمعكرونة، بينما كان نبيل مشهوراً بكبابه وحمصه وأفضل السلطات اللبنانية.

وكان لدى يوسف قائمته الخاصة. وعلى الرغم من أنه أمضى معظم حياته في حي المنصور الراقي، إلا أنه كان يفضل المناطق الشعبية أكثر. وكان قدُّوري في سوق باب الشرقي هو المكان المفضل بالنسبة له. وكان السوق هو المركز الرئيسي للكهربائيات في بغداد، إضافة إلى كونه ملاذاً للنشاطات الإجرامية. وكان ذلك أمراً ثانوياً بالنسبة لحقيقة أنه يُقدم أفضل كباب في المدينةِ. وكان يوسف يُفضل المطاعم التي كان يرتادها العراقيون العاديون، وينأى بنفسه عن الأماكن ذات النمط الغربي التي فيها إفراط في مظاهر البذخ والثراء.

وكان هذا الشعور هو الشيء الرئيسي الذي كنا نتشارك فيه يوسف وأنا، إذ لم أكن أرغب في أي شيء أكثر من التجول في بغداد كواحدة من السكان المحليين. وأحب كلانا شوارع المدينة التاريخية، وتطوع يوسف ليكون مرشدي السياحي. وأصبحت مهووسة بمجتمع الفن النابض بالحياة الذي كان آخذاً بالظهور مرة أخرى. وكان يوسف يصطحبني، مرة كل أسبوع، إلى سلسلة من المحلات التجارية في الكرادة التي كانت تضم أعمال الكثير من الرسامين المحليين. وكنت أحتسي الشاي بالهيل بينما كنت أساوم أصحاب المحلات بضراوة من أجل الوصول إلى أسعار جيدة. لقد كنت أشعر باعتزاز كبير بمقتنياتي، وكنت أعرض أحدث مشترياتي متباهية، كلما سنحت الفرصة.

وفي تلك الفترة انضم إلينا موظف رابع. كان الوضع الأمني هشاً، وناقش مائس أنه يجب تعيين موظف جديد بناء على علاقات قوية. واعتقدت في البداية أن ذلك كان تمهيداً لكي يقوم مائس بتوظيف أخيه أو ابن عمه. إلا أنه أحضر صديق طفولته صلاح. وبعد أن رأيت السهولة التي اندمج فيها صلاح مع الفريق، استوعبت وجهة نظر مائس. لقد كانت الصداقة بين الأربعة شهادة حية لعراق متنوع ولكنه موحَّد، فقد كان فادي مسيحياً، ومائس شيعياً علمانياً، ويوسف شيعياً ملتزماً، وصلاح سنياً من محافظة الفلوجة الغربية. وكان هؤلاء الرجال الأربعة يمثلون الطوائف المختلفة في العراق، وقد عرَّفني كل واحد منهم بجانب مختلف من جوانب بغداد.

أدخلني صلاح إلى ممارسة شغفي الثانوي: المشي عبر أسواق شارع المتنبي. وفي صباح كل يوم جمعة كنت أنتشي بشأن المشاركة في واحدة من أقدم تقاليد بغداد: سوق الكتاب الذي يبلغ عمره ألف سنة. وينتشر الشارع الرئيسي إلى زقاق فرعية، تصطف فيها جميعها محلات بيع الكتب. وقد كنت مغرمة بالسير عبر جميع تلك الممرات، وإيجاد طريقي إلى داخل الشوارع الزاخرة بالبنايات التي يعود تاريخها إلى زمن العثمانيين. وقد أطلق عليه اسم شاعر مشهور من القرن العاشر، وكان شارع المتنبي واحداً من الأسباب الرئيسية التي جعلتني أناضل بضراوة من أجل العودة إلى العراق. لقد كان الشارع يُحقق المثل العربي القائل: «القاهرة تكتب. وبيروت تطبع. وبغداد تقرأ.»

كان هذا هو الجانب من بغداد الذي اخترت أن أراه. من ناحية أخرى، كان أفراد عائلتي وأصدقائي يقرؤون عن الجانب الآخر من بغداد.

الجانب الذي بقي معزولاً في الجزء الخلفي من ذهني. بغداد التي كانت غريبة عني.

وتقلصت دائرة أصدقائي من المغتربين بشكل كبير نتيجة للعديد من التفجيرات التي استهدفت المنظمات الدولية. وكانت البداية في 19 آب/ أغسطس من العام 2003، عندما أدى انفجار شاحنة ملغومة خارج مبنى الأمم المتحدة إلى مقتل أرفع مبعوث للأمم المتحدة في العراق، سيرجو فييرا دي ميلو. وقد أكد التفجير الكثير من الشكوك بشأن كون العراق غير آمن للمدنيين. وعلى الفور، تقريباً، قام العديد من الزملاء بالمغادرة. وكان لدي اجتماع مقرر في مبنى قناة الأمم المتحدة قبل خمسة عشر دقيقة من انفجار القنبلة. ولكنه تم تأخيري في اجتماع آخر في هيلزديل، وهو مخيم اكتشف مؤخراً ومعدٌّ خصيصاً لإيواء النازحين العراقيين من كافة أنحاء بغداد. وبعد ما يزيد عن الشهر، أعقب الهجوم تفجير آخر للصليب الأحمر الدولي. وتمت مهاجمة فندق الرشيد، الذي كان يعتبر واحداً من أكثر الأماكن أمناً في بغداد، بواسطة قذيفتي هاون.

وفي الواقع، جاءت قذيفة هاون وهي تطير مارة بنا في إحدى الأمسيات، وسقطت في المطعم المجاور لساسيبون بينما كنا ندخّن شيشتنا. وقام يوسف بسرعة بسحبي إلى الأرض وانبطحنا أرضاً ووجوهنا نحو الأسفل بينما كانت قذيفة هاون أخرى تصفر على مقربة منا. وعندما قرر يوسف أن كل شيء قد انتهى، عدنا إلى شيشتنا. ولم يكن من الممكن زعزعة أغنية أم كلثوم الطويلة بتلك السهولة.

* * *

كنت أستمع إلى نقاش خمسة من الجنود الأميركيين بشأن أي من ولاياتهم كانت تتمتع بالشاطئ الأفضل عندما دخل منذر، وهو ضابط شرطة عراقي، إلى الغرفة. في رأيي أن كيتي هوك لا يعرف أي شيء عن شاطئ ميرتل بيتش، ولكن منذر قاطع أفكاري وسلمني بعضاً من التمر. لقد حان موعد إنهاء صيامي.

كان ذلك في منتصف شهر رمضان المبارك، ولكن بدلاً من أن أكون في المنزل، كنت عالقة في مخفر شرطة مع جماهير غاضبة من عائلة كلثوم تنتظر في الخارج. حدقت بشرود في التمر، مدركة أنه إن كان وقت إنهاء الصيام قد حان، فلا بد أن تكون الشمس قد غربت. وسيكون منع التجول المفروض من قِبل قوات التحالف في كافة أنحاء المدينة ساري المفعول بعد أقل من ساعة، وسوف أبقى عالقة في مخفر الشرطة.

قلت لمنذر: «جزاك الله خيراً،» وقبلت زجاجة من الماء من أحد أفراد الشرطة العسكرية. وبينما كنت آكل حبات التمر، تفحصت الغرفة لرؤية ما إذا كان هناك مكان لإقامة صلاتي. وبدا أن هناك شيء خاطئ، بشكل جوهري، بشأن الانحناء والسجود في الغرفة، ولكن جميع الغرف الأخرى في المخفر كانت مليئة بالجنود أو برجال الشرطة العراقيين. والغرفة الوحيدة الأقل اكتظاظاً هي المطبخ، المكان الذي التقيت فيه بكلثوم للمرة الأولى.

وكانت كلثوم تغط في نوم عميق على الأريكة المجاورة للمكان الذي كنت أجلس فيه. وكانت الساعات القليلة السابقة قد أكدت قصتها في أنه تم توريطها في المخدرات؛ وكان واضحاً من التقيؤ والتعرق والرجفة أنها كانت تمر بمرحلة الانقطاع، أو ربما أنه من الممكن أن تعزى تلك الأعراض إلى حملها. وعلى مدى الساعات القليلة الماضية، نجحت في دخول حالتي

الخاصة من نكران الذات. وكنت أعلم أنه لم يكن هناك طريقة للخروج من مخفر الشرطة، وإن كنت سأولي انتباهاً مناسباً لظروفي، فلربما أنني سأدخل في نوبة ذعر شاملة.

كان يوسف ومائس جالسين في مقهى يبعد بناية واحدة، ينتظراني بصبر حتى أتصل بهم وأقول إن الشاطئ كان خالياً. وأدركت أنه، نظراً لحظر التجول، لن يكون بإمكانهما أن ينتظرا لوقت أطول بكثير. وأدركت، أيضاً، أنني لن أقوم بأي حال من الأحوال بقضاء الليلة في مخفر الشرطة. وكنت أتفاخر في رسائلي الإلكترونية ومكالماتي الهاتفية بأنني قد استطعت البقاء لمدة أربعة أشهر في العراق بدون الإقدام على أي مخاطرات جسيمة. ولكن وقت الإقدام على المخاطرة قد حان.

وقلت موجهة كلامي إلى توم، وهو رجل الشرطة العسكرية الذي حياني فور وصولي، «يجب علي أن أذهب أيها الرجال.»

«عذراً سيدتي، لا يمكن القيام بذلك. ليس خياراً مع كل أولئك الرجال العراقيين الواقفين هناك في الخارج. والخيار الأفضل الذي لديك هو أن تأملي أن يكونوا قد ذهبوا في الصباح.»

التفت إلى منذر، ففي جميع الثقافات العربية يكون من غير المقبول للمرأة قضاء ليلة في هذه البيئة. فإذا انتشر الخبر في أنني مكثت ليلة في مخفر الشرطة - إضافة إلى وجود الشرطة العسكرية الأميركية - فسوف تتبخر مصداقيتي في الأحياء المجاورة. وكنت واثقة من أن منذر كان سيفهم تماماً المخاطر التي أتعرض لها.

وقال، «الخيار الآخر هو أن تنتظري إلى ما بعد حظر التجول. فلن يخاطر هؤلاء الرجال بالبقاء إلى ما بعد حظر التجول. وحال مغادرتهم، يمكنك أن تتوجهي إلى المنزل.»

لم أنتظر حتى يقوم رجل الشرطة العسكرية توم بالرد، بل قمت على الفور بالاتصال مع يوسف ومائس لمعرفة ما إذا كانا يرغبان في انتظاري، إذ كنت أعلم أنهما هما من سيتعرضان للمخاطر الحقيقية. وقد كثرت القصص في بغداد عن أولئك الذين خالفوا حظر التجول، فقد سمعت عن آباء في حالة يأس كانوا يقودون السيارة بزوجاتهم الحوامل نحو مستشفى في منتصف الليل وتعرضت سياراتهم للتمزيق بوابل من الطلقات أثناء ذلك. على الأرجح أنه سيتم إيقافنا من قبل نقاط تفتيش عسكرية. وكان من غير الممكن التنبؤ بتصرفات نقاط التفتيش، ففي بعض الأحيان قد يقوم الجنود بعد حظر التجول بالتلويح لك لكي تتوقف. وفي بعض الأحيان يأخذون جميع ركاب السيارة من أجل التحقيق. وفي كثير من الأحيان، كان أولئك الذين يتم أخذهم من قبل السلطات يختفون تماماً.

وعلى الرغم من احتجاجات توم وأفراد آخرين من الشرطة العسكرية الأميركية، وعَدَ منذر بمرافقتي إلى الخارج حالما تغادر العائلة، وقمت بتوديع كلثوم التي كانت شبه مستيقظة. وهز منذر رأسه باستنكار عندما وعدتها أن أعود في اليوم التالي.

تمكنت من التوسط في تحقيق سلام بين توم ومنذر من خلال وعدي بالمتابعة مع كلثوم في اليوم التالي، ولكنني كنت أعلم أن ذلك لن يدوم طويلاً، فبقاء كلثوم لفترة طويلة في حماية أفراد الشرطة العسكرية كان حلاً على المدى القصير فقط، وكان من الضروري أن أجد لها مكاناً آمناً.

قام منذر بتسليمي إلى يوسف ومائس، وقدنا السيارة نحو المنزل في صمت، متمتمين بصلوات في ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك. وعادة ما تنتهي القيادة في وقت متأخر من الليل في بغداد إلى واحد من أمرين على

طرفي نقيض. وفي حالتنا، كنا ممتنين من أن رحلتنا انتهت نهاية عادية بسيطة.

* * *

استيقظت قبل صلاة الفجر من أجل السحور[1] ولم أستطع النوم بعدها، واضطررت إلى الانتظار لساعات قليلة أخرى للاتصال مع مائس ويوسف، ومن ثم ناشدتهما أن يحضرا إلى منزلي في أسرع وقت ممكن. وعندما وصلا بعد ثلاثين دقيقة، لم يتمكن مائس من إخفاء شعوره بالإحباط لأنني اتصلت به مرة أخرى من أجل معالجة حالة كلثوم.

«إنها السابعة صباحاً. وفي رمضان. حتى الجنود الأميركيين لا يزعجون مترجميهم بهذه الطريقة!»

لم أستطع أن أفعل أي شيء أكثر من غمغمة اعتذار غير واضح. كنت أتوقع الكثير منهما. وإضافة إلى جميع ساعات العمل الإضافية، كانا يخاطران مخاطرة كبيرة جراء كونهما على صلة بكلثوم، وهي مومس.

وتدخل يوسف قائلاً: « أنت بحاجة للراحة. وإذا استمريت في العمل بهذه الوتيرة فسوف تنهارين.»

تأثرت بقلقه الواضح. إلا أن الوقت كان ضدي، وكنت أدرك أن لدي العديد من الزيارات الأخرى التي يجب أن أقوم بها قبل حتى أن أكون قادرة على البدء في التفكير بحل لكلثوم. وكان المحطة الأولى في مركز

(1) وجبة صباحية في وقت مبكر قبل بدء الصيام اليومي خلال رمضان.

المؤتمرات، وكنت قد كونت صداقة مع عاملة إغاثة تشيكية تم تعيينها من حكومة بلدها من أجل المساعدة في توثيق انتهاكات حقوق الإنسان في ظل نظام صدام. وكانت إيفانا واحدة من بين عدد قليل في سلطة الائتلاف المؤقتة ممن لديهم خبرة في العمل في مجتمع مدني. وعلى الرغم من أن هناك القليل مما يمكن أن تفعله ضمن سلطة الائتلاف المؤقتة، كنت أعرف أنها سوف تقوم على الأقل بتوجيهي نحو الوجهة الصحيحة. وكنت أعلم أيضاً أنها في الساعة الثامنة صباحاً سوف تكون مستيقظة تماماً وتقوم باحتساء فنجانها القهوة رقم ثلاثة، بعد أن قامت فعلياً بتدخين نصف علبة من سجائر المارلبورو.

وعبرت بسرعة العديد من نقاط التفتيش إلى داخل مركز المؤتمرات ونحو مكتب العدالة الانتقالي حيث كانت تعمل إيفانا. وكما هو متوقع، كانت تجلس في ضباب من دخان السجائر، وتنفخ بعيداً وهي تهز رأسها بعنف جيئة وذهاباً نحو المساعد الأميركي المعين لها، والذي تجاوز سن العشرين بقليل. وعندما رأتني أحوم عند الباب، أشارت لي بالدخول، وفي الوقت نفسه أشارت لمساعدها بالخروج.

كان الجزء الأفضل بشأن إيفانا هو أنه لم يكن عليَّ أن أهدر وقتاً في المحادثة المهذبة. لم أكن قد رأيتها منذ أسبوعين، ولكنني كنت أعرف أنني أستطيع أن أقفز إلى العمل في المهمة التي بين يدي بدون أن أجعلها تشعر بالإهانة. نصحتني إيفانا أن أقوم بالتحدث مع وزارة العمل والشؤون الاجتماعية. فحقيقة أن كلثوم كانت دون سن الثامنة عشرة تجعلها ضمن اختصاصها. ومن الناحية القانونية، كانت الوزارة مُلزمة بتوفير مكان في أحد دور الأيتام العامة. وشرحت إيفانا أن ذلك سيكون الحل الأفضل على

المدى البعيد لأن دور الأيتام كانت راسخة وتوفر تعليماً على مستوى المدارس الثانوية مع وجود إمكانية الذهاب إلى الجامعة. وفي الوقت نفسه، يحظى الأيتام في المجتمع العراقي والمسلم بمكانة خاصة، فكثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي محمد ﷺ دعت إلى احترام ورعاية وإعالة الأيتام، وكان هذا سيساعد على مكافحة أي وصمة عار سابقة ربما تكون قد التصقت بها، وتؤدي إلى توفير فرصة لها لتبدأ حياة جديدة. وعلى الرغم من ذلك، نبهتني إيفانا إلى أن هذا الخيار قد لا ينجح، وأن علي أن أستكشف خيار وحدة الشؤون المدنية في الجيش الأميركي، أيضاً، في الوقت ذاته الذي أقوم فيه بطلب العون من الوزارة العراقية.

خرجت من مكتبها ومعنوياتي عالية. لقد كان حلاً مثالياً. وعدت إلى السيارة ووجدت أن مائس ويوسف قد قاما بإمالة الكراسي الأمامية واستغرقا في النوم. نقرت على النافذة وحاولت أن أعطي ابتسامة امتنان. وبينما كنت أصعد إلى الكرسي الخلفي، شرحت الخطة لهما. ضحك أحدهما وأصدر الآخر صوتاً كالشخير. ولم يبدُ عليهما أقل قدر من الإعجاب.

قال يوسف وهو يقهقه: «سوف أقطع يدي اليمنى إن لم يُلقِ بك الوزير إلى الخارج.»

وقال مائس بصوت يشبه الشخير: «سوف أقطع شيئاً أكثر أهمية بكثير إذا وافق الوزير حتى على لقائك.»

اتكأت إلى الخلف، وأنا مجروحة الشعور قليلاً، وقلت بطريقة دفاعية للغاية: «لن نتضرر من المحاولة.» وكنت لا أزال أعتقد أنها كانت فكرة جيدة. وأضفت: «إضافة إلى أن إيفانا رتبت فعلاً لقاءاً مع نائب الوزير.»

وقررت أن أتجاهل نظرات التشكك التي قام كل منهما بإلقائها على الآخر، واسترحت في المقعد الخلفي لتحضير حججي من أجل الوزير. وكنت أعلم أنه لم يكن بإمكاني أن أكذب بشأن خلفية كلثوم، ولكن كانت لديها حكاية مقنعة، وحقيقة أنها كانت مجبرة على الزواج في سن مبكرة جداً، يعزز من وضعها كضحية. إضافة إلى أن عمرها كان ستة عشر عاماً فقط. ولا بد أن يشعر نائب الوزير بالشفقة على حالتها.

وبعد ساعة من ذلك، كان واضحاً أن ذلك لن يحدث. وكان من الواضح أن نائب الوزير قد شعر بالإهانة بأنه كانت لدي الجرأة على لفت انتباهه إلى مثل هذه الحالة. حاولت بكل وسيلة ممكنة أن أبين له أن كلثوم لم تكن قضية خاسرة، وأنه يجب ألا يتسرع بإلقائها إلى الذئاب. إلا أنه كان ثابتاً في قراره، ورفض كل حجة تقدمت بها. وعندما حاولت أن أشير إلى أنها كانت قاصراً، رد بأنها كانت امرأة متزوجة، الأمر الذي من شأنه أن يضعها في فئة البالغين. ودور الأيتام كانت للأطفال فقط. وحاولت أن أناقش أنها أجبِرت على الزواج في سن الثالثة عشر، وهو أمر غير شرعي وفقاً للقانون العراقي. هز رأسه، موضحاً أن ذلك كان أمراً معتاداً خلال سنوات عقوبات الأمم المتحدة.

وسأل: «وإلا كيف كان من الممكن للآباء أن يجعلوا بناتهم في وضع آمن؟»

بعد ستين دقيقة من النقاش معه، استسلمت، وحاولت نهجاً مختلفاً. قبل وقت طويل كنت قد تعلمت أن استراتيجية امرأة في ورطة تؤدي في كثير من الأحيان إلى نتائج سريعة وصريحة.

«سيدي، أنا في حيرة من أمري ولا يمكنني التفكير في أي شيء آخر أستطيع القيام به. وكل ما أعرفه هو أنه لدي مشكلة. هل يمكنك أن تساعدني في الحل؟»

انحنى نائب الوزير إلى الأمام. وهز رأسه ثم ارتد إلى الخلف في كرسيه. «هل تريدين حقاً أن تعرفي ما هو الحل؟»

أومأت برأسي.

قال «اتركي العملية الطبيعية تأخذ مجراها. والدها هو الشخص الذي عليه أن يقرر ما الذي سيجري لها. ولو كانت ابنتي، كنت سأريد الشيء ذاته.»

«ولكننا نعلم كلانا أن والدها سوف يقتلها.»

«المشكلة معكم أنتم الأميركيون هو أنكم تطرحون الأسئلة ولكنكم لا تريدون أن تصغوا إلى الأجوبة. مرة أخرى، لو كانت ابنتي، كنت سأريد الشيء ذاته.»

ولم يكن بإمكاني أن أتقبل رده، ولكن جميع مكالماتي مع منظمات النساء العراقيات انتهى بها الأمر إلى طريق مسدود، فقد كان رأيهم جميعاً أن كلثوم كانت حالة متطرفة للغاية، ولا يمكننا أن نساعدها بدون جعل أنفسنا عرضة لهجمات نفسية وبدنية.

لم أفاجأ بهذه الإجابات.

* * *

كنت قبل ذلك بشهرين قد التقيت بأختين، تبلغ أعمارهما أربعة عشر عاماً وستة عشر عاماً، تم اختطافهما واغتصابهما من قِبل عصابة محلية. وكانت الفتاتان تعرفان مهاجميهما، واعتبرت الشرطة العراقية التي تجري التحقيق أن ذلك يعني أنهما كانتا متواطئتين. وكانت الفتاتان من حي فقير في جنوب بغداد. وقبل سقوط النظام، تقدم أحد الجيران طالباً يد الابنة ذات الستة عشر عاماً للزواج. وقد رفضت الأم، على أمل أن تتمكن ابنتها من إتمام تعليمها في المدرسة الثانوية.

وبعد وقت قصير من غزو العراق، قام الصبي بجمع بعض أصدقائه البلطجية واقتحموا شقة المرأة، وجرَّ كِلتا الأختين من شعرهما إلى الخارج وأخذهما إلى مكان خاص. وقام الصبي باغتصاب الفتاة البالغة السادسة عشرة من العمر، ولكنه جادل في «عدم مس» ابنة الرابعة عشر بحيث يكون بإمكانهم بيعها بسعر أعلى. ووفقاً لابنة السادسة عشرة، أدى ذلك إلى شجار عنيف بين البلطجيين نجم عنه إطلاق النار على بعضهما البعض. وانتهزت الفرصة لتهرب، ولكنها اضطرت إلى ترك أختها. وبعد ثلاثة أيام تم إنزال ابنة الرابعة عشرة من سيارة أمام بنايتهم. وقد تم اغتصابها وكانت بحاجة إلى رعاية طبية. وحذر أفراد العصابة من أنهم سوف يعودون لقتلهم إن حاول أي شخص أن يحولهم إلى السلطات.

وما لم تعرفه العصابة هو أن السلطات لم تكن مهتمة. وأصرّت الشرطة المحلية على أن الفتاتين كانتا على صلة مع العصابة، ورفضت تقديم أي مساعدة. ولم يكن لدى أم الفتاتين إمكانية الانتقال من شقتهم، وعاش الثلاثة في رعب من عودة العصابة. وليس فقط كان إيجاد ملاذ آمن للفتاتين أمراً صعباً، بل تبين أن حتى فحصهما من قِبل طبيب نسائية كان أمراً

مستحيلاً. ففي معظم الحالات في العراق، كان ضباط الطب الشرعي يجرون فحص ضحايا الاغتصاب، وذلك لأن أطباء النسائية كانوا يخشون ردود الفعل من قِبل العائلة إن قاموا بتأكيد أن الفتاة تعرضت للاغتصاب. وفي بعض الحالات، كان الآباء أو الإخوة الغاضبون يقومون بقتل طبيب النسائية بعد سماع الأخبار.

وقد أمضيت أياماً وأنا أتحدث مع منظمات نسائية شرحت لي أن مشكلة الأختين كانت متفجرة إلى درجة لا تسمح بمعالجتها. وناقشت رأيها في أن قبول ضحايا الاغتصاب سوف يجعل المنظمات عرضة للخطر في مجتمعاتها، وأي امرأة ترتبط مع المنظمة سوف توصم بسمعة سيئة.

كانت هناك منظمة واحدة في بغداد، في ذلك الوقت، مستعدة لتحمل المخاطرة. وقد تم تأسيس منظمة حرية المرأة في العراق من قِبل ينار محمد، وهي ناشطة كندية عراقية. وتلقت ينار نفسها الكثير من التهديدات بالقتل بسبب آرائها الليبرالية منذ عودتها إلى العراق في العام 2003. وقد قمت بزيارة مكتبها خلال أسابيعي الأولى في العراق من أجل تحديد الحماية التي تقدمها للنساء اللواتي كن في حاجة إليها. وفي الواقع أنها كانت المرأة الوحيدة التي قامت ببناء ملجأ تحت الأرض معقد وآمن إلى حد كبير من أجل حالات مثل تلك الخاصة بالأختين اللتين تعرضتا للاغتصاب.

حاولت أن أعرض على الأختين خيار الذهاب إلى ينار من أجل المساعدة، ولكنهما رفضتا، فقد كان يُنظر إلى ينار على أنها شخصية مثيرة للجدل، رُسمت لها صورة داخل المجتمع العراقي، من قِبل النساء والرجال على حد سواء، كنسوية يسارية تكره الإسلام. وخشيت الأم وابنتاها أن ارتباطهم مع منظمة حرية المرأة في العراق سوف يؤدي إلى

عزلهم عن المجتمع العراقي. وبدلاً من ذلك، اختارت الأم أن تتقبل المخاطر وتبقى في شقتها الصغيرة. وكانت خطتها أن تبقى هادئة لفترة كافية وأن تتضرع أن تنسى العصابة الأمر بشأن الحادث.

وبطريقة ما تمكنت بصعوبة من إقناعها أن تسمح لابنتها ذات الستة عشر عاماً بالالتحاق في برنامج «نساء من أجل نساء». وفي اليوم الأول، ومن خلال الدموع، قامت بمشاركة قصة اغتصابها مع النساء في دائرتها. وتم إنشاء حيز آمن حيث كان من الممكن المشاركة بصدمتها النفسية. ومعظم النساء كن أكبر منها وقمن على الفور باتخاذ أدوار حماية، فقمن بتوفير دعم عاطفي لها في الأشهر الثلاث التالية. وبعد ذلك توقفت عن الحضور. وقمت بزيارة منزلها في مناسبتين بعدها، ولكن أمها بينت، بشكل واضح جداً، أنها لم تكن تريد أن تستمر ابنتها في البرنامج. وقد اشتبهت إحدى المدربات أنهم تلقوا تهديداً بالقتل. وفي المرة الثانية التي ذهبنا بها للزيارة، كانت الأم والفتاتان قد أخلين الشقة.

* * *

أدركْتُ منذ اللحظة التي رأيت فيها كلثوم في مخفر الشرطة أن مساعدتها لن تكون أمراً هيناً. وإذا كانت مساعدة فتاتين مراهقتين تعرضتا للاختطاف والاغتصاب بتلك الدرجة من الصعوبة، فقد كان بإمكاني أن أتصور كيف سيكون عليه حال مساعدة مراهقة متزوجة حامل ومومس.

كنت أعرف أن علي أن أمارس ضغوطاً على نائب الوزير حتى يقوم بتقديم خيار متهاسك. وفي نهاية المطاف، استخدمت ورقة طائشة كانت

إيفانا قد تحدثت معي بشأنها، فقد كان هناك العديد من الوكالات الدولية، مثل الوكالة الأميركية للتنمية الدولية والبنك الدولي، التي كانت مستعدة لتقديم منح كبيرة لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية من أجل مساعدة الجماعات المهمشة. وأشرت إلى أن عدم تعاون الوزارة يمكن أن يشكل عائقاً أمام تلقي الوزارة للمنح في حال انتشار خبر أن الوزارة ترفض مساعدة الأشخاص الأكثر تعرضاً للخطر في بغداد.

ورد نائب الوزير بحل وسط. فقد حدد موعداً مع مديرة أحد دور الأيتام. وإذا كان بإمكاني أن أقنع مديرة دار الأيتام في قبول الفتاة، فإن الوزارة لن تعترض.

لقد كان أفضل حل وسط كان بإمكاني الحصول عليه، وكان علي أن أقاوم دموع الغضب أثناء عودتي إلى السيارة، فقد أغضبني رد نائب الوزير بقدر ما أغضبتني غطرسته في قيامه بإصدار حكم بتلك السرعة على فتاة في السادسة عشرة من العمر.

ومن حسن الطالع أن المديرة في دار أيتام الفتيات كانت متعاطفة أكثر من نائب الوزير. وعلى الرغم من ذلك، كان رد أسمى مماثلاً، ولم يكن بإمكانها أن تقبل كلثوم في دار الأيتام. وبينت بصراحة أن مقدمي التبرعات لدار الأيتام سوف ينزعجون إن علموا أن كلثوم لم تكن عذراء. وسوف يُنظَر إلى وجودها في دار الأيتام على أنه محاولة لإفساد الفتيات الأصغر سناً، وبين عشية وضحاها، سوف يتم اعتبار كل فتاة في دار الأيتام عاهرة. وبينت أسمى أنها رأت الكثير من الحالات المشابهة لحالة كلثوم، وكانت تشعر بالحزن العميق لعدم مقدرتها على تقديم حل حقيقي. وكانت تعتقد أن ذلك لم يكن يخذل الأفراد فقط، بل الأسر، أيضاً. وفي معظم الحالات،

قد يتخلى الآباء عن المسؤولية للدولة. ولكن نظراً لعدم وجود مكان لوضعهم فيه، فغالباً ما يكون عليهم تحمل المسؤولية والعار هم أنفسهم. ويكون الحل في أغلب الأحيان هو قتل الشرف.

وصرحت أسمى أنها، حتى بدون مقابلة كلثوم، كانت متأكدة من أن الفتاة لن تحتفظ بماضيها سراً. وفي الواقع أنها سوف تتباهى في البداية. ولم أناقش، فقد كنت أعلم أنها على حق. ورافقتني أسمى إلى المدخل الرئيسي أثناء خروجي، وكررت شعورها بالتعاطف تجاه كلثوم، ولكن لم يكن بإمكانها أن تعرِّض سمعة الثلاثمائة فتاة اللواتي كن في رعايتها للخطر.

وسألتها قبل أن أغادر، «إذا كنت تعرفين أن هناك ضرورة، لماذا لا تكافحين من أجل إيجاد شيء من أجل هؤلاء الفتيات؟»

قالت اسمى، «منال، أنت بحاجة لأن تفهمي أننا تعبنا من الكفاح، فذلك هو كل ما كنت أفعله، وذلك هو كل ما فعلته أمي. لا نريد أن نكافح بعد الآن. وذلك لا يعني أننا استسلمنا. بل على العكس، ذلك يعني فقط أننا نريد أن نجد طريقة أكثر هدوءاً لنعيش حياة تشبه الحياة الطبيعية.»

* * *

جلسْتُ في المقعد الخلفي في السيارة. وكان الوقت الآن ظهراً، تقريباً. وكنت في حالة غيبوبة، تقريباً، بسبب عدم الأكل والشرب. إلا أنني كنت بعيدة كل البعد عن الاستسلام. كان الوقت يمر، ومع نهاية المساء، كان يجب علي أن أعود إلى الشرطة العسكرية الأميركية والشرطة العراقية في مخفر كرادة وأنا أعرف أن لدي مكاناً أنقل إليه كلثوم.

وسأل يوسف: «لماذا تكون هذه مشكلتك؟ أنا لا أرى أي شخص آخر في هذا البلد يهرول من مكان لآخر كما تفعلين. لقد حاولت. رجاءً، هل يمكنك أن تكتفي بما فعلت اليوم وتعودي للمنزل؟»

كان هناك جزءاً مني يريد أن ينحني ويصفعه. لقد كان ذلك الجزء الذي يعرف أنه كان مُحقاً. إلا أنني لم أستنفد كل الوسائل بعد. كنت أعرف الحل لمشكلة كلثوم: زودتني مديرة دار الأيتام للفتيات بحل آخر. وكان حلاً لم أكن سعيدة جداً به، إلا انه كان حلاً ممكناً على الرغم من ذلك. وشرحت أسمى أنه في التسلسل الهرمي لدوُر الأيتام (نعم، حتى دور الأيتام لديها فيما يبدو تسلسلاً هرمياً موحداً)، كانت دور الأيتام الدنيا هي دار أيتام من ذوي الاحتياجات الخاصة. واقترحَتْ أن أفضل ما يمكن أن أفعله هو أخذ كلثوم إلى هناك. وكانت تعرف المدير. وعلى الرغم من أنه كان في إجازة لمدة غير محددة، إلا أنه كان لا يزال هو صاحب القرار. وقامت أسمى بالاتصال به وبإجراء الترتيبات اللازمة. وكل ما كان علي القيام به هو توصيل الخبر.

«يوسف، لست مرتاحة إلى الحل الذي منحتني إياه. يبدو كما لو كان تهرباً.»

قال، «ولكنك حاولت كل شيء. وجميعهم يجب أن يكونوا ممتنين لأنك تمكنت حتى من الوصول إلى شيء ما. أعرف أنني مندهش تماماً. قد لا يكون الحل الأفضل، ولكنه حل.»

كنت أعرف أنه على حق، لذلك طلبت من مائس أن يتجه نحو مخفر الشرطة. وعندما اقتربنا أكثر، قام يوسف بتسليمي حقيبة. وأعطاني تعليمات، «ارتدي هذه».

كان في الحقيبة عباءة وحذاء أسود مسطح. كما كان فيها مرآة صغيرة وطقم مستحضرات تجميل مع مستحضر تجميل يعطي اللون البرونزي وفرشاة. ابتسم يوسف وطلب مني أن أعطي نفسي لوناً برونزياً بحيث لا أكون بارزة للعيان بتلك السهولة. كما أشار إلى حذائي الرياضيَ إم بي تي وقال إنه كان علامة تقول بوضوح إن صاحبته امرأة أميركية. واقترح أن أرتدي الحذاء المنبسط. ابتسمت ليوسف، مسرورة بعدة التمويه التي جمعها من أجلي.

عندما دخلت إلى مخفر الشرطة، بدا أن منذر كان الأكثر سروراً عندما رآني. وكان توم، رجل الشرطة العسكرية، في المرتبة الثانية. وهرع الاثنان نحوي وسألا السؤال ذاته بلغتين مختلفتين: ما الذي سوف نفعله مع كلثوم؟ وشرحت حل أسمى. وبدا توم ومنذر على حد سواء متشككين، ولكنهما هزا كتفيهما. وربما أنهما توصلا إلى النتيجة ذاتها التي توصلت إليها: ليس هناك حل حقيقي.

وكما هو الحال دائماً، قام يوسف بالتخطيط مسبقاً وقدم عدة تمويه لكلثوم أيضاً. قمنا هي وأنا، ونحن مرتديات عباءتينا، بالتسلل من الباب الخلفي لمخفر الشرطة وتوجهنا نحو سيارة يوسف. وقبل أن أغادر، عبرت عن امتناني لمنذر وتوم. كنت أعرف أن كليهما قد تحمل مخاطر شخصية ومهنية من خلال السماح لكلثوم أن تمكث في مخفر الشرطة في الليل.

وقلت لهما،»أريد فقط أن تعرفا أنه ربما أنكما قد قمتما أنتما الاثنان بإنقاذ حياتها.»

أومأ منذر. وابتسم توم ولمس ذراعي بلطف، وقال، «أريد أن تعرفي أنك قد أعطيتني للتو جوابي عندما يسألني أحفادي ما الذي كنت تفعله في العراق.»

وابتسمت لرجليّ الشرطة، مسرورة للتحالفات الجديدة التي كونتها للتو. ومن المؤكد أنني لم أكن أفكر في المستقبل في تلك اللحظة، ولكن اتضح أن هذه التحالفات سوف تكون مفيدة.

كانت دار الأيتام لذوي الاحتياجات الخاصة كارثة. فقد كانت دار الأيتام بأكملها في فوضى، وكان الأطفال ممدين ببولهم على أسرة غير مرتبة، وكان هناك، على الأقل، ثلاثين سريراً في كل غرفة، وكانت هناك ثلاثة كراسٍ متحركة، على الرغم من أن معظم الأطفال كانوا بحاجة إلى كراسٍ متحركة للتنقل. والأسوأ من ذلك أن القائمين على الرعاية كانوا بغيضين وفظين وكانوا يحدقون بي وبكلثوم ببلاهة بكل وضوح، عباءات سوداء وكل ما يرتبط بها. ولم أحتمل أن أتركها، إلا أنني كنت أعرف أنه لم يكن لدي خيار آخر.

التفتّ نحو يوسف من أجل المشورة، حيث أنه كان الشخص الوحيد الذي كان مستعداً للدخول إلى المكان معي. فقد تخلى مائس عن أي أمل في مساعدتي على التفكير بشكل منطقي. وعلى الرغم من أنه رافقني في الكثير من التنقلات، إلى أنه كان يرفض الخروج من السيارة.

هز يوسف كتفيه وغمغم في أن الأمر عائد لي. وكان كل جزء من جسدي يلح علي بألا أترك كلثوم. إلا أنني كنت أعلم أنني جعلت مائس ويوسف يتحملان ما يكفي. وكانت هناك ساعات قليلة فقط قبل الغروب، ولم يكن بإمكاني أن أتحمل فكرة إنهاء الصيام في مخفر شرطة مرة أخرى، أو أسوأ من ذلك، في الشارع. لقد كانا يستحقان أن ينهيا صيامهما في المنزل، وأنا كنت أستحق أن أنهي صيامي في المنزل.

قلت، «لنذهب». وقمت بعناق كلثوم وهي صامتة دامعة، وقلت لها إنني سوف أعود في صباح اليوم التالي للاطمئنان عليها.

بعد خمسة دقائق من الابتعاد في السيارة بدأت أبكي. ربما كان الإرهاق أو الجوع أو شمس الصيف القاسية. شعرت بأنني مهزومة تماماً. أوقف يوسف السيارة إلى جانب الطريق، والتفت مائس لينظر إلي بمزيج من التعاطف والقلق.

وقلت من خلال دموعي، «لا يمكننا تركها. إنه أمر خاطئ تماماً.»

صفع مائس جبهته بيده. وغمغم «كنت أعرف أن هذا الأمر لن ينتهي.»

لم يقل يوسف أي شيء. التف بالسيارة وعاد متجهاً نحو دار الأيتام. وهناك أمرني أن أبقى داخل السيارة، وبعد عشر دقائق عاد ومعه كلثوم ممتنة. دخلت السيارة وعانقتني ثم حاولت أن تقبل يد يوسف ويدي للتعبير عن امتنانها. ولم أستطع التوقف عن البكاء، خصوصاً أنني أدركت أنني كنت على وشك أن أتركها هناك لتتعرض للاغتصاب أو لما هو اسوأ.

وكان هذا الكابوس يزداد سوءاً. فلم يكن هناك مكان لأخذها، وعلى الرغم من أن يوسف ومائس كانا يرغبان بمساعدتي، فقد رفض كلاهما أن تبقى كلثوم معي. وكنت أعرف أن ذلك كان مستحيلاً. فلم أعد أقيم في فندق، وإحضار كلثوم إلى المنزل كان سيعرض للخطر كل عملي مع منظمة «نساء من أجل نساء» الدولية. ونظراً لعدم معرفتنا لأي مكان آخر يمكننا الذهاب إليه، فقد اتجهنا نحو مركز المؤتمرات في المنطقة الخضراء. وكانت إيفانا قد سبق وقالت إنه ربما أن الجيش الأميركي هو خيار كلثوم الوحيد القابل للتطبيق.

ولم يكن لدي أي خطة واضحة، ولكنني لم أكن يائسة، وقبل ساعة كانت في ذهني خطة واضحة، ولكن تبين أنها كانت أسوأ فكرة حتى الآن. ومضيت في البحث عن الكابتن آن ميرفي. وكان إيريك، وهو صديق يعمل في الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، قد جعلني على اتصال مع آن. وقال إنها تجربة كيماوية. وشرح، «أقوم بتعريف المادة الكيميائية س إلى المادة الكيميائية ص وأترك الكيمياء تقوم بعملها». كنا آن وأنا نتشارك في شغفنا بقضايا المرأة، ولم تكن أي واحدة منا تعرف كيف تقول كلمة لا أو لا أستطيع. واعتقد إيريك أننا سنشكل ثنائياً ديناميكياً في بغداد. وبينما كنت ألقي نظرة سريعة على كلثوم الممتنة، لم أستطع التفكير في حالة أفضل لوضع نظريته على المحك.

لقد كان اللجوء إلى الجيش الأميركي لمساعدة كلثوم أمراً صعباً بالنسبة لي، إلا أنني كنت في وضع صعب ولدي القليل من المساحة للمناورة. وكنت بحاجة إلى شراء الوقت.

وباستجابتها السريعة ذات التوجه العملي، لم تنشغل آن بالتفاصيل. فقد فهمت أن هناك امرأة شابة كانت بحاجة إلى مكان لتمكث فيه، وشرعت بالعمل لترى أين يمكنها أن تضعها. وفي غضون ساعة من وصولنا إلى مركز المؤتمرات، كانت آن قد أقنعت أنثى برتبة سيرجنت، كان قد تم تعيين مقطورة لها، بأخذ كلثوم معها. سوف يكون حلاً مؤقتاً، ليس لأكثر من ثلاثة أيام، ولكن قد يمكّنني فقط من شراء الوقت الذي أحتاجه لمعرفة ما الذي يجب أن أفعله بعد ذلك.

* * *

أصر يوسف في تلك الليلة أن آتي إلى منزله لأتعرف على عائلته، وكانت حجته أنني كنت أفطر على وجبات سريعة طوال الأسبوع الفائت، وأنني أستحق الآن وجبة عراقية معدة في المنزل. ومع غروب الشمس، ومعدتي التي تهدر، لم أكن في وضع يسمح لي بمناقشته.

تباهى يوسف في حديثه لعائلته كيف أنني رفضت أن أستسلم بشأن كلثوم، الأمر الذي أسعدني في سريرتي. وقد تفاجأتُ، على الرغم من ذلك، من رؤيته يعتدُّ بعمله في مساعدة النساء. وكانت أمه تشهق «يا الله» عند وصفه لكل منعطف من أحداث اليوم، ومن ثم تلوح لي بإصبعها، وتأمرني أن لا أزجّ بابنها في أي مشاكل. كانت معلمة مدرسة، وكانت لها ابتسامة تصل إلى عينيها. وكان يبدو أن ابتسامتها تأتي من أعماق جسدها، وكان لديها إحساس بالشفقة والحنان. لقد أحببتها على الفور.

والتقيت أيضاً بشقيقة يوسف الكبرى، ميسون. في البداية، شعرت بعدم ارتياح من الطريقة التي كانت تنظر فيها إلي من الأعلى إلى الأسفل، كما لو كانت تقوم بفحص نفسي شامل. ولكن في غضون ساعة كنا ندردش كما لو كنا صديقات من المدرسة الثانوية، نقارن بين ما نحب وما لا نحب. وعندما أتى زوج ميسون، حسين، من أجل اصطحابها، شعرت بخيبة أمل لأنها سوف تذهب. ووافق حسين على البقاء لساعة أخرى، وانضم للعائلة في استعراض الخطوط العريضة لتاريخ حياتهم لي.

كان حسين رجلاً قليل الكلام، ولكنه ذو حضور بالغ الأهمية. وهو، في الأصل، من منطقة الكاظمية، وكان ينتمي لعائلة تجار ثرية، فقد كانت عائلته تمتلك أراضٍ في كافة أنحاء جنوب بغداد. وقد تأثرت بطبيعته المتواضعة. كان يصر على العمل في أرضه مباشرة، ويوجد لديه المئات من الموظفين، ولكنني كنت متأكدة، بسبب ظل الساعة الخامسة العميق

والأكياس تحت عينيه، أنه ليس هناك أحد منهم كان يعمل بالقدر ذاته من المشقة التي كان يعمل هو بها.

ولم تكن لدي أدنى فكرة عن أن ميسون وحسين سوف يصبحان صديقين عزيزين، ومن أنني سوف أصبح، بحكم الأمر الواقع، خالة لطفليهما.

وبعد وجبة مذهلة، قام يوسف بتوصيلي بالسيارة إلى المنزل. وركبنا السيارة في صمت، وسمحت لنفسي أن تغرق في أفكاري بشأن أحداث اليوم. وعلقت على العبارة التي استخدمتها أسمى، مديرة دار أيتام الفتيات. نحن متعبات. وخلال الأشهر الستة التي قضيتها في العراق، قابلت نساء من ظروف مختلفة، وكانت تجمعهن حقيقة أنهن كن يردن أن يتشاركن بقصصهن. وكانت هناك فكرة مشتركة في تلك القصص، فكرة تكررت تقريباً في جميع مقابلاتي مع النساء العراقيات في كافة أنحاء البلاد. لقد كانت تلك الكلمات التي جسرت الفجوة بين الغني والفقير، المتعلم وغير المتعلم، العرقيين والمتدينين: تعبنا ومللنا.

كانت هؤلاء النساء، في قلوبهن، يعتقدن أن ألمهن ومعاناتهن قد انتهيا أخيراً. وربما أنهن كن يعتقدن بذلك بقوة كبيرة إلى درجة أنني، ربما بواسطة عملية تناضح عقلية، أصبحت أنا نفسي أعتقد بذلك أيضاً. وقد رفضت أن أرى السيناريوهات الخطيرة وبقيت مركزة على المستوى الميكروي. وكانت استراتيجيتي تنطوي على إبقاء تركيزي منصبّاً على الأفراد الذين كانوا أمامي. وأقنعت نفس بأنني إذا تمكنت من مساعدة امرأة واحدة أو امرأتين أو حتى عشر نساء، عندئذ أكون قد قمت بدوري. وقد بقيت مركزة على الاحتفاظ بوجهة نظر متفائلة إلى درجة أنني ربما فقدت المنظور الأشمل.

8
مكان للأوهام

◖ عندما سمحت لنفسي أن أصبح متفائلة أكثر، لاحظت تحولاً في الموقف تجاهي من قِبل النساء العراقيات. وكان تشاؤمي يؤدي إلى إقامة حاجز بيني وبين النساء ذاتهن اللواتي كنت أحاول مساعدتهن. لقد كان لديهن ما يكفي من السلبية في حياتهن، وكن يتطلعن إلى شخص ما يشاركهن أحلامهن في مستقبل أفضل. وحالما انفتحت أنا نفسي لقصصهن، أدركْتُ رغبتهن في أن يعتبرن الأذى الهائل الذي تعرضن له جزءاً من الماضي.

أصبحت مقتنعة من أن النقاشات بشأن أسلحة الدمار الشامل، التي لم يتم العثور عليها، كانت أمراً غير ذي صلة. وبقيت الحقيقة هي أن الحرب قد حدثت، وأن الثمن في نهاية المطاف سيتم دفعه من قِبل النساء العراقيات. ورفضن أن يكن متفرجات سلبيات. وبصرف النظر عن الخلفية الاجتماعية الاقتصادية التي كانت النساء يأتين منها، كن جميعهن يكافحن من أجل البقاء ومن أجل إيجاد مستقبل أفضل. وكنت مصممة على القيام بكل ما أستطيع القيام به من أجل جعل حياتهن أفضل، بصرف النظر عن الثمن.

إلا أنني كنت هنا، بعد أشهر من وصولي إلى بغداد، أتعقب وأطارد نواب الوزراء ومدراء دور الأيتام، متوسطة بين أفراد الشرطة العسكرية

الأميركية ورقباء الشرطة العراقية، وما زلت أفشل في تقديم حلول حقيقية. كان الكلام المنمق عن مساعدة المرأة وفيراً، ولكن الأفعال الحقيقية كانت شحيحة. وأدركت أنني كنت متعلقة بالقيام بالعمل من خلال الوسائل الإنسانية. وكنت أبحث عن حلول محلية متناسية أنه لأكثر من ثلاثين عاماً تمت مقابلة جميع المبادرات المحلية بيد من حديد. وتم التصدي، من قِبل النظام البعثي، لأي جهود سابقة للتنظيم. وأي شخص كان يبدي أي قدر من القيادة في المجتمع كان يُقتل أو يصبح في عداد المفقودين أو يتم تركه عند الحدود الإيرانية.

كنت مترددة جداً في النظر إلى الجيش الأميركي كخيار مجدٍ إلى درجة أنني كنت مستعدة أن أعرِّض حياة فتاة مراهقة للخطر.

وقد أثبتت آن ميرفي أنها كانت امرأة أفعال، وقد ساعدتني بقليل من التردد. وقد سمعت عن امرِأة أفعال أخرى كانت تعمل مع سلطة الائتلاف المؤقتة في الحِلة، وكان اسمها فيرن هولاند، وقد التقيت بها أثناء زياراتي لكربلاء والحِلة، وهما محافظتان تقعان إلى الجنوب من بغداد.

لقد أثارت فيرن إعجابي. كانت واحدة من قلة من المدنيين الأميركيين الذين خصصوا وقتاً للالتقاء مع السلطات المحلية، والذين أمضوا ساعات لا تحصى وهم يستمعون إلى نساء. وتم توظيف فيرن في البداية من قِبل الوكالة الأميركية للتنمية الدولية من أجل تسيير برامجها في دعم الديمقراطية في الحكم. وبحلول كانون الثاني/ يناير من العام 2004، تم تعيينها من قِبل مكتب سلطة الائتلاف المؤقتة في الحِلة من أجل مواصلة برامجها مع جماعات المرأة. وقامت فيرن بإقناع سلطة الائتلاف المؤقتة على

توفير منحة بملايين الدولارات لفتح مراكز نسائية في المحافظات الجنوبية، وقد دعتني لحضور مؤتمر في الحِلة كان سيركز على وضع المرأة في العراق.

كان المؤتمر يسبب فعلياً مشاكل وإزعاجاً في جميع المنظمات النسائية، وكانت هناك اشاعات تقول أن كونداليزا رايس كانت تخطط للحضور. كانت الإشاعة تعتبر حافزاً كبيراً بالنسبة لمعظم الناس. وبالنسبة لي، كنت أشعر بالقلق من أن يتم ربط الحركات النسائية العراقية مع الاحتلال الأميركي. ومن الممكن أن يكون للصلة الوثيقة بين المؤتمر والجيش ردة فعل عكسية قوية. وحتى بينما كنت أشرح لفيرن أنني لن أحضر المؤتمر خشية أن يتم اعتباري مرتبطة مع الجيش، بدأت أشعر أن قناعتي بدأت تتبدد. وكانت الأحاديث التي يتم تداولها بين النساء العراقيات هي أنه كان لدى فيرن القدرة على إحداث تغييرات كبيرة، وكن متلهفات للوقوف إلى جانبها.

كنت أعرف أن الوقت قد حان لكي أقوم بتوسيع منطقة الارتياح الخاصة بي مرة أخرى، وكنت حريصة على تأجيل اللحظة المحتومة التي سيتعين عليّ فيها اللجوء إلى الجيش من أجل المساعدة. كانت تلك اللحظة قد جاءت مع كلثوم. وعلى الرغم من حسن نيتي، كنت عاجزة عن مساعدة كلثوم بالضبط كما عجزت عن مساعدة الشقيقتين اللتين تعرضتا للاختطاف والاغتصاب. وربما أن المكوِّن الناقص لإيجاد حلول عملية كان يتمثل في إيجاد المزيد من الأشخاص ذوي التوجه العملي الذين لديهم القدرة على اتخاذ القرارات. كنت بحاجة إلى توسيع دائرة حلفائي.، وعرفت عندئذ أنني كنت على استعداد لدفع حدودي الأمنية من أجل البقاء في العراق. لقد تخلى المجتمع الدولي عن الشعب العراقي لمرات كثيرة في السابق، ولم أكن قادرة على تحمل رؤية ذلك يتكرر مرة أخرى.

تعلّمت على مدى الأيام القليلة التالية، أن أتنقل داخل المنطقة الخضراء، فقد كان دخولي إليها في السابق من أجل أغراض محددة: زيارة الثلاجة أو حضور الاجتماعات النسائية التنسيقية والاجتماعات مع المسؤولين الحكوميين العراقيين. وأصبحت زياراتي الآن يومية.

بدأت بعد أسبوع من الاجتماعات المستمرة داخل المنطقة الخضراء أشير إليها بوصفها عالم ديزني. لقد كانت مكاناً للأوهام، فغالبية الذين يعيشون داخل المنطقة الخضراء لم ينتقلوا إلى خارجها إلا في مهمات وجيزة. وكانت هذه المهمات تشتمل على مرافقة عسكرية أو على حراس مسلحين. وأولئك الذين تجرؤوا على المغامرة بزيارات سريعة خارج المنطقة الخضراء، كان يتم توقيرهم بوصفهم خبراء في شؤون البلد. وبدأت الجدران التي تحيط بالمنطقة الخضراء تمثل جدراناً خارقة للطبيعة بين الولايات المتحدة والشعب العراقي، وكانت هذه الجدران تصبح أكثر وضوحاً يوماً بعد يوم.

كان للمترجمين دور أساسي في الحفاظ على الوهم. وكان يبدو أنهم كانوا مصنفين في فئات ثلاثة. أولاً، كان هناك المترجمين الذين كانوا يعملون لأنهم كانوا في حاجة ماسة للمال، ولم يكن لديهم أي انتماء سياسي وكانوا موجودين هناك من أجل الراتب. ثانياً، كان هناك المثاليون، وكانت رغبتهم في المساعدة في تشكيل عراق جديد ساذجة ولكنها ملهِمة. ثالثاً، كان هناك الانتهازيون.

وكان المترجمون الانتهازيون يمثلون كابوساً بالنسبة لي في كل مرة أعبر فيها نقطة تفتيش. ومع مرور الوقت تعلّمت أن أكتشف هؤلاء المترجمين من على بعد ميل، وكنت أقوم بالتحضير لإظهار جوازي الأميركي. وغالباً ما كان يتم وضعهم في وسط الجنود، جاثمين على أطراف كراسيهم،

وجاهزين للانقضاض على الشخص التالي القادم للعبور. وكانوا يحاولون تقليد لكنات الجنود، والتي كانت غالباً ما تأتي كمزيج ما بين سائق تكسي في نيويورك ومربي ماشية من تكساس. وفي كثير من الأحيان كان علي أن أمنع نفسي من التكلم بمشقة عندما كان من الواضح أن مترجماً عراقياً يتعمد إثارة المتاعب. وكانوا في كثير من الأحيان يدلون بتعليقات غير مناسبة بشأن النساء العراقيات الواقفات في الطابور. وفي بعض الأحيان يطلقون أسئلة استعدائية نحو الرجال العراقيين، في مزيد من التذكير بضعفهم بينما يصطفون في طابور في وطنهم تحت رحمة الأميركيين.

شهدْتُ خلال إحدى زياراتي لكلثوم واحدة من هذه الحوادث ولم أتمكن من إبقاء فمي مغلقاً.

أمر أحد الجنود، «إنداري (استديري)». وكان ذلك في وقت كان الجنود الأميركيون يعتقدون فيه أن تقليد اللهجة العراقية المحلية كان أمراً لطيفاً. وقد اعتبر العراقيون أن الجنود الأميركيين يحاولون أن يكونوا ذوي حس مرهف تجاه اللغة والثقافة المحليتين. وسرعان ما أصبحت الكلمات ذاتها تُفسَّر على أنها استهزاء، وكان ذلك يثير غضب العراقيين الذين كانوا مضطرين للمرور عبر نقاط التفتيش. وفي الواقع أن استخدام الجنود للكلمات والجمل المحلية كان سيتغير، ولكن ذلك لم يكن قد حدث بعد.

وبينما كنت أتعرض للتفتيش عند نقطة تفتيش، تخطى رجل مسن الطابور. وكان يبدو أنه في أواخر الستينيات من عمره، وكان يتعرق من اضطراره للوقوف في الحر. ابتسمت له. وكان يبدو كرجل مسن لطيف، وذكرني شعره الرمادي والترهل الطفيف لديه بجدي.

رد الابتسامة واعتذر بسرعة لقطعه الطابور. وشرح باللغة العربية، «أبنائي، لا أريد أن أدخل. أنا جندي في الجيش وقالوا لي إنه يتم توزيع الرواتب. وقد أتيت لأسأل أين يجب أن أذهب. أرجوكم، ليس لدى عائلتي سوى راتبي.»

وقفز أحد المترجمين وبدأ بالصراخ على الرجل بالعربية لكي يرجع. بدا الرجل المسن مفزوعاً. واستمر المترجم بالصراخ والقيام بإيماءات بطريقة درامية، ما جعل الجنود الأميركيين متوترين.

وقام الجندي الذي كان يبحث في حقيبتي بالقفز ووجه بندقيته نحو الرجل المسن. وصرخ في المترجم، «ما الذي يقوله؟ ما الذي يقوله؟».

وأجاب المترجم بغضب، «يقول إنه ضابط جيش. إنه يهددني. وأقول له أن يتوقف.» وقفز أربعة من الجنود الأميركيين ورفعوا بنادقهم نحو الرجل المسن فور سماعهم لكلمات المترجم.

وبالمثل، تلاشى لطف الرجل المسن. ولم يستطع أن يفهم كلمات المترجم باللغة الإنجليزية، ولكن من البنادق الموجهة نحوه أدرك أن الكلمات كانت عدائية. وبصورة تلقائية استقام جسده وقسى صوته.

وقال، «أنا لا أريد المشاكل، أنا أطلب حقي. هل يمكنكم المساعدة أم لا؟»

ورد المترجم بثورة غضب. وسأل، «إنت مخبول؟» ولوح بيديه بشكل محموم وهو يسأل، «ألا تعرف مع من تتكلم؟»

وكان التوتر قد وصل حداً مخيفاً. ولاحظت أن يوسف قد تراجع للوراء ولوح لي لكي أفعل الأمر ذاته. إلا أنه كانت لدي خططي الخاصة.

وقلت بشكل مفاجئ وأنا أرمق المترجم بأقسى نظرة لدودة استطعت أن أرمقه بها، «مترجمكم كاذب، وأنتم بحاجة لأن تهدؤوا.» كنت أستشيط غضباً من الطريقة التي كان يحاول بها المترجم أن يُذل الرجل العراقي. «إن هذا الرجل يسأل فقط عن رواتب العسكريين. وقد ذكرها السفير بريمر في أحد أحاديثه على التلفاز، والرجل المسن يقول إنه لا يريد أن يدخل إلى المنطقة الخضراء. ويريد فقط أن يعرف أين يجب أن يذهب.»

وصاح المترجم العراقي وأحد الجنود في الوقت ذاته، «من أنت بحق الجحيم؟»

قلت وأنا أظهر شارتي، «أنا عاملة إغاثة. وأتكلم أيضا اللغة العربية بطلاقة. لم يكن الرجل المسن ينوي أي شر. ولا أستطيع أن أؤكد أنه سيغادر بالحالة ذاتها.»

وقال الجندي الذي كان يفتش حقيبتي،»سيدتي، لسنا بحاجة إلى شخص مغرور وسط هذا الاهتياج.» ولاحظت أن يوسف كان يرمقني بنظرة قاسية للغاية.

إلا أن الجندي خفض بندقيته.

وقال، «لقد فهمنا الأمر.» وابتسم للرجل المسن ووضع يده على صدره، في إيماءة اعتذار. وقد قاومت الرغبة الملحة في خلع حذائي وضرب المترجم به، والذي كان الآن قد توارى بعيداً عن الأنظار.

ولوح لي الجنود بإشارة العبور، واندفعت متجهة إلى مركز المؤتمرات. وكان هناك اجتماع مقرر مع آن ميرفي بشأن كلثوم، إلا أنني كنت غاضبة جداً وتوجهت مباشرة إلى مكتب إيفانا. ولم يكن ذلك أول إخفاق

في الترجمة أشهده، وأردت أن أقدم شكوى رسمية. وكنت أعلم أنها ستكون بلا جدوى، ولكن على الأقل ستكون في ملف ما يمكن أن يطلع عليه أحد المؤرخين بعد مائة سنة من الآن عندما يحاول أن يكتشف كيف حدث أن الخطة الرائعة لكسب عقول وقلوب العراقيين قد خرجت عن مسارها.

وتبعني يوسف، وكان بإمكاني أن أرى أنه كان يقاوم الرغبة في قول شيء ما.

شجعته قائلة، «ماذا؟ هل من المفترض أن أبقى صامتة بينما كان ذلك الأحمق يحاول تصعيد الوضع؟ ولم يكن لدى الرجل المسن المسكين أدنى فكرة عما كان يجري.»

«منال، أنت فقط لا تستوعبين الوضع. صحيح أن المترجم كان أحمقاً. وصحيح أنه كان يسيء استغلال السلطة وكان يبحث عن بعض الدراما. ولكن المترجمين هم أصحاب نفوذ. ويكسبون الكثير من المال، وأنا لا أتحدث عن رواتبهم. لقد أحرجته أمام الجنود. وسوف يُكنّ لك ضغينة. وإن تذكر وجهك، أو ما هو أسوأ، اسمك، يمكنك أن تكوني على يقين من أنه سوف يلاحقك. لديك الكثير من الأعداء لمجرد طبيعة عملك، هل تريدين أن تكسبي مزيداً من الأعداء؟»

لقد كان على حق. ولكنني كنت أعرف أيضاً أنه لو أعاد الكون الزمن إلى الوراء، لكنت سأقوم تماماً بفعل الشيء ذاته مرة أخرى.

شعرت براحة أكثر بعد أن رأيت إيفانا. ومشت معي إلى حيث توجد المكاتب الرئيسية للوحدة المدنية، وقدمتني إلى شخص مسؤول.

وتمكنت من التنفيس عن كل ما شعرت به من إحباط، وبذلت كل ما بوسعي لكي لا أبدو مثل معلمة مدرسة بينما كنت أشرح أن العراقيين الذين كانوا يحضرون إلى المنطقة الخضراء لم يكونوا الأعداء. وحذرت قائلة: إلا أن المذلة التي يتلقونها لمجرد أن يحضروا لكي تتم الإجابة عن بعض الأسئلة الأساسية قد تحولهم إلى أعداء. واستمع الجندي إلي بلطف، وشرح بأن التحدي الأكبر بالنسبة للجيش الأميركي يتمثل في الموازنة بين الأمن مع الحاجة إلى مد يد العون للسكان المحليين.

وعندما خرجت من الغرفة، رأيت يوسف جالساً مع مجموعة من المترجمين العراقيين وهو يدخن سيجارة. وقف عندما خرجت، وكان تقريباً قد كوَّر عينيه عندما سأل، «إرتحتي؟»

كنت أعلم أنه كان يتحدث بسخرية، ولكنني أومأت برأسي بتأكيد. ربما أنني كنت واهمة في أن كلماتي سوف يكون لها أي تأثير، إلا أنني كنت سعيدة. على الأقل بقيت صادقة مع نفسي في القيام بإجراء.

كما أنني تذكرت السبب الحقيقي لوجودي هنا. كلثوم.

* * *

بمجرد أن فكرت بكلثوم، أدركت مدى فزعي من رؤيتها. لقد وصلنا إلى وضع لم يعد بإمكاننا فيه التقدم في محاولتنا مساعدتها. والمفارقة هي أن ذلك لم يكن في هذه المرة بسبب انعدام الحلول، ولكنه كان بسبب أنه لم يكن أي منها مقبولاً بالنسبة لكلثوم. فقد كانت تريد أن تعود إلى أبيها.

ربما كانت حقيقة أن المخدرات قد زال أثرها. وربما أنه كان الحمل. وقد كنت أعتقد في سريرتي أن العشرين دقيقة التي أمضتها في دار الأيتام للمعاقين قد صدمتها في واقع وضعها. وأياً كان السبب، فقد كنا نقف على مفترق طرق.

أجريت اتصالات مع العديد من المنظمات النسائية العراقية للحصول على معلومات، حيث أنني كنت أعرف أنهم كانوا الأشخاص الوحيدين الذين سيقولون لي الحقيقة بشأن الوضع. وأكدت جميعها على أسوأ مخاوفي: عودتها إلى عائلتها ستكون حكماً بالإعدام.

إلا أن كلثوم كانت مدركة لذلك تماماً. وكان يبدو أنها تعتقد، في صميم قلبها، أنه كان حكماً معقولاً. وعلى مدى الأيام القليلة الفائتة طوَّرت كلثوم إحساساً بقوى كارما الكونية، وتوسلت إلي أن أسمح لها بالذهاب إلى عائلتها حتى تنتهي معاناتها.

وشرحت لي بشكل متكرر أن حياتها قد انتهت، وأن القرارات التي اتخذتها لم تترك لها مجالاً يذكر لتبدأ من جديد. ومن ناحية أخرى، توجد لديها أربع شقيقات في المنزل. وقد لحق العار بعشيرتها. وفي السابق، كانت تعتقد أن الناس كانوا يعتقدون أنها اختطفت أو قتلت، ولم تكن هناك طريقة للتأكد من أنها هجرت زوجها وألحقت العار بشرف عائلتها. والآن أصبح الأمر مؤكداً. وإذا عادت إلى عائلتها وواجهت الحكم عليها، عندئذ ستتم استعادة الشرف. وإذا هربت، عندئذ ستدفع شقيقاتها الأربع الثمن. وسوف يتم نبذهن من المجتمع، ولن يتزوجن أبداً بسبب تشوه سمعتهن. وناقشت رأيها في أن الأسوأ من ذلك قد يكون إرغامهن على زواج غير ملائم كزوجة ثالثة أو زوجة رابعة. أخطاؤها كانت أخطاؤها لوحدها،

وأرادت كلثوم أن تواجهها بشكل مباشر. ابتسمت لي وشرحت أنها مُنحت خيارات في حياتها، وقد اختارت الخيارات الخاطئة. وقد آن الأوان الآن لتدفع ثمن خياراتها السيئة.

كانت كلثوم في سن السادسة عشرة، وكانت تلك الفكرة الوحيدة التي جالت في ذهني عندما ناشدتني أن أساعدها في العودة إلى عائلتها. عن أية حياة كانت تلك الفتاة تتحدث؟ هل حقاً مُنحت خياراً عندما تم تزويجها؟ أو عندما غُرر بها إلى الدعارة؟ هل مُنحت حقاً أسرتها خياراً، وهي تكافح للبقاء على قيد الحياة في حرب بعد حرب وعَقد من العقوبات الدولية؟

هززت رأسي. وكنت أدرك أن القرار النهائي كان بين يدي. بحق الله، كيف كان يفترض مني أن أصدر مثل هذا الحكم؟ أي قرار أتخذه كان يعني الموت أو الحياة بالنسبة لكلثوم، وسلسلة من العواقب التي لا يمكن التنبؤ بها بالنسبة لشقيقاتها. فقط في منطقة حرب يمكن لشخص في سن الثامنة والعشرين أن يمتلك مثل هذه السلطة.

ومن حسن الحظ أنني لم أكن مضطرة لاتخاذ هذا القرار منفردة. فقد التقيت بامرأة كردية قوية في مؤتمر ساعدت في التخطيط له مع منظمة نساء للسلام، وهي منظمة قامت بتشكيلها السفيرة الأميركية السابقة سواني هنت. وقد أنشأت واحداً من أول ملاجئ النساء لإيواء نساء من كافة أنحاء البلاد. وكان هناك العديد من الملاجئ في منطقة الأكراد الشمالية، إلا أن منظمة أسودا (Asuda) كانت الأولى التي قبلت النساء العربيات. وكانت أيضاً الملاجئ القليلة جداً التي أعرف أنها كانت ستقبل حالات «منبوذات». وكانت حالات المنبوذات تتعامل دائماً تقريباً مع حالات شرف العائلة. وكانت أسودا تقدِم علناً على مساعدة فتيات مراهقات

اكتشف أنهن مارسن الجنس قبل الزواج، وضحايا اغتصاب، ونساء اتهمن بالزنا. ولم تكن أسودا تقوم فقط بمنح الحماية إلى هؤلاء النساء، وإنما كانت تمتلك أيضاً دائرة كاملة مخصصة للبحث والتوثيق.

وعدا عن منظمة أسودا، كنت مفتونة بخانم لطيف، المرأة التي تقودها. لقد أحببتها من اللحظة الأولى التي رأيتها فيها. وقد جعلها شعرها ذو اللون الباذنجاني الناري مع خصلات شعر بلون عنابي، مميزة في الحشد. وكانت خانم امرأة تسبق عصرها. كانت تؤمن إيماناً راسخاً بحقوق المرأة وتناضل بحماس من أجل تقدم المرأة وحمايتها. وعندما التقيت بها لأول مرة، كانت مستعدة لتحدي الصور النمطية الدينية والثقافية للبلاد. وقد أدت شخصيتها وقناعاتها القوية إلى جعلها مناصِرة استراتيجية. وأنشأت تحالفات مع الشخصيات الرئيسية في حكومة المنطقة الكردية والبشماركا (الشرطة الكردية)، والمستشفيات. ولم تؤد هذه التحالفات فقط إلى المساعدة في إيجاد حلول لحالات، بل كانت ذات أهمية بالغة في عملية التوثيق.

كان مكتب خانم مليئاً بألبومات صور لنساء تعرضن للإساءة، وكان وسطاء اتصال لها يبلغونها غالباً بمعلومات سرية عندما تصلهم مثل هذه الحالات. وكانت خانم تهرع إلى المكان لالتقاط صور، وهي حريصة على القيام بذلك بطريقة تحمي هوية المرأة. وكانت هناك ألبومات كاملة مخصصة لجثث النساء. وعندما كان مسؤولون حكوميون رفيعو المستوى يقومون بإنكار ممارسة جرائم الشرف، كانت تُظهر العديد من صور لنساء أحرقن أحياء أو مع جروح ناجمة عن إطلاق نار وتُسكت معارضيها على الفور.

وبعد أن رفضت المتقدمين لخطبتها واحداً تلو الآخر، قررت خانم أن لا تتزوج وأن تكرس حياتها لعملها. وكانت صداقتنا فورية، وقد

أظهرتُ اعتماداً عليها من أجل النصيحة والمشورة المدروسة. وكنت أعرف أنها لن تتجنب حالة كلثوم كما فعلت بقية النساء العراقيات. وكنت أعرف أنها لن تعطيني نصيحة مبهمة أو تقوم ببساطة بعرض العواقب. لقد كانت هذه امرأة أمسكت بزمام الأمور. ودعوت الله أن تتولى بسرعة مسؤولية هذا السيناريو.

وفي الواقع أنها قامت بذلك. وفور سماعها لقصة كلثوم الكاملة، شرحت لي أن القرار لم يكن في يدها ولا في يدي. والقرار كان عائداً لكلثوم وحدها. وطالما أنني كنت أبين الحلول المختلفة، كان الأمر يعود إلى كلثوم لوحدها بشأن اتخاذ القرار النهائي. وشرحت خانم أن أسودا تؤمن أن الحل الأفضل، حيثما يكون ذلك ممكناً، يكمن دائماً في التوصل إلى تسوية مع الآباء. وكانت هناك دائماً مخاطر كبيرة، ولكنها أكدت لي أنه في كثير من الحالات كان ذلك ناجحاً.

وقالت خانم، «جرائم الشرف تحدث. وهي تحدث أكثر مما نرغب في أن نعترف به. إلا أنها تحدث لأن مجتمعاتنا لم تتعلم كيف تتوسط بشأن مثل هذا الموضوع الحساس. ليس هناك أب يريد أن يقتل ابنته. امنحيه ذريعة للحفاظ على شرفه أمام عشيرته، وسوف يتشبث بها. ولكن مجتمعنا يرفض تيسير مثل هذه المناقشات. وفي أسودا نقوم بفعل ذلك، ونستخدم زعماء دينيين وعشائريين لتشجيع الآباء على إيجاد حلول أخرى غير ذبح بناتهن. ولا ينجح ذلك دائماً، والدليل هو المقيمات في ملجأي. ولكن الملاجئ وإعادة التوطين تمثل دائماً الخيار الثاني والمفضَّل بدرجة أقل. نحن بعيدون عن زمن لن يحتاج فيه مجتمعنا إلى تلك الخيارات، ولكن ذلك لا يعني أن لا نستمر بمحاولة التسوية.»

ونصحتني خانم بالتفكير في شخص ما يمكنه أن يقوم بتيسير المناقشة مع والدها. ولم أستطع التفكير في أي شخص إلى أن ذكرني يوسف بمنذر.

* * *

كان منذر سعيداً بالاستماع إلينا، وفي معرفة أننا كنا نسعى إلى التسوية مع عشيرة كلثوم بدلاً مما أشار إليه على أنه عملية اختطاف. وانتهز الفرصة من أجل تقديم المساعدة. وكان الشرط الوحيد لكلثوم هو أن يقوم والدها بتيسير طلاقها من زوجها. كانت مستعدة للعودة إلى العيش في منزل والدها، ولكنها لم تكن تطيق فكرة العودة إلى زوجها. وتدبر منذر أمر التفاوض بشأن شروط عودتها، ورتب أمر طلاقها بنجاح، وجعل الأب يقوم بالتوقيع على إفادة بأن كلثوم لن تتعرض للأذى إن عادت. كما أبرم منذر أيضاً اتفاقية مع العشيرة تقضي بأنه سوف يكون قادراً على زيارتها كل ثلاثة أشهر للتأكد من أن كلثوم كانت في صحة جيدة (أو بصراحة أكثر، على قيد الحياة).

خلال الأسبوع الذي أمضاه منذر في التفاوض مع عشيرة كلثوم، كانت كلثوم تنتظر في المنطقة الخضراء. والآن بعد أن عرفنا تفاصيل التسوية مع والديها، كل ما كنا بحاجة إليه هو نموذج موقّع من الكولونيل الأنثى الأميركية التي خاطرت مخاطرة كبيرة في مساعدة كلثوم. إلا أنها لم تكن سعيدة بالترتيبات، فقد تصورت شيئاً مختلفاً تماماً، شيء مثل تهريب المراهقة عبر الحدود على غرار أسلوب فيلم ليس بدون ابنتي (Not Without My

Daughter). وفي ذهنها رأت أمراً من اثنين: إما أنني كنت أبالغ في المخاطر التي كانت تتعرض لها كلثوم، أو أن كلثوم كانت مجنونة في رغبتها بالعودة إلى أسرتها. وفي كلتا الحالتين، كانت تريد أن تعرف حقيقة الأمر قبل أن توافق على تسليم كلثوم.

جلستُ وكلثوم في ردهة مجاورة لمكاتب الجيش المدنية بينما كنا ننتظر سيارة لتقلنا إلى الاجتماع مع الكولونيل. مالت وسألتني متى ستكون قادرة على العودة إلى أسرتها. وطمأنتها في أن ذلك سيكون في غضون ثماني وأربعين ساعة.

قالت، «الحمد لله. أنا أشعر بالاشمئزاز من قربي من هؤلاء النساء القذرات. أنتظر عودتي للمنزل بفارغ الصبر.» استدرت للنظر في الاتجاه الذي كانت تنظر فيه كلثوم شزراً. وكنت أتوقع تقريباً أن أرى جنديات أميركيات، ولكنني رأيت بدلاً من ذلك مجموعة من النساء العراقيات الشابات يسرن عبر الردهة. نظرت مرة أخرى إلى كلثوم وكان بإمكاني أن أرى أنها كانت مشمئزة بصدق.

قالت، «أنظري إلى الطريقة التي يلبسن بها. إنها كما لو أن أحدهم قد رش البنطال رشاً، كما لو كان مطلياً بدهان عليهن. ترين كل تفصيل في أجسادهن.» هزت رأسها كما لو كانت تريد أن تتخلص من الصورة المثيرة للاشمئزاز.

كنت عاجزة عن الكلام. هل كان من الممكن أن كلثوم نسيت الظروف التي أدت بها إلى أن تكون هنا؟ ذكرتها بحرص أن زوجها ووالدها كانا يطالبان برأسها لأنها مارست الدعارة هي نفسها ولأنها تحمل

أحد أبناء زبائنها غير الشرعي. ربما أنها لم تكن في الوضع الأفضل لتدلي بمثل هذه الآراء.

وأجابت، «أوه، لا. أنا كفَّرت عن ذنبي. لقد غُرر بي. أنا لم أعد واحدة من تلك النساء.» وأشارت إلى مجموعة من المترجمات العراقيات اللواتي كن يجلسن في زاوية.»

وكما قلت، المنطقة الخضراء هي مكان للأوهام.

9
فيرن

◗ كانت الأسر العراقية التي تحيط بي بمثابة مرساة لصحتي النفسية. لقد كنت بحاجة لها. لم أكن فقط أواجه عدواناً عاطفياً من عملي، بل كانت مشاكلي البدنية تزحف مرة أخرى. وفي هذه المرة كانت مشكلة ظهري حادة إلى درجة أنها تطلبت إجراء جراحة، وبدأت أقضي معظم وقتي بالعمل من المنزل في حي الجامعة، وهي منطقة تحظى باحترام بحيث كانت معروفة بالمقيمين فيها من أساتذة الجامعة وغيرهم من أعضاء هيئة التدريس.

وكان لدي حيز خاص بي على شكل مُلحق بالمنزل الرئيسي، شيء مثل منزل في بلدة صغيرة مع مدخل منفصل ومطبخ وغرفة معيشة وغرفة نوم. وكما ذكرت سابقاً، كانت العائلة الكردية التي كانت تعيش في المنزل الرئيسي جزءاً من عائلة ممتدة لواحدة من أعز صديقاتي في المدرسة الثانوية. وكنت أشعر بالأمان مدركة أن الأسرة كانت قريبة جداً، وبالتالي، من الناحية الفنية، لم أكن امرأة غربية تعيش بمفردها في وسط بغداد.

لم يكن لدي نقص في الرفقة. وكانت العائلة قد جعلت من المعروف جيداً في الحي أنني كنت صديقة لعائلتهم الممتدة منذ أمد بعيد ولست أي

أميركية من أصل عربي تستأجر مكاناً. ونتيجة لذلك تم تقبلي بسرور من قِبل الجيران، وفي كثير من الأحيان كانت تتم دعوتي لتناول الشاي والوجبات.

وكان للعائلة ابنتان، هوزان وأفيين. وكانتا تجسدان الصورة النمطية العراقية للجمال الكردي. كانتا طويلتين ونحيلتين، وكانت لديهما بشرة خزفية قشدية وعينان واسعتان لوزيتا الشكل. وكانتا تتباهيان بخصلات شعر ملونة صبغتها لهما كارول، وهي مصففة شعر للنخبة معروفة جيداً. وكان لهوزان خصلات بلون عنابي ناري في تناقض صارخ مع لون بشرتها. وكان لدى أفيين مزيج من الخصلات الملونة باللون الأشقر واللون العسلي كانت منسجمة مع جلدها الفاتح. كانت هوزان متزوجة وتعيش على بعد بضعة شوارع من أسرتها. وكانت أفيين في سن التاسعة عشرة وتدرس في الجامعة، وكانت تشاطرني بآخر أحاديث القيل والقال عن الجامعة أثناء دروس الطبخ.

كان اتصالي الرئيسي مع الحياة الطبيعية عندما أكون مسافرة يتمثل في إيجاد طريقة لأطبخ بها. وكانت أفيين بارعة في المطبخ، وقد دربتني على الكثير من الأطباق العراقية التقليدية. وفي كل مرة أقوم بها بتحضير برياني مع دجاج (طبق يرتكز على الأرز مع طبقات من الدجاج والزبيب والبطاطا والبازيلاء الخضراء)، أفكر في أفيين، فقد علمتني السر في مزج التوابل وكيفية طبخ الدجاج والأرز بشكل منفصل. وفي كل ليلة، كانت تقوم بزيارة قصيرة لتطمئن علي.

في الوقت نفسه، قامت أسرتا يوسف وفادي باحتضاني كما لو كنت ابنة عم مفقودة منذ زمن بعيد.

كانت أم يوسف ترسل قدوراً من الطعام من أجلي، وكانت شقيقته، ميسون، ترسل لي مدبرة المنزل مرتين في الأسبوع لتنظيف منزلي وتدبُّر أمر الغسيل. بينهم وبين أفيين، كنت أعيش كما لو كنت أميرة.

وفي ذلك الوقت، كان حسين وميسون يزورانني كثيراً. وكانت ميسون فراشة اجتماعية، وكانت متلهفة لتقديمي إلى شبكتها من ربات المنازل العراقيات. وفي الوقت نفسه، كانت متلهفة لاستبدال آخر عشر سنوات من حياتها كربة منزل بحياة مهنية. وفي كثير من الأحيان كنا نمضي الوقت المتأخر من الليل في مناقشة الطرق التي يمكنها أن تبحث فيها عن عمل مع أحد المنظمات الدولية.

وكانت ميسون تقول، «أريد أن أكون إنسانة حقيقية، أريد أن أساعد شعبي.»

ولكن كانت ميسون مثل معظم النساء العراقيات، قلقلة بشأن العمل في شركة عراقية محلية. وفي معظم الحالات كانت وظائف السكرتاريا هي المتاحة فقط. وكانت النساء اللواتي يعملن في مثل هذه الوظائف يتعرضن للتحرش الجنسي.

وكانت ميسون تضيف بينما تصب الشاي، «أريد أن أكون نافعة.» ولم يكن التركيز على كلماتها أمراً سهلاً دائماً، لأن إحساسها بالذوق الرفيع كان يبهرني. فقد كانت ميسون معروفة بلباسها الذي كان غاية في الأناقة، وفي كثير من الأحيان كانت تقوم بعناية بجعل شالها يتماشى مع ملابسها. وكان هذا برتقالي مزخرف، يتماشى تماماً مع حقيبتها وحذائها. وركّزت على الطريقة التي قامت فيها بلف الشال حول رأسها. وكان من الواضح

أنها قامت بوضع العديد من الدبابيس لتثبيت الشال في مكانه، ومع ذلك تمكنت من جعل ذلك يبدو كما لو كان أمراً هيناً.

وأثناء هذه الزيارات، أصبحت أعرف حسين أيضاً. أذهلني حسين، ممثل حقيقي للرجل العراقي العصري، بمدى دعمه لميسون، وقد أحب فكرة إيجاد عمل لميسون خارج منزلهم. وكثيراً ما كان يروي لي قصصاً عن المرة الأولى التي التقيا بها، فقد كانا حبيبين في الجامعة، وقد أعجب بحيويتها وثقتها بنفسها خلال سنتهما الأولى في الجامعة. وكان بإمكاني رؤية ذلك بسهولة، فقد كانت تلك الصفات ما تزال تشع منها. ومثل يوسف، كان لديها شعور بالتصميم، وكنت أعرف أنها، مع القليل من الدعم، يمكنها أن تحقق الكثير.

وعندما طلبت مني مديرة منظمة «نساء بلا حدود»، التي يقع مقرها في أستراليا، أن أحدد متطوعة عراقية محلية لإجراء مسح على النساء والشباب، أوصيت على الفور بميسون.

* * *

أدى الجو الأسري إلى جعل رحلاتي في كافة أنحاء البلاد محتملة أكثر، وكنت أقاوم محاولات جسدي في إبطائي. وعلى الرغم من أنني كنت أتعافى من جراحة في الظهر، عدت بسرعة إلى العمل في الزيارات الميدانية، وكنت أتناوب بالعمل أسبوع في الميدان وأسبوع من المنزل لكي أتعافى. وكنت أسافر، مرة كل أسبوعين، إلى المحافظات المجاورة في سيارة فادي البيجو.

أصبح من الواضح خلال رحلاتي إلى المحافظات الجنوبية الوسطى أنه كان يتعين علي أن ألتقي بالمرأة التي أصبحت أسطورة في العالم بشأن قضايا المرأة في العراق: فيرن هولاند. جميع النساء اللواتي قابلتهن، حتى في أبعد المناطق النائية في الحِلة وكربلاء والكوت، كن يذكرن فيرن وحبها للعراق، وعلى الأخص للنساء العراقيات. وعبرت النساء اللواتي تعاملن معها عن مدى تأثرهن بعطفها وعزيمتها. وكن يقلن إنهن وجدن راحة في حقيقة أن إنسانة تعمل مع الولايات المتحدة الأميركية كانت تهتم بهن. وحتى تلك النساء اللواتي كن يشتكين من فيرن، كن يثنين عليها بلا حدود، محذرين فقط من أن نهجها كان سريعاً جداً بالنسبة للمناطق الريفية.

وفي وقت لاحق، حاول الكثير من الناس رسم صورة لفيرن، وهي محامية من حيث التدريب، بوصفها نسوية مثالية ساذجة مع إحساس لا يذكر بالثقافة. ذلك الوصف بعيد كل البعد عن الحقيقة. وفي كثير من الأحيان، عندما كنت أزورها في الحِلة وكربلاء، كنت أجدها جالسة على الرصيف تدردش مع الحراس. وقد تأثر العراقيون بطبيعتها المتواضعة ويشعرون برهبة من عاطفتها الملتهبة.

وكانت المرة الأولى التي قابلت فيها فيرن داخل مجمع سلطة الائتلاف المؤقتة في الحِلة. وبينما كانت الشقراء الضئيلة في الحجم تقترب مني بجرأة، لم يكن بإمكاني أن أفكر سوى باللقب الذي كان يطلقه عليها العراقيون: باربي. وفي الواقع أنها كانت تبدو مثل لعبة صغيرة تم صنعها بسرعة من قِبل شركة ماتيل. ولكن في اللحظة التي تكلمت بها تبخرت جميع الصور عن باربي. تكلمت فيرن بسلطة وثقة، وأظهرت على الفور أنها كانت امرأة تحب أن تكون في موضع المسؤولية.

ضربَت بقوة على الطاولة حيث كنت أجلس، وسألت، «أحتاج إلى شخص ليجعل من كل هذا الهراء أمراً واضحاً. هل أنت ذلك الشخص؟»

لم تنتظر جواباً، بل انطلقت في الحديث بخطبة مسهبة عنيفة تبين كيف أن نافذة الفرص في إيجاد عراق جديد كانت تُغلق بسرعة، وأعربت بحماس عن رأيها في أن نساء العراق هن اللواتي سيدفعن الثمن.

«منال، لقد قابلت مهندسات ومحاميات وطبيبات - نساء عراقيات مذهلات تماماً. نساء من شأنهن أن يجعلن معظم النساء الأميركيات يشعرن بالخجل. وهؤلاء النساء قويات إلى درجة لا تصدق. وأخشى أننا نهيئهن للفشل. نحن لا نقدم لهن سوى الطوب والتجهيزات الفاخرة.»

تكلمتْ بسرعة ونظرتْ إليّ نظرة متفحصة بسرعة. وأضافتْ بصوت منخفض، «ولكنك تعرفين ذلك أكثر مني،» بينما استمرت في توضيح جميع الأخطاء الواضحة التي كانت ترتكبها سلطة الائتلاف المؤقتة والجيش الأميركي والمنظمات الدولية في نهجهم في العراق.

كانت فيرن مدركة تماماً للمخاطر التي كانت تعرِّض نفسها لها بالتحدث بشكل لا لبس فيه عن حقوق المرأة العراقية، ولكنها كانت في أمسّ الحاجة لإحداث فرق خلال فترة وجودها في العراق. وكانت تؤمن أن الإرث الذي يمكن أن تتركه الولايات المتحدة الأميركية في العراق كان من خلال النساء. وشرحت فيرن أنها سمعت عن مبادراتي وتريد المشاركة. إن لديها الأموال ويمكنها الوصول إلى مبانٍ ومعدات للمراكز النسائية، ولكنها بحاجة إلى شخص ما ليساعدها في الجانب الأكثر ليناً في المشاريع. كانت بحاجة إلى شخص ما لإنشاء برامج تركز على تزويد المرأة بالتدريب والمهارات لإدارة المراكز بطريقة جيدة.

كان أميركيون آخرون قد اعتبروني متشائمة وانتقدوا تحليلي للتدخل الأميركي في العراق واعتبروه قاسياً، وكان يغمرني شعور بالموافقة بينما كنت أحاول أن أجاريها. كل شيء قالته كان يتحدث مباشرة إلي. والأمر الأهم هو أن فيرن رفضت التوقف بعد أن قامت بسرد ما كان يجري بشكل خاطئ، وأصرَّت على توضيح الخطوات التالية وبعض الحلول للمساعدة في إعادة بعض البرامج بشأن العراق إلى المسار الصحيح.

كنت أشعر بنشوة. لقد كانت أول شخص أمريكي يعمل في العراق ويشاركني موقفي. وكانت ترفض الوقوف إلى جانب أولئك الذين دعموا الغزو الأميركي أو أولئك الذين أرادوا خروج الولايات المتحدة الأميركية من العراق. بعبارة أخرى، كانت فيرن انتقادية علناً، ولكنها كانت متفانية في تقديم ذلك النقد بطريقة بنّاءة، وكنا نتشارك بالروح ذاتها في إيجاد رؤية على المدى البعيد لعراق جديد، على الأخص بالنسبة للنساء.

وعلى الرغم من أنني كنت شديدة الحماس، إلا أن عزيمتي كانت باهتة مقارنة بعزيمة فيرن. لقد كانت في البداية متمركزة في بغداد، ولكنها أصرت على أن يتم إرسالها إلى المناطق الريفية في الحِلة وكربلاء والديوانية. وناقشت فيرن أن نسبة كبيرة من النساء في بغداد متعلمات ومن بين النخبة، والنساء في المناطق الريفية كن بحاجة إلى دعم دولي. كانت في الوقت ذاته مستعدة لخوض معارك مع كل شخص بدءاً من الإمام العراقي المحلي وحتى أرفع مستويات القيادة في سلطة الائتلاف المؤقتة.

* * *

أمضيت في احدى رحلاتي إلى الحِلة يوماً مع فيرن في التنقل وسط المدينة بحثاً عن موقع مثالي لمركز نسائي كانت ترغبُ في إنشائه. وكانت قد ضيقت خياراتها إلى أربعة مبان، أول ثلاثة منها كانت في مناطق بعيدة، وبدون وجود وسائل نقل، وكانت النساء ستجد صعوبة في الوصول إليها. وكان المبنى الأخير مثالياً. كان الهيكل كبيراً، وكان موقعه في وسط المدينة. وكان المبنى بحاجة ماسة إلى إعادة بناء، ولكن مع الأموال المتوفرة من خلال سلطة الائتلاف المؤقتة، كان ذلك آخر ما يشغل بال فيرن.

وأتذكر وقوفي في وسط المبنى المهجور. لقد كان مثالياً. مثالياً جداً. وكان المتشائم في داخلي يصرخ أنه لا بد أن يكون هناك شِركاً. لماذا لا يكون مثل هذا المبنى الكبير في وسط المدينة قد تم طلبه سابقاً من قِبل أحد مجالس الحكومة العراقية؟ فقد كنا في وسط استيلاء جماعي على الممتلكات والمباني العامة، وكان الجميع يتقدمون بطلبات إلى سلطة الائتلاف المؤقتة من أجل الحصول على حصة من الكعكة. استدرت نحو يوسف وطلبت منه أن يسأل الحراس بشأن المبنى.

وعاد يوسف وعلى وجهه تعبير متجهم.

وقال، «المبنى يعود إلى مقتدى الصدر.»

لم تكن نبرة نهاية العالم في صوت يوسف هي التي روعتني. فقد كان اسم مقتدى الصدر يعبر عن كل شيء.

في ذلك الوقت لم يكن مقتدى الصدر معروفاً عالمياً، إلا أنه كان يكتسب شعبية في المجتمع العراقي المدني المحلي معتمداً على سمعة والده. وكان والده هو آية الله العظمى محمد صادق الصدر الذي كان يحظى

باحترام وتقدير كبيرين في أوساط الطائفة الشيعية، والذي حصل على مكانة الشهيد في العام 1999 عندما تم قتله من قِبل صدام حسين. ويعتبر الكثير من زعماء الشيعة أن آية الله العظمى محمد صادق الصدر قد أصبح واجهة للمقاومة الشيعية لنظام صدام. لذلك كان مقتدى الصدر في وضع جيد بين السكان العراقيين الشباب الذين كانوا يبحثون عن زعامة محلية، وكان هو من بين القلة القليلة التي كانت تعلن بصراحة أنها ضد الوجود الأميركي.

وعندما أعلنت سلطة الائتلاف المؤقتة أعضاء مجلس الحكم الانتقالي (IGC)، أشار مقتدى الصدر في خطبته في صلاة الجمعة إليهم بأنهم دمى الولايات المتحدة الأميركية، مما أكسبه شعبية على المستوى الاقليمي لكونه لم يكن خائفاً من الأميركيين. وكان في الشهر الذي سبق ذلك قد أعلن عن خططه لإنشاء ميليشياته الخاصة وتشكيل حكومة ظل. وباعتباره شاب متطرف، كان في البداية منبوذاً من قِبل الأميركيين ومن قِبل القيادة العراقية على حد سواء، إلا أنه حظي بمكانة في الساحة الدولية بوصفه زعيماً للمعارضة الرئيسية للقوات الأميركية طوال العام 2004.

وبعد الخبر الذي أتى به يوسف، نظرت إلى فيرن التي كانت تقف في زاوية الردهة الرئيسية وتنظر عبر المبنى. كانت تبتسم. لقد مر وقت طويل منذ آخر مرة رأيت فيها ابتسامتها، وعرفت أنها قد اتخذت قرارها. وكرهت أن أكون الشخص الذي يقوم بإبلاغها أنه كان القرار الخاطئ.

مشيت إليها وشرحت لها أن المبنى لم يكن خياراً لأنه مُطالب به فعلاً من قِبل مقتدى الصدر.

قالت، «أعرف ذلك. أنا التي أصدرت أمراً للجيش بطرد أعوانه.»

حدقت فيها وأنا غير مصدقة. وكان كل ما استطعت قوله هو، «ماذا؟»

وشرحت، «وعدت الإدارة الأميركية بتوفير مراكز للنساء. وإذا لم أضغط بكل ما أملك من قوة، لن يحدث ذلك. الإرادة السياسية موجودة. والأمر متروك لي للقيام بالتنفيذ. وإذا لم يقدموا لي ما أحتاج، أنا مستعدة لأخذ المسألة إلى وسائل الإعلام العالمية لإحراجهم.»

قلت، «أفهم ذلك. ولكنك لست مضطرة لأخذ هذا المبنى. فإذا كانت عيون جماعة محلية مسلطة على المبنى، أنت لا تريدين أن يكونوا أعداء لك.»

«كانوا يحتلون هذا المبنى بطريقة غير شرعية. وقد جعلت رجاله يُطرَدون. لقد حاولوا أن يثيروا المشاكل، ولكن من الواضح أن رجال الجيش أقوى منهم بكثير. هذا هو كل ما يفهمه الناس هنا - القوة.»

توقفت للحظة بينما كانت تلقي نظرة استحسان حولها. وأضافت مع ابتسامة، «إن إقدامهم على تقديم طلب تنافسي للمطالبة بالمبنى سيكون موضع ترحيب كبير، ولكن شيئاً ما يقول لي إننا ما زلنا نستطيع الحصول عليه.»

هززت رأسي. صحيح أن سلطة الائتلاف المؤقتة هي التي تقرر الآن. ولكن إلى متى؟ لقد نجحت في جعل رجال الصدر يُطرَدون، ولكنهم يستطيعون العودة بالسهولة نفسها في أي وقت. وعندما يتم تجديد المبنى، سيكون الخيار حتى أكثر جاذبية. ولن يكون الجيش الأمريكي على مقربة، وسيكون الأشخاص الوحيدون الموجودون في المبنى هم من النساء. ولن يتطلب ذلك عبقري لمعرفة من سيكسب النقاش بشأن القوة بين النساء وميليشيا مقتدى الصدر.

لقد فهمت منطق فيرن، وفي الواقع أنني كنت أنا نفسي أخضع للإغراء نفسه قبل أسابيع قليلة فقط. وكان أن عُرض علي مبنى كبيراً مع بركة داخلية في منطقة الكرادة من أجل تحويله إلى مركز للنساء. وكان المبنى مُحتلاً من قِبل الحزب الديمقراطي الكردي (KDP). وقد وقعت في حب المبنى، والبركة بصورة أكثر تحديداً. إلا أن يوسف ومائس قاما بحثي على رفضه.

وكان مكتب الشؤون المدنية يعمل مع الكابتن آن ميرفي من أجل تحديد مبانٍ محتملة لتكون مراكز للنساء في تسع مناطق في كافة أنحاء بغداد. وكانوا يشعرون بالإحباط الشديد بشكل متزايد لأنني كنت أرفض المباني باستمرار. لماذا كنت أقوم بذلك؟ لأن معظم تلك المباني، تقريباً، كانت مأهولة من قِبل أحزاب سياسية قوية. وفي معظم الحالات، كان لدى تلك الأحزاب ميليشياتها الخاصة غير الرسمية. لم يكن بإمكاني أن أحول مثل هذه الأطراف إلى أعداء، فكنت أعيش في حي عراقي بدون حماية، وكنت هدفاً سهلاً.

من خلال رفض مبنى بعد مبنى، كانت هناك مخاطرة قوية في أن تتوقف وحدة الشؤون المدنية عن مساعدتنا في البحث عن مبنى لاستخدامه مركزاً للنساء. إلا أنه، على المدى البعيد، كنت أشعر أن تلك المخاطرة كانت أفضل بكثير من البديل المتمثل في إيجاد أعداء محليين أقوياء لن يغادروا أبداً.

هل كنت أستطيع أن أجعل فيرن ترى ذلك المنطق؟ استدارت مبتعدة عني وبدأت تمشي عبر الردهة وتلقي بنظرات عابرة حول الغرفة. وفي وسط كل تلك الأنقاض، كانت فيرن قد انتقلت عبر الزمن وكان بإمكانها أن ترى المنتج النهائي. وكانت مسرورة بما كانت تتخيل.

وأنا أيضاً سافرت عبر الزمن، ولكن رؤيتي كانت مختلفة كثيراً. إلا أن أمراً ما بشأن فيرن أسكتني. لقد كان جزء مني يدرك أنها قد اتخذت قرارها، وأنه لم يكن هناك أي شيء أستطيع القيام به بشأن ذلك. ولكن كان هناك ما هو أكثر من ذلك، فعزيمتها وشجاعتها استحوذت على إعجابي. وقد ألهمت اعتقاداً بأن النتيجة يمكن أن تكون مختلفة. وقررت أن أتخلى عن دور هادم الفرح، ولم أقل شيئاً.

وكان قراراً ندمت عليه منذ ذلك الحين.

10
ورقة مساومة

◖ كانت فيرن في ثورة اهتياج أخرى. كانت الساعة الثانية صباحاً. وكانت لا تزال تجيب على الرسائل الإلكترونية، ومن غير المحتمل أن تكون قد حظيت بأي فترة من النوم. وكنا طوال الليل نتبادل الرسائل الإلكترونية بشأن ما الذي كان يلوح في الأفق فيما يتعلق بالنضال من أجل حقوق المرأة العراقية.

الموضوع: أولئك الأوغاد.

وأرسلتُ إليها رداً سريعاً، «أي منهم؟»

لقد كان الرد دائماً مختلفاً. أحياناً كانت ثورة الغضب على النظام العراقي الأبوي، وفي أحيان أخرى قد يكون بشأن النساء العراقيات أنفسهن، واللواتي كن يصبحن متفرقات بشكل أكبر وأكبر. وفي أغلب الأحيان كان غضب فيرن يستهدف الأميركيين أنفسهم، مدنيين وعسكريين على حد سواء. وكانت آخر سلسلة من الرسائل الإلكترونية ينصب تركيزها على المقاولين، شكوى لاذعة بشأن واحدة من أكبر شركات المقاولين الأميركيين، وقد بيّنت ببنود مفصَّلة اتهاماتها ضد المقاول.

كانت تكتب الرسائل الإلكترونية بطريقة تصورْتُ أنها الأسلوب ذاته الذي كانت تحضِّر فيه من أجل قضايا المحكمة. كانت ملاحظاتها بشأن

الوقت والتاريخ غاية في الدقة، وكانت تكتب بشكل متكرر أنها لن تسمح بترك المقاول يفلت من العقوبة بشأن مثل هذه التصرفات. كان الفساد الذي تصفه فيرن فظيعاً، وكنت دائماً أشعر بجسدي يتوتر عندما كنت أقرأ قائمتها من الشكاوى: كان يتم إنفاق الملايين من الدولارات على إعادة بناء المدارس، ولكن في معظم الحالات كان العمل الفعلي مجرد دِهان. وملايين أخرى كانت تنفق على إعادة بناء البنية التحتية الصحية، إلا أن الأدوية والمعدات الطبية كان ينتهي بها الأمر في السوق السوداء حيث تباع بثلاثة أضعاف التكلفة.

وكنت أعاني من الشعور بالإحباط ذاته في عملي مع مراكز النساء عندما كنت أحاول العمل مع المقاولين. وكانت الأموال من أجل المراكز النسائية تأتي بشكل أساسي من التبرعات من خلال عقود الحكومة الأميركية. وبعبارة أخرى، لم نكن نحصل على المبالغ النقدية مباشرة، بل كانت ترسل إلى المقاولين الذين كانوا يقومون بتزويد الخدمات بعدئذ. وكانت هذه الخدمات تتضمن إصلاح وصيانة المباني القديمة وشراء المعدات. وكان المقاولون يقومون بتسليم المعدات إلى المركز النسائي، ولكن في كثير من الأحيان كانت هناك فجوة بين ما يتم تسليمه وما هو وارد في الفاتورة. فعلى سبيل المثال، كان يُسجَّل علينا ثمن كمبيوتر متطور جداً مرتفع الثمن، ولكننا كنا نستلم جهاز كمبيوتر أساسي غير مكلف.

كنتُ وفيرن نرفض التوقيع على وثائق التسليم.

لم يكن أبداً من السهل الإصرار على الرفض بسبب مسائل تتعلق بالنوعية. وكانت جميع المنظمات النسائية العراقية تقريباً متلهفة للتوقيع على أي خط منقّط لأنها كانت سعيدة بالحصول على أي شيء لدعم جهودها.

وحقيقة أنني وفيرن كنا نصرُّ على الرفض كانت تعمل بسرعة على جعلنا نتمتع بسمعة في أننا نساء صعبات المراس.

ولكن في حين أن كلتينا كانت تمارس التصرف ذاته، كان نهجانا مختلفين، فقد كنت أحاول أن أتفاوض مع المقاولين وأقوم بالمرور معهم على الفاتورة المكتوبة وأقارنها مع المنتجات التي تم تسليمها. وفي كثير من الأحيان كانت هذه العملية التفاوضية تستمر أسابيع. وكانت فيرن تفتقر للصبر والوقت للتفاوض بشأن أي شيء. وكانت ترفض التسليم وتقوم على الفور بكتابة رسالة استنكار إلكترونية إلى المشرف على المقاول. كانت تصنع أعداءً بسرعة في المعسكر الأميركي.

*　　*　　*

في هذه المرة قامت فيرن بتحويل انتباهها نحو مجلس الحكم العراقي وإلى الدعم الأعمى المقدَّم له من قِبل سلطة الائتلاف المؤقتة بشأن قضايا تتعلق بالمرأة.

وأرسلت فيرن رسالة إلكترونية: «يحاول أولئك الأوغاد أن يُدخلوا قانوناً من شأنه أن يلغي قوانين الأحوال الشخصية للعام 1959». ومرة أخرى قامت بتوضيح المسألة بتفاصيل غاية في الدقة.

كانت هناك مجموعة ضغط قوية داخل مجلس الحكم الانتقالي المعيَّن من قِبل الولايات المتحدة الأميركية، تدعو إلى إدخال قوانين دينية عند تطبيق قوانين الأحوال الشخصية في العراق. وكانت هذه القوانين تغطي

كل شيء من الحق في التعليم إلى حرية التنقل إلى حقوق الملكية إلى الزواج والطلاق والوصاية على الأطفال.

أجبت بكلمة واحدة: مستحيل. لن تسمح النساء العراقيات أبداً بحدوث ذلك. فقد كان إقرار قانون الأحوال الشخصية للعام 1959 موضع حسد لجميع حركات حقوق المرأة في المنطقة، وكان مصدراً لاعتزاز كبير. وقد كفل القانون أن تتزوج النساء العراقيات بموجب قانون مدني بدلاً من قانون ديني وجعل من تعدد الزوجات أمراً أكثر صعوبة ومنح النساء حضانة أطفالهن وفرض حداً أدنى لسن الزواج. وقد اكتسبت النساء العراقيات حقوقهن في هذه المجالات وغيرها من المجالات البالغة الأهمية، في حين كانت بلدان أخرى تكافح. وعلى سبيل المثال، كانت النساء العراقيات يصوتن في ثمانينيات القرن العشرين، في حين كانت النساء السعوديات يكافحن من أجل الاعتراف بهن. وقد كان إقرار هذا القانون قراراً تاريخياً مهمّاً توَّج عقداً من الكفاح من قِبل النساء العراقيات.

ومن ناحية أخرى، إذا تم تفسير قوانين الأحوال الشخصية من خلال عدسة دينية، يكون الوضع قد أصبح رهيباً، ففي جميع التفسيرات الدينية في الشرق الأوسط تقريباً، تقوم قوانين الأحوال الشخصية بوضع المرأة في وضع غير مواتٍ.

ردّت فيرن على الفور، وكان نفاد صبرها مع سذاجتي مفهوماً ضمنياً في رسالة البريد الإلكتروني. لقد كانت تشعر إلى حد كبير بأن المرأة العراقية لن يكون لديها خيار، وأن لدى الأكراد أولويات أخرى أكثر أهمية للتفاوض بشأنها، مثل الحكم الذاتي والفيدرالية، ولن يجازفوا بإزعاج

حلفائهم الشيعة من خلال معارضة قانون الأحوال الشخصية. وكانت معظم الأحزاب السياسية مستعدة للتفاوض بشأن تلك المسألة.

وكنت أؤمن أن النساء سوف يقاومن بقوة.

* * *

لقد أثبتت الستة أشهر التي قضيتها على أرض الواقع ما كنت أعرفه بالفطرة. النساء العراقيات كن يتمتعن بنفوذ. ومن خلال علاقتي بريما خلف، رئيسة جمعية نساء النهرين المستقلة، كنت ألتقي بشكل منتظم مع رئيسات منظمات مختلفة. وكانت تلك النساء في الغالب مهندسات وطبيبات ومحاميات وأستاذات جامعات، وكن يُعتبرَن النخبة في مجتمعاتهن، وفي كثير من الأحيان كانت لديهن شبكاتهن الخاصة غير الرسمية التي كن على استعداد لاستخدامها من أجل تعزيز وضع المرأة في مجتمعاتهن. وقد وصلت بعض هؤلاء النساء إلى أرفع مستويات صناع القرار.

وفي الوقت نفسه، كنت قادرة على التواصل مع النساء على أرض الواقع. كنت أتنقل دخولاً وخروجاً في المناطق الأكثر عزلة في العراق، بما في ذلك المناطق المهمّشة في بغداد. ومثل معظم الفقراء في العالم، كانت هذه المجتمعات تعاني لأن النظرة النمطية التي تم تكوينها عنها كانت تتمثل في كونها تعجّ بتجار المخدرات والقوادين والبلطجية. وفي بعض الحالات كانت هذه الصور النمطية صحيحة. من ناحية أخرى، كانت معظم هذه المناطق مأهولة بعائلات كانت تكافح من أجل تغطية نفقاتها. وفي جميع الحالات، كانت النساء يتحملن وطأة أي عنف، وكل الفقر.

كانت معظم النساء اللواتي عملت معهن أرامل ومطلقات، وكانت بعضهن مجرد مراهقات. وعلى الرغم من صعوبة ظروفهن، إلا أن هؤلاء النساء كن مصممات على صنع مستقبل أفضل. وكانت تدهشني طبيعتهن الصريحة وقائمة احتياجاتهن الواضحة وعزمهن على إيجاد تغيير لأنفسهن. وفي فترة قصيرة لا تتجاوز أشهر قليلة، شاهدت أعداداً لا حصر لها من النساء يدخلن إلى مكتبي مسحوقات، ويخرجن منه مليئات بالتفاؤل.

كان ذلك هو الحال مع سعدية التي عرفت عن برنامجنا من أحاديث الناس. فالعديد من النساء في حيّها كن ملتحقات لدينا أصلاً. وبوصفها أرملة لديها ستة أطفال، كانت تشعر أنه ليس هناك ما تخسره بزيارتها لمكاتبنا في كربلاء. وحضرت سعدية الجلسات الأولى على مضض، ومع مرور الوقت أصبحت منخرطة أكثر في عمل مركز المرأة. لم تكن مشارِكة فاعلة في ورشات عمل التوعية بالحقوق فحسب، بل شاركت أيضاً في دروس النجارة. وقامت سعدية بإدخال طريقة مبتكرة لكسب المال من خلال العمل بالنجارة، وكانت تذهب في كل صباح إلى سوق الخضار والفواكه وتجمع أقفاص الخشب الفارغة. بعدئذ كانت تفكك الأقفاص وتستخدم الخشب لترميم الأثاث.

كانت النساء من طبقات مختلفة تتراوح بين النخبة والقاعدة الشعبية، وكان من المشرِّف العمل مع كل منهن. وكن يجسدن، بصورة خاصة، كل ما يمكن أن تحققه ثقافتنا المشتركة. وقد كان من الممكن بسهولة رؤية السبب الذي كان يجعل قوتهن أسطورية في الشرق الأوسط، فقد مهَّدن الطريق للنساء في المنطقة من خلال كونهن أول من صوتن وأول من شاركن في النظام القضائي، وأول من أظهرن قدراتهن الاقتصادية.

وأصبحت النساء في المناطق الريفية أسطوريات لاستنباطهن طرقاً للبقاء على قيد الحياة في ظل عقوبات عقد التسعينيات. وكانت النساء اللواتي قابلتهن فخورات بقدرتهن على البقاء، وكن مستعدات على الاستمرار بالنضال من أجل مستقبل أفضل، على الرغم من أنهن كن مُنهكات.

ومع ذلك، لم تكن تلك النساء ساذجات، فبصرف النظر عن وضعهن الاقتصادي، كن جميعهن مدركات جيداً لتاريخهن الأبوي العنيف. وفي كثير من الأحيان كن يتحدثن عن الصراعات الداخلية التي أدت إلى إعدام الملك، مما أدى إلى إنهاء الحكم الملكي في العام 1958. وسرعان ما تلى ذلك انقلاب الجنرال عبد الكريم قاسم. وبعد خمس سنوات إلى النظام البعثي ومن ثم الإطاحة بالجنرال أحمد حسن البكر من قِبل صدام حسين في العام 1979. وقد سمعْتُ من الكثير من النساء من مختلف الخلفيات الاقتصادية الاجتماعية أن صعود صدام كان بداية النهاية. وعلى الرغم من أن البلاد تمتعت بازدهار على أحد الصعد، إلا أن نظام صدام كان سيؤدي أيضاً إلى إعدام المئات وإلى حرب العراق مع إيران في ثمانينيات القرن العشرين، وإلى غزو الكويت وحرب الخليج الأولى وثلاث عشرة سنة من العقوبات وإلى حرب الخليج الثانية.

وعلى مدى العقود القليلة الماضية، أرغِمت النساء في العراق على البقاء في مكان خلفي في مسرحيات صدام، وكن يُستخدَمن كدعائم عند الحاجة. وقد جسَّد نهج صدام في قضايا المرأة سعيه للسلطة على الطريقة الميكافيلية. فمن ناحية، كان معروفاً جيداً عن صدام تشجيعه للنساء في أماكن العمل، ولتعليم النساء. ومن ناحية أخرى، كان لا يتورع عن استخدام النساء كورقة مساومة لكسب دعم القبائل المحلية. فعلى سبيل

المثال، قام صدام بتعزيز القوانين العلمانية، ولكنه كان مستعداً، خلال تسعينيات القرن العشرين، لغض الطرف عن جرائم الشرف من أجل استرضاء العشائر. وتحت ذريعة محاربة الدعارة، قامت قوات فدائيي صدام في العام 2000 بقطع رؤوس مائتي امرأة «متمردة» وألقوا برؤوسهن أمام عتبات منازل عائلاتهن في عرض علني.

وفي الوقت الحاضر، أدركت النساء العراقيات ضرورة أخذ زمام الأمور في أيديهن، وناقشت الكثيرات أن السلطة تُركت لفترة طويلة في أيدي الرجال بدون منازع. وأدركن أن هناك فراغاً تم إيجاده، والكثيرات كن مصممات على أن يكنّ جزءاً من أي هيكل سلطة سوف يقمن بالتقدم لشَغلِه. وكان تركيز النساء منصبّاً على المرحلة النهائية من اللعبة. وكن يطورن استراتيجيات للقفز إلى الأمام، ورفضن أن تؤدي العلامات المحيطة بهن إلى تثبيط عزائمهن.

كانت تلك العلامات كثيرة، فبعد تسعة أشهر من سقوط النظام، كان غبار الحرب قد بدأ للتو في الترسب، وكان من الواضح أنه لن يتم الدفاع عن حقوق المرأة من الخارج. وكانت المسؤولية تقع على كاهل المرأة العراقية في اتخاذ الإجراءات من الداخل. وقد قام السياسيون العراقيون وقادة قوات الاحتلال الأميركي بإلقاء خطابات كانت تعِد بحقوق المرأة، ولكنهم لم يتخذوا أي إجراء أبعد من تقديم جوائز ترضية. وقد تطلب التهديد لوضع المرأة القانوني والاجتماعي -وتلقى- رداً على كافة المستويات، من القاعدة الشعبية وحتى النخبة الحاكمة. وعندما رفضت سلطة الائتلاف المؤقتة جعل قاضية، تم تعيينها، تحلف اليمين، بالاستشهاد بأسس دينية وثقافية، كافحت من أجل حقها في أن تصبح قاضية بالاستعانة بالتعاليم الإسلامية كسلاح لها.

وقد تقبلت النساء هذه الخطوات نحو الخلف بوصفها مجريات عادية، وما زالت لديهن ثقة في أن مصالحهن كانت بيد سلطة الائتلاف المؤقتة، وذلك إلى أن تتحول توقعات فيرن إلى حقيقة.

* * *

في 29 كانون الأول/ ديسمبر من العام 2003، وبعد أقل من ثلاثين دقيقة من المناقشة، صوَّت مجلس الحكم الانتقالي لصالح القرار 137. وكان المُدافِع الرئيسي عن القرار 137 هو عبد العزيز حكيم، زعيم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق (SCIRI). وكان المجلس طرفاً سياسياً فاعلاً هاماً، وكانت الكثير من الأحزاب السياسية التي تدعم قضايا المرأة لا تريد أن تخسر المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق كحليف لها.

وأصيبت فيرن وناشطات أخريات في مجال حقوق المرأة في كافة أنحاء البلاد بنوبة من الجنون، فقد كان القرار 137 سوف يؤدي إلى العودة بحقوق المرأة قروناً إلى الوراء. وفي حين أن النساء العراقيات كن يبحثن عن طرق لتحقيق قفزات إلى الأمام، فقد وجدن أنفسهن الآن في الوضع الذي لا تحسدن عليه والمتمثل بالمكافحة من أجل المحافظة على الوضع الراهن.

اتحدَت النساء العراقيات ضد هذا القرار، وحتى أنهن خرجن إلى الشوارع في واحدة من أول الاحتجاجات الجماهيرية منذ ثلاثين عاماً في شوارع بغداد. وكانت هؤلاء النساء من بين الأعضاء الأوائل للمجتمع المدني في ممارسة الإدارة الديمقراطية والمتسمة بالشفافية، وسرعان ما شكلن شبكة النساء العراقيات من أجل محاربة هذا القرار، وقمن بانتخاب

لجنة توجيهية، وقامت الشبكة بسرعة بتنظيم احتجاجات ومناشدات ضد إلغاء قوانين الأحوال الشخصية للعام 1959.

اعتبرت فيرن، وغيرها من الناشطات في مجال حقوق المرأة، أن حكومة الولايات المتحدة الأميركية تتحمل المسؤولية، وادعين أن مجلس الحكم الانتقالي كان امتداداً لسلطة الائتلاف المؤقتة في العراق، ذلك أن مجلس الحكم الانتقالي كان قد تم تعيينه من قبل الولايات المتحدة الأميركية. ونتيجة لذلك، إذا تم تحويل القرار إلى قانون، سيكون بمثابة انتهاك للقانون الدولي، كما هو محدد في تشريعات لاهاي في العام 1907. وقد منعت تشريعات لاهاي إدخال أي تغييرات على القانون المدني من قِبل أي سلطة احتلال. وبموجب اتفاقيات لاهاي، كان مجلس الحكم الانتقالي مفوَّضاً فقط باستعادة النظام العام والسلامة العامة.

لقد أوفت فيرن بوعدها في نقل القضية إلى وسائل الإعلام. وقد عملت بشكل وثيق مع القيادات النسائية العراقية من أجل إرسال تقارير عن دعم حكومة الولايات المتحدة الأميركية لإفساد حقوق المرأة، والتي استخدمت تعابير مثل «التحرش الجنسي» و «اضطهاد المرأة» لكي تحظى بأكبر قدر ممكن من الانتباه، حتى أنها ساعدت على تسريب رسالة إلكترونية من مسؤول في وزارة الخارجية يشير إلى صفية السهيل، وهي إحدى الناشطات البارزات في مجال حقوق المرأة في العراق، بوصفها إصلاحية ذات صوت مرتفع. وقد ربطت هذه الرسالة الإلكترونية بشكل أكبر دعم وتسامح حكومة الولايات المتحدة الأميركية مع قيام مجلس الحكم الانتقالي بتهميش المرأة.

كانت نتائج القرار 137 على الحركة النسائية كارثية أكثر بكثير مما كان بإمكان فيرن وغيرها أن يتصورن. وطوال الأشهر الستة السابقة، كانت

المنظمات النسائية تُظهِر قوة التعاون بين كافة أشكال الانقسامات الدينية والعِرقية. وقد ساعدتُ في تنظيم بعض الاجتماعات بين جماعات نسائية من كافة أنحاء البلاد، وكنت مندهشة دائماً من فسيفساء الثقافات العراقية التي كانت تستجيب. وكانت النساء العلمانيات يتشاركن طاولة مستديرة مع نظرائهن الأكثر تحفظاً، وأبدت العربيات حماساً في التعلُّم من الأكراد.

وعلى الرغم من أن النساء كن متحدات ضد القرار 137، إلا أن الخطاب في الدفاع عن حقوق المرأة أصبح مسبباً للشِقاق، وبدأت الجماعات النسائية الدولية بمهاجمة القيم الإسلامية الأساسية، وقامت النخبة العلمانية من داخل العراق بتوحيد أصواتها، وكان من الممكن بسهولة أن تتحول الشعارات في الاحتجاجات إلى آراء نابعة من مشاعر معادية للإسلام. وقامت الأحزاب المحافظة، مثل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، بانتهاز الفرصة للتنديد بالاحتجاجات ضد القرار 137 بوصفها مدبَّرة من النسويات الغربيات، وبالتالي مقلِّلاً من أهمية ثورة الغضب الطبيعية بين النساء العراقيات على هذا الاعتداء على حقوقهن. وفي الوقت نفسه، شعرت النساء في المجالات المحافظة أنه يتم دفعهن نحو موقف دفاعي، فلديهن إيمان راسخ في الشريعة الإسلامية، وكن على ثقة في أن الشريعة الإسلامية هي الوسيلة الفضلى لحماية حقوقهن، وقمن بالقفز على الفور نحو الجانب الآخر من الطيف وطالبن في أن تكون جميع قوانين الأحوال الشخصية متجذرة في الشريعة الإسلامية. وأدى النقاش إلى بدء الشِقاق بين طرفين متناقضين: قانون علماني مقابل قانون إسلامي، ومؤيدون للنساء مقابل مؤيدون للأسرة.

أصبحت حقوق المرأة، التي كانت في السابق عاملاً موحِّداً، مصدراً للنزاع.

كان كِلا الطرفين المتناقضين هما الأقلية، وكانت غالبية النساء العراقيات ممزقات. وعندما كانت الأحزاب السياسية تقدم النقاش ببساطة على أنه تفضيل الإسلام على العلمانية، كانت الغالبية العظمى تختار الإسلام. وعندما كانت العلمانيات يقمن بتوضيح الحقوق التي سوف يفقدنها، كانت النساء تشعرن بالخوف. لقد كانت النساء العراقيات تردن حماية حقوقهن، ولكنهن لم تردن فقدان هويتهن الإسلامية. والأهم من ذلك، مع زيادة الهجمات التي تربط إذلال النساء بالإسلام، شعرت حتى أكثر النساء تحرراً برغبة ملحة قوية نابعة من الكبرياء بفضح الأساطير المعادية للإسلام.

انضممت إلى النساء في الوسط. وفي النتيجة، هذا نضال كنت أواجهه طوال حياتي، فقد كانت الموازنة بين معتقداتي الإسلامية وارتباطي مع المفاهيم الديمقراطية الغربية المتعلقة بالديمقراطية والحرية عملاً أشبه بعمل الأرجوحة. وقد كانت هذه القيم تُقدَّم للمرأة العراقية على أنها منافية لبعضها البعض. وكان يُقال للمرأة العراقية إنه ليس أمامها سوى خيار واحد. وفي الروح الحقيقية للحلم الأمريكي، كنت أريدها جميعها. أردت أن تكون النساء العراقيات قادرات على حماية حقوقهن من خلال حكم القانون بناء على أفضل الممارسات العالمية، وكنت أرى أيضاً ضرورة أن يتم الدفاع عن حقوقهن من خلال استخدام التفسيرات الإسلامية لضمان قوة الجذب على مستوى المجتمع. وبعبارة أخرى، ما الفائدة من وضع قانون يحدد سن الزواج عند سن السادسة عشرة إذا لم تكن هناك طريقة للحكومة لفرض الالتزام به؟ فلا بد أن يكون هناك وعي يبين ضرورة حماية الفتيات من المخاطر التي يمكن أن يجلبها الزواج المبكر عليهن وعلى عائلاتهن.

لم تكن المشكلة في القرار 137 هي ببساطة إدخال تطبيق الشريعة الإسلامية في قانون الأحوال الشخصية. لقد كانت المشكلة الجوهرية هي أنه لم تكن هناك أي محاولة لتحديد الشريعة الإسلامية. ما هي التفسيرات التي سيتم استخدامها؟ سوف تُترَك النساء عرضة لَمواطِن الضعف التعليمية ومدى الفهم عند رجال الدين المحليين، فقد يقوم رجل ضليع في الدين من النجف بإصدار حكم ليبرالي لصالح المرأة في الميراث، في حين قد يقوم رجل دين من البصرة بحرمان أي امرأة من أي حقوق. وبدون الاتفاق على النظام الذي سوف يتم تنفيذه، ستكون الأحكام في شؤون المرأة اعتباطية تماماً.

كان يتم استخدام كلمة الشريعة كما لو كان لها تصنيف موحد محدد مسبقاً، وكان هناك خوف مبرر من أن هذا الفهم يمكن أن يؤدي إلى انتهاكات خطيرة لحقوق المرأة، مثل الحرمان من التعليم والزواج المبكّر القسري والعنف الأسري والإعدام رجماً بالحجارة والجَلد العلني.

لقد أدى الانقسام بشأن القرار 137 إلى جعل حركة حقوق المرأة العراقية تفقد ميّزتها النسبية في امتلاكها لقاعدة عضوية عريضة، ففي حين أن الأشهر الأولى من الاحتلال كانت تطلب التمييز بين البعثيات وغير البعثيات، أخذ هز الإصبع على الانقسامات الطائفية والعرقية يصبح الآن هز إصبع على الانقسامات الدينية والعرقية. إنها شيعية، إنها سنية، إنها كردية. لقد كانت هذه الجمل تصبح متكررة بشكل أكبر وفي كثير من الأحيان تأخذ طابعاً ازدرائياً.

وفي بعض الحالات، كان الانقسام يتمحور حول الملابس، وكانت النساء يصنفن بعضهن البعض بناءً على كثرة أو قلة ما يرتدين من ثياب.

ومن الممكن أن يتم نبذ امرأة مغطاة من الرأس حتى أخمص القدمين بوصفها دمية متخلفة للمحافظين الشيعة، في حين كان يتم النظر إلى النساء المكشوفات على أنهن بيادق للنسويات الغربيات.

ومع مرور الوقت أصبحت الملابس تلعب دوراً حتى أكبر. وقد كانت روعة المجتمع المدني العراقي في الأشهر الأولى تتمثل في التعايش بين النساء من مختلف الخلفيات، كل واحدة ترتدي ملابسها بطريقة فريدة ترمز إلى مستوى الراحة الذي تشعر به. والآن كانت النساء ذاتهن، اللواتي كن قبل بضعة أشهر يجلسن إلى جانب بعضهن البعض يناقشن كل شيء بدئاً من النظام السياسي إلى تجديد المنهاج الدراسي في المدارس الأساسية، يقمن بمهاجمة بعضهن البعض. ولم يؤدِ ذلك سوى إلى جعل تحديد الحلفاء أمراً أكثر صعوبة بالنسبة للنساء.

وقد كانت سلامة الخفاجي واحدة من أقوى النساء العراقيات اللواتي ظهرن في هذا المشهد السياسي المشحون. كانت ترتدي العباءة السوداء التقليدية. ومع الاتجاه في التصنيف بناء على المظهر الجسدي، قوبل تعيينها في مجلس الحكم الانتقالي بردود فعل واحتجاجات قوية من قِبل الجماعات النسائية العراقية البارزة. ومن ناحية أخرى، أثبتت سلامة، مع مرور الوقت، أنها امرأة مستقلة وعلى استعداد لتقديم تضحياتها الخاصة من أجل العراق الجديد. وقد كانت هذه التضحيات ستتضمن حياة ابنها البالغ سبعة عشر عاماً، والذي قُتل أثناء محاولة لاغتيالها.

شعرت أن النقاش حول القيم العلمانية والقيم الإسلامية قد قلّل إلى حد كبير من شأن المخاطر الأكبر للقرار، وكان يتم التقليل من شأن القرار بوصفه مسألة تخص المرأة لوحدها، ولكنه ضَرَب نسيج المجتمع المدني

العراقي ذاته، والذي كان آخذاً في الظهور. لقد كنت أكرر للمسؤولين الأميركيين أنه كان ينبغي اعتبار النساء بمثابة باروميتر للنجاح داخل العراق، فقد كانت مكانة المرأة تسلط الضوء على تقدم، أو عدم تقدم، المجتمع العراقي على عدة أصعدة. وليس هناك ما يعطي مثالاً لذلك أفضل من القرار 137. ففي الأشهر الأولى على أرض الواقع، كان أي حديث حول أن يُصبح العراق دولة دينية، مثل العربية السعودية أو إيران، يُقابَل بالرفض من جانب المحللين السياسيين والعراقيين المحليين على حد سواء. ويمتاز التاريخ العراقي بإرث تاريخي قوي، مع إدراك أن الدين كان مكانه المنزل، وليس المجال العام، وبصورة خاصة ليس المجال السياسي.

وقد شكل القرار 137 تحدياً قوياً لتلك الفرضية.

وفي الوقت ذاته، عمل إدخال القرار في كانون الأول/ ديسمبر من العام 2003 على تسليط الضوء على التوترات المتصاعدة بين الفرق العِرقية والطائفية. وكان التأثير على حركة المرأة نموذجاً مصغراً للأثر على البلد ككل. وقد أنذر إدخال قوانين كان يتم تفسيرها من قِبل كل طائفة، بالانقسامات المستقبلية بين المواطنين العراقيين. وكانت قوانين الأحوال الشخصية العراقية للعام 1959 متجذّرة في القوانين العلمانية، ولكن كل هذا الوضع كان نذيراً بصراع داخلي للبلد بأكمله، فقد كان هو الإدخال الأول للطائفية الرسمية كقاعدة أساسية للحياة الاجتماعية والسياسية في العراق.

وفي نهاية المطاف، تم إلغاء القرار 137. ولكنه عاود الظهور على مدى السنوات اللاحقة في أشكال جديدة، ما يجعل من الواضح أن المرأة العراقية كسبت معركة صغيرة. وكانت الحرب لم تبدأ بعد.

11
مطلقو الصفارات

احتفلْتُ بالعام السادس الجديد في بغداد من خلال البحث على بيت كلب.

أثناء إحدى المشادات العشوائية عند نقطة تفتيش خارج المنطقة الخضراء، سألني جندي أميركي عن ترتيبات معيشتي. وعندما اكتشف أنني كنت أعيش في «المنطقة الحمراء» (التي كانت إلى حد كبير العراق كله باستثناء المنطقة الخضراء)، بدأ على الفور بإلقاء محاضرة عن السلامة الشخصية. وقلت له إنه لم تسقط أي قذائف هاون على منزلي في الأسبوع الفائت. هل يمكنك أن تقول الشيء ذاته عن المنطقة الخضراء؟

ضحك ووافق على أن المنطقة الخضراء لم تكن المكان الأكثر أمناً للبقاء فيه، أيضاً، فقد كان هناك هجومين على فندق الرشيد، وأصبحت الهجمات بقذائف الهاون طقساً مسائياً.

ومع ذلك، كان في كلماته بعض الحقيقة، وكنت الآن الوحيدة من بين المدنيين الأميركيين التي تعيش بدون حماية مسلحة في حي عراقي. ووجود كلب حراسة لا يمكن أن يكون مؤذياً.

في العام 2004، كانت المواقف تتبدل بصورة دراماتيكية، ففي الأشهر الستة الأولى، كانت قوات التحالف على قناعة بأن التمرد سوف

ينتهي عندما يتم القبض على صدام حسين. وتم القبض على صدام حسين في كانون الأول/ ديسمبر من العام 2003، ولكن التمرد استمر. وقد كان الإحباط لعدم تحقق هذه النبوءة منعكساً في مواقف الجنود الأميركيين، ففي العام 2003 كان الجنود الأميركيون يشعرون بسعادة غامرة لرؤية المدنيين العراقيين، وكانوا يمزحون معي بشأن الانصهار بين لغتي الإنجليزية المتقنة والطريقة «المحلية» التي أرتدي فيها ملابسي. وكانوا يسألونني عن المطبخ العراقي ويرجونني أن أحضر لهم كباب.

ووجدت موقفي تجاه الجنود يذوب. لقد كانوا أشخاصاً جيدين، ومع مرور الوقت بدأت أميزهم عند نقاط التفتيش المختلفة، وكانوا يتذكرونني دائماً. وكانوا يقدمون لي نصائح أمنية، وفي كل مرة كنت أندهش بدرجة صغر سنهم. ومع ذلك، كان الأمر الأكثر أهمية هو مدى رغبتهم في فهم البلد الذي أصبحوا الآن يعيشون فيه. وعندما دخلنا جميعاً في العام 2004، تحوّل هذا الموقف، وتم استبدال موجة من الجنود الأصغر سناً والمنقطين بحب الشباب بالجنود الذين دخلوا بوصفهم جيش تحرير.

لم يقم السكان المحليين بالترحيب بهؤلاء الجنود بالورود والشاي، وبدلاً من ذلك أمطروهم بالأسئلة عن الكهرباء والماء والتوظيف. وكان هؤلاء الجنود خائفين واكتسبوا السمعة السيئة في كونهم صبيان يقومون عادة بالرد بعنف ومستعدين لرفع أسلحتهم عند سماع أدنى ضجيج. وكانوا ينظرون إليّ بريبة في كل مرة أجازف فيها بالدخول إلى المنطقة الخضراء، وكانوا ينظرون إلى جميع العراقيين باحتقار. وكان ذلك مظهراً من مظاهر الصورة الأكبر: تحوّل الجيش الأميركي من محررين إلى محتلين في عيون الشعب العراقي.

كانت صديقة تعمل في المنطقة الخضراء ترافقني، وسمعت المحادثة مع الجندي بشأن الحصول على كلب. وفي اليوم التالي قامت بترتيب جولة في حديقة الحيوان العراقية، التي كانت لا تزال مغلقة أمام الجمهور.

الكلاب، في معظم أنحاء العالم العربي، غير مرغوبة إطلاقاً. وكان الأطفال العراقيون يقومون بالإساءة إلى أي كلب شارد يجوب الشوارع، لذا كان الجنود الأميركيون يجمعون الكلاب الضالة ويؤونها في حديقة الحيوانات.

وعلى الرغم من أن ذلك بدا مبشراً بالنسبة لي، إلا أن العناية بحديقة الحيوانات -مأوى لبؤات وكلاب الدوبرمان الخاصة بعُدَي- كانت سيئة. وكانت الإشاعات في الشوارع تقول أن الحيوانات كانت تموت من الجوع. وكان العراقيون يتهامسون فيما بينهم عن أنه كان يتم إطعام الحيوانات لحوم بشر فقط من آخر ضحاياه، وأن الحيوانات الآن كانت ترفض جميع أنواع الأكل الذي يقدم إليها من قِبل الجيش الأميركي.

إلا أن الحيوانات لم يكن يبدو عليها أنها تموت من الجوع. وفي الواقع أنها كانت تبدو مليئة بالحيوية والخطر. وعندما اقتربت من منطقتها، أطلقَتْ العنان لسيل من العواء الذي جعلني أرتعد من الخوف. اتجهت بسرعة نحو الحيوانات الأصغر. أخذني الجنود نحو صف من الأقفاص المليئة بالكلاب بأشكال وأحجام مختلفة، وكان هناك العديد من الجراء وكلاب الرعي الألمانية الأصيلة، وحتى زوج من كلاب الدوبرمان. ولم يكن بإمكاني تخيل امتلاك أحد تلك الحيوانات الأليفة، على الرغم من أنني حاولت بقوة أن أتصور ذلك.

بدلاً من ذلك، كانت هناك كلبة صغيرة في الزاوية الخلفية تعلقت بها عيناي. وكانت الوحيدة من الكلاب التي لم تكن تعوي. كانت تقف في

الزاوية هادئة وصامتة. ووقعت في حبها على الفور. كان لونها قشدي مع بقع بنية، وكانت لديها عينان بلون بني داكن جداً. أشرت إليها وأبلغت الجندي أن ذلك هو الكلب الذي أريد. أصدر صوتاً كالشخير، وأدلى بتعليق ساخر بشأن اختياري أسوأ كلب حراسة على الإطلاق. ولم أسمعه لأن الكلبة الصغيرة كانت قد استقرت فعلاً بين ذراعي.

لقد كنت في حالة ذهول.

أسميتها قشطة. وأحببت أيضاً فكرة أن الكلمة تعني باللغة المصرية العامية «روعة.»

ومع قشطة بين يدي، شرعت في البحث عن بيت كلب. لقد كان هناك شيء لا يصدق بشأن البحث عن شيء عادي وسط هذه الفوضى. وشعرت كما لو أنني بدأت في الاستقرار.

* * *

كان العمل يزدهر، وقد تمكنّا من ضم أكثر من خمسمائة مشاركة في بغداد والحِلة وكربلاء، وانطلق برنامجنا للتدريب على مهارات العمل بشكل فعال. وإضافة إلى تقديم التدريب في المهن المحافِظة أكثر، مثل نسج السجاد وتصفيف الشعر، قمنا بتقديم دورة تدريبية غير تقليدية في النجارة، والتي استفادت منها سعدية بنجاح كبير. ولم تكن الوحيدة، إذ أنه بسبب العدد الكبير من الأرامل والمطلقات اللواتي لم يكن من المسموح لهن أن يستدعين نجاراً ذكراً إلى داخل بيوتهن، كانت هناك فرصة عمل متخصصة للإناث للعمل في مهنة النجارة.

كان مكتبنا في الشواكة خلف شارع حيفا قد بدأ العمل في أيلول/سبتمبر من العام 2003، وقمنا أخيراً بتوظيف بعض الإناث للعمل مع منى. وكانت النساء اللواتي انضممن إلى الفريق قويات ومتحمسات لتعظيم أية فرصة لجعل العراق مكاناً أفضل للنساء. وقد قمت بتوظيف نساء من المناطق التي كنا نخطط للعمل فيها، وقد بذلت جهداً واعياً كي لا أقتصر على النساء من النخبة والمهنيات. وفي الواقع، على مدى السنتين التاليتين، كانت النساء اللواتي ارتقين إلى مستوى التحدي المتمثل في مساعدة النساء العراقيات الأكثر تعرضاً للخطر والأكثر تهميشاً، قد أتين من المناطق الأكثر حرماناً في بغداد. وكانت هؤلاء النساء يَجُبْن شوارع مدينة الصدر ومنطقة الحرية ومنطقة الشعلة بثقة لأن هذه المناطق كانت مجتمعاتهن.

وكانت المدرِّبات مصدر إلهام حقيقي، وقد انعكس ذلك بوضوح في قوة وتضامن النساء اللواتي شاركن في برامجنا. وبعد ستة أشهر، كانت النتائج ملهِمة بشكل رائع. فالعديد من النساء اللواتي أخرجْنَ بناتهن من المدارس في حقبة العقوبات، كنَّ الآن يُعِدن تسجيلهن.

والأهم من ذلك أن الروابط بين النساء في المجموعة كانت مؤثرة، فخلال إحدى الجلسات اشتكت إحدى العضوات من أن عائلتها لا تستطيع أن تتحمل تكلفة الفواكه. وقد تحسرت لأنها لم تذق طعم البطيخ منذ أكثر من عقد من الزمن. وكانت إحدى النساء، التي كانت من بين أوائل المُنضمات إلى البرنامج، قد استخدمت الأموال التي تلقتها للبدء بعمل كشك لبيع الفواكه على جانب الطريق. وفي الاجتماع التالي قامت بإحضار بطيخة للتشارك بها مع المجموعة.

لقد رأيت التحول الأعظم يحدث في منى، فمع الراتب الذي أصبحت تكسبه الآن، كان بإمكانها أن تستأجر مكاناً خاصاً بها. وقد اشترت أيضاً خزانة جديدة، وحتى أنها أصبحت تضع أحمر الشفاه. وحيث أنها لم تعد مقيدة في منزل أهل زوجها، كانت منى الآن تتنقل بين ثلاث محافظات، واضعة برامج جديدة، وتستكشف مشارِكات محتملات في البرنامج.

لقد كان وجود هؤلاء النساء حولي أمراً يبعث على الارتياح. والمفارقة هي أنني في الشهور الستة الأولى التي قضيتها في العمل في قضايا المرأة، كنت معتمدة بشكل كلي على الرجال. أولاً، كان هناك طاقم الموظفين الذكوري في منظمة «نساء من أجل نساء» الدولية. لقد أصبح يوسف وفادي ومائس شرايين حياتي، فقد كنت معتمدة عليهم في كل شيء من الأكل إلى الماء إلى القدرة على التنقل بحرية في كافة أنحاء البلد. وفي غضون أشهر، أصبح من الواضح أن أي نجاح في إطلاق البرنامج سوف يكون مرتبطاً بهم بشكل مباشر. وفقط بعد مرور سنوات أدركت تماماً مدى إخلاصهم، وكانت المخاطر التي كانوا يعرضون أنفسهم لها هي السبب الوحيد الذي مكنني من مغادرة العراق على قيد الحياة. وكان مارك قد غادر البلد قبل أشهر، وكان رفاقي الثلاثة بجانبي منذ طلوع الشمس وحتى الغروب وأكثر.

ثانياً، كان هناك الزعماء الذكور في المجتمعات، فمن ديالا إلى كربلاء إلى تكريت، كان الشيء الوحيد الذي بقي ثابتاً في جميع المجتمعات التي زرتها هو ضرورة الالتقاء بالوجهاء الذكور قبل اللقاء مع أي امرأة. وكان علي أثناء رحلاتي في كافة أنحاء البلاد أن أجتمع في غرفة مليئة بالرجال من

أجل وصف خلفية وتاريخ المنظمة بالتفصيل، وتوضيح البرامج التي نخطط لإقامتها من أجل النساء في مجتمعهم. ومن ثم كنت أجيب على كافة أنواع الأسئلة المطروحة من قِبل الرجال. وكانت معظم الأسئلة تقريباً شخصية. هل كنت متزوجة؟ لماذا لا؟ أين كان والدي؟ ما هي خلفيتي؟ ولم يكن لدي أبداً خيار بعدم الإجابة عن هذه الأسئلة الشخصية. وبالنسبة للعشائر العراقية، يكون الخط الفاصل بين المهني والشخصي رفيع للغاية. وإذا كان لي أن أُمنح وصولاً للمجتمع، وخصوصاً للنساء، فقد كانوا يريدون تطمينات بأنني كنت شخصاً يتمتع بحسن الخلق.

كانت المحادثات في جميع المدن التي زرتها تقريباً، التي أجريتها متماثلة بشكل ملفت، فبعد أن كنت أجيب عن العديد من الأسئلة الشخصية، كان تركيزهم يتحول إلى عمل البرنامج، مستخدمة خلفيتي للتعامل مع مخاوفهم الأكبر، وكانت الصيغة المهذبة للانتقال من الحوار عن خلفيتي الشخصية إلى تفاصيل برنامج «نساء من أجل نساء»، «يا أخت، أنت من خلفية مسلمة. وتفهمين ما الذي نعنيه عندما نقول أن نساءنا لسن نساء غربيات.»

وفي بعض المناطق العشائرية، كان الاستجواب مباشراً أكثر. وكان المصدر الأكبر لمخاوفهم، «كيف يمكننا أن نعرف أنك لست عميلة غربية أتت لغسل دماغ نسائنا؟»

وكان جوابي في كلتا الحالتين نفسه. جميع آرائي بشأن حقوق المرأة جذورها راسخة في الأعراف الإسلامية. وكنت أشرح مدى قوة إيماني بأن رسالة الإسلام تبشر بالعدالة والتغيير الاجتماعيين. وكنت أشعر أن واجبي كمسلمة أن أعمل مع النساء في الصراع للمساعدة في نضالهم الشخصي

للتحول من ضحايا إلى ناجيات إلى مواطنات فاعلات. وكنت أحياناً أذكرهم أن النبي محمد ﷺ كان واضحاً في خطبة الوداع بأن النساء كنّ أصولاً هامة للمجتمع. وكنت أشير إلى العديد من الآيات القرآنية التي تشدد على المساواة بين الرجال والنساء. وكنت أبيّن لهم مدى اعتزازي بالتقاليد الإسلامية التي تزخر بتاريخ مجيد من النساء المؤثرات. وكنت أمزح بشأن التفاخر أمام زميلاتي الأميركيات في أن رسالة الإسلام قد انتشرت بفضل نفوذ وثروة امرأة -سيدتنا خديجة- زوجة الرسول ﷺ.

وفي كل حالة، تقريباً، كان الرجال يُظهِرون طمأنينة واضحة من أن الإسلام كان هو نقطتي المرجعية في العمل مع حقوق المرأة. وفي بعض المناطق الأكثر محافظة دينياً -مثل الصدريين أو عشائر المنطقة الغربية- زودني الرجال بمزيد من التفاصيل عن المكانة الرفيعة التي تحتلها النساء في الإسلام.

وشرح لي رجل كبير في السن من منطقة الحرية، «هل تعلمين أن للمرأة الحق في جعل زوجها يدفع نفقات الرضاعة الطبيعية؟» وقال لي إن ذلك إقراراً بدور الأم بالمساهمة في تنمية المجتمع، وهي واحدة من السبل التي دعم فيها الإسلام استقلالية المرأة اقتصادياً. وأضاف قائلاً إن أي ممتلكات تكتسبها المرأة من عملها الخاص أو عن طريق إرث تكون ملكاً لها بشكل مستقل عن زوجها.

أجمل لي ابن زعيم قبَلي في الفلوجة النساء في السرد التاريخي للإسلام. وكانت قصة أم عمارة من بين القصص التي حدثني بها. وأم عمارة هي امرأة عاشت في زمن النبي ﷺ وحاربت في الكثير من المعارك. وشرح أنها كانت معروفة بفعاليتها في استخدام السلاح، وصرح النبي ﷺ أنها كانت أفضل من معظم الرجال.

وأشرت إلى ما كنت آمل أنه كان أمراً بديهياً: في وقت ما من تاريخنا، فقدنا تلك التقاليد الرائعة، وعانت النساء من العواقب.

وفي معظم الحالات، كانت المحادثة كافية لمنحي إذناً باللقاء مع النساء في المجتمعات.

إلا أنه في حالات قليلة، لم تكن حجتي الإسلامية كافية، وكان خوفهم الأساسي أن أقوم، بوصفي ممثلة لمنظمة غربية، بإفساد النساء ضد الرجال، وإثارة النزاع في المجتمعات. وكان الرجال يناقشون أنه طالما كان هناك رجال في العائلات الممتدة للنساء، فستتم رعايتهن جيداً.

كنت في مثل هذه الحالات ألجأ إلى استراتيجية ورقة غير متوقعة قائمة على السؤال: كم عدد النساء في منزلك؟ ويوجد لدى معظم الأسر في المناطق الفقيرة عدد من الأرامل والمطلقات والنساء غير المتزوجات تحت سقف واحد. وقد أطلِق على الحرب الإيرانية-العراقية (1980-1988) لقب حرب العوانس بسبب العدد الكبير من النساء غير المتزوجات اللواتي تُرِكن وحدهن من قِبل الأعداد الهائلة من الرجال الذين تم إرسالهم إلى خط الجبهة. والأسوأ من ذلك، الكثير من النساء تُرِكن معلقات، لأن أزواجهن كانوا في عداد المفقودين. وفي بعض الحالات يتم افتراض أنهم سجناء حرب في إيران، ولكن معظمهم اختفوا في وسط الليل أثناء مداهمات البعثيين الكثيرة.

وكلما كنت أطرح السؤال على الرجال عن عدد النساء تحت أسقف منازلهم، كان الجواب عادة في المتوسط ثلاث نساء بالغات وأطفالهن، إضافة إلى عائلة الرجل الخاصة. ولم يكن من غير المألوف لعدد النساء أن يكون ضعف هذا العدد. وكنت أشير بطريقة دبلوماسية إلى أن هؤلاء

النساء كن عبئاً إضافياً على أهل منزله، وإلى أن موارده المحدودة يتم استنزافها بطريقة غير مريحة. ويوجد جزء أساسي من برنامج «نساء من أجل نساء» يتيح لهن توليد دخلهن الخاص. وكنت ألمح بمهارة أن هذا الدخل الإضافي لن يعمل فقط على تمكين المرأة في برنامجي، ولكنه سوف يخفف بشكل كبير من العبء على أرباب الأسر الذكور الذين كانوا يكافحون لإطعام أبنائهم.

والطريقة الثالثة التي كنت أعتمد فيها على الرجال، كانت تنطوي على إيجاد شخص داخل المجتمع ليقوم بعملية تقديمي إلى زعماء المجتمع، فلم يكن بإمكاني الظهور بصورة مفاجئة في وسط مدينة وأعلن أنني كنت هناك لكي أناقش برامج المرأة وأناقش أدوار المرأة في الإسلام. فكان لا بد من وجود شخص معروف ومقبول في المجتمع ليقوم بتيسير تقديمي لعرضي. وقد مكنتني هذه العملية من دخول مناطق كربلاء والنجف بنجاح في وقت مبكر يصل إلى آب/ أغسطس من العام 2003.

* * *

قابلت في مرحلة ما خلال أشهري القليلة الأولى في العراق بالصدفة أشرف الخالدي، وهو شاب ناشط في مجال عمل المجتمع المدني. كان إحساسه بالتفاني تجاه العراق الجديد قريب من الهَوَس. كان مهنياً عراقياً وسيماً يستغل أي فرصة لبث المثل العليا العظيمة التي جلبتها الولايات المتحدة إلى العراق. وسرعان ما أصبح واضحاً أن ذلك كان أكثر من مجرد كلام بدون اقتناع. لقد كان يؤمن بتلك المثل العليا، وكان ملتزماً بها، وكان على استعداد للتضحية بحياته من أجل رؤيتها تتجذر في العراق.

وبعد سنوات عديدة قدرت حكومة الولايات المتحدة الأميركية أشرف بوصفه أحد العراقيين الذين عرضوا أنفسهم لمخاطر شخصية كبيرة بوقوفهم في صف الولايات المتحدة الأميركية. ومنحته الولايات المتحدة الأميركية فيزا هجرة خاصة، ولكن أشرف رفضها، فلم تكن تضحياته أبداً من أجل الأميركيين. لقد كانت من أجل العراقيين.

كان أشرف يرى الإمكانيات الكامنة في عراق ديمقراطي، وقد عمل ليل نهار من أجل القيام بدوره في جعل ذلك يحدث. وكان من مواليد كربلاء، وحثني على توسيع براجي إلى تلك المحافظة.

كانت لدي كامرأة عزباء أتنقل بمفردي خيارات قليلة للأماكن التي أستطيع الإقامة فيها. وحيث أن هدفي كان الاجتماع مع زعماء العشائر، فقد كان خيار الإقامة في فندق محلي مستبعد بشكل فوري. لماذا؟ كان يُعتقَد بقوة أن نوعاً معيناً من النساء فقط كن يُقمن في الفنادق بمفردهن. وللسبب ذاته، قمت باستبعاد خيار الإقامة في سلطة الائتلاف المؤقتة أو في قاعدة عسكرية. وكان التزامي بالحياد هي نقطة دخولي الرئيسية إلى داخل بعض المناطق الأكثر محافظة في البلاد، ولم يكن بإمكاني أن أعرّض ذلك للخطر مقابل أماكن إقامة. وفي مثل هذه الحالات كنت أقيم في منازل العائلات الممتدة لأصدقاء عراقيين وموظفين. وقد كان لذلك الفائدة الإضافية بمنحي فرصة لكي أفهم بشكل كامل الحياة اليومية للعراقيين.

كان منزل أسرة أشرف من بين المنازل الأكثر جدارة بالذكر. وعلى الرغم من أنه كان مقيماً في بغداد، فقد كان منزل عائلته في وسط مدينة كربلاء. وكان لدى أشرف ست شقيقات، اثنتان منهن كانتا متزوجتين، وأربع كن ما يزلن في منزل الأسرة. وكان والده قد توفي، وكان أشرف، بصفته الابن البكر، يُعتبَر هو رب الأسرة. وعلى الرغم من أنه كان يعيش

في بغداد، فقد كان لا يزال هو الذي يتخذ القرارات التي تخص المنزل. وحقيقة أن أشرف كان عضواً ناشطاً في المجتمع المدني جعله مميزاً بشدة عن باقي أرباب الأسر الذكور، فقد حث شقيقاته على متابعة دراستهن، وشجعهن على عدم التسرع في الزواج. وقد تأثرت بالطريقة التي كانت تركض فيها شقيقاته للترحيب به، كان الحب والإعجاب يشعان عندما يعانقنه في كل زيارة يأتي بها.

في اللحظة التي كنتُ وأشرف نصل فيها من بغداد، كان يتم إعداد حفلة كبيرة، وكانت البنات يهرعن في كل مكان في المنزل من أجل تحضير الوجبة. وبمجرد أن نكون قد أكلنا، كانت الأسرة تقضي ساعات لتعويض كل ما فاتها من تسلسل الأحداث المثيرة السابقة إلى الشؤون الحالية. وفي الليل، كان يتم جر الفرشات إلى غرفة المعيشة، حيث كانت تنام جميع النساء. وكان نزلاً كبيراً جداً فيه الكثير من الغرف ولكنه بلا كهرباء. وتم شراء مولد صغير، ولكنه كان يشغِّل بضعة مراوح فقط.

لم تكن مشاكل الكهرباء غير شائعة، فكل تقييم لحاجات المجتمع قامت منظمات إنسانية بإجرائه كان يشير إلى أن الكهرباء كانت أولوية المجتمع رقم واحد. وبعد سنوات، قام العديد من الاستراتيجيين العسكريين بعزو الفشل في إعادة الكهرباء إلى واحد من الإخفاقات الرئيسية لسلطة الائتلاف المؤقتة في إرساء الأمن في العراق. ومن ناحية أخرى، كان المتمردون يدركون هذا الأمر منذ البداية، وكان يتم استهداف محطات الكهرباء وخطوط توصيل الكهرباء ومولدات الأحياء أسبوعياً. وكان هدفهم يتمثل في تقويض سلطة الائتلاف المؤقتة والمسؤولين العراقيين. وقد توجت خطتهم بالنجاح، وفقد الكثير من العراقيين ثقتهم في الولايات المتحدة الأميركية نتيجة لعدم موثوقية الخدمات العامة. وقد

تذمرت النساء من عدم قدرتهن على الوصول إلى الماء (ربما لأن المضخات كانت تعمل على الكهرباء)، وكان أطفالهن يدرسون على ضوء الشموع، وأطفالهن الرضع يبكون طوال الليل بسبب الحر الخانق، و أصبحت المهام التي كانت في السابق بسيطة، مثل غسيل الملابس، أعمالاً روتينية شاقة.

وإذا كان الاستماع إلى الشكاوى أمراً بسيطاً، فإن المعاناة منها كان أمراً آخر مختلفاً تماماً. وخلال تلك الليالي بدون كهرباء، كان جسدي يكافح بين الإرهاق والحرارة الجائرة التي ترفض أن تدعني أنام. وكانت بعض النساء يقمن بتغطيس مناشف في الماء البارد ويقمن بلفها حول أيديهن وأقدامهن قبل أن يذهبن إلى النوم. وكنت في كثير من الأحيان أستلقي في صمت طوال الليل، وأصلي من أجل أن يتغلب الإرهاق ويرغم جسدي على النوم. وبدلاً من ذلك كنت أتقلب في حالة من شبه فقدان الوعي، معلقة بين الرغبة في النوم وبين أصوات الصفارات التي تنطلق طوال الليل.

ونتيجة للفراغ في الأمن المحلي الذي بدأ في العام 2003، قام الرجال في كربلاء بتطوير نظام مراقبة للأحياء يرصد زاوية كل شارع. وكانوا يطلقون الصفارات كل خمس دقائق من أجل الإشارة إلى أن الجميع في حالة جيدة. وكان ذلك قبل وقت طويل من النقاش بشأن قيام العراقيين بتولي مسؤولية أمنهم الذاتي. وقد أدرك الرجال في كربلاء بشكل غريزي أن عليهم أن يهتموا بأمر إجراءات السلامة الخاصة بهم إذا أرادوا أن يحافظوا على سلامة أسرهم.

وبدلاً من عدِّ الخرفان، كنت أقوم بعدِّ اللحظات قبل الصافرة التالية. وبمجرد أن أكون قد اقتربت من ثلاثمائة، كنت أسمع صافرة، وكنت أبدأ العدَّ مرة أخرى.

12
اللعب بالنار

◀ عندما قامت الملازم ماكبرايد -لم أعرف أبداً اسمها الأول- بفتح باب المقطورة، رأيت خمس فتيات عراقيات يجلسن على أسرَّة بطابقين: اثنتان على السرير العلوي، وثلاثة في الأسفل. وعندما رأتني، بذلت الثلاث في الأسفل جهداً غير مجدٍ في التزاحم نحو مكان يختبئن فيه في المقطورة الضيقة. والاثنتان في الأعلى دسَّتا وجهيهما في وسائد السرير الرقيقة.

حدّقْتُ غير مصدقة. مع عدساتهن اللاصقة المضلِّلة زرقاء وخضراء اللون، وشعر مخصّل بطريقة سيئة اتخذ مسحة برتقالية، وبناطيل جينز ضيقة ومرصّعة بالكرستال مع قمصان ضيقة بدون أكمام، كن يبدون غير عراقيات وغير أميركيات، بل مثل شيء يشبه مزيج أُسيء تركيبه. أدركْتُ على الفور أنني لم أستوعب الأمر جيداً عندما وافقت على مقابلتهن. خمس فتيات من بعقوبة يعشن داخل مقطورة أميركية في المنطقة الخضراء كن يشكلن مصدراً للمتاعب.

أثناء المشي من القصر الذي كان يتم استخدامه كمقر رئيسي للجيش الأميركي إلى المقطورة، أخبرتني ماكبرايد بأن الفتيات -خمس بنات عمومة هربن من المنزل- قد دخلن المنطقة الخضراء فقط بعد أن تم وعدهن بأنهن لن يتعاملن أبداً مع أي من العرب. ومع ذلك، أخذني رد فعلهن على حين غرة.

صاحت الفتاة الأكبر سناً -رئيسة العصابة بالتأكيد- بلغة إنجليزية ركيكة، «لقد وعدتني». ومن بين الخمس فتيات، كانت لديها الخصلات البرتقالية الأكثر لمعاناً. وقد أعطاها شعرها الناري، إضافة إلى عدساتها الزرقاء الغريبة، مظهراً شيطانياً.

أجابت ماكبرايد بثقة مُطَمئِنة، «إنها أميركية». وعندما رأت اللفتنانت وشاح رأسي، هي أيضاً شعرت بالقلق، فقد كانت الفتيات قد أقنعنها بأن النساء العربيات لن يتعاطفن مع محنتهن. ولكن أثناء مشينا من القصر إلى المقطورة، أخبرْت الملازم عن بعض الحالات التي تعاملْت معها في الأشهر الستة الماضية: ضحايا اغتصاب ودعارة وضحايا جرائم شرف. وكان يبدو أن ماكبرايد كانت تسترخي أكثر مع كل خطوة نخطوها. ولم أكن متاكدة مما إذا كان ذلك بسبب خبرتي في التعامل مع نساء في ظروف صعبة، أم بسبب لكنتي الأميركية الواضحة.

قلت للفتيات، «نعم أنا أميركية. وأعمل مع منظمة نساء دولية. وقد قمت بمساعدة الكثير من الفتيات مثلكن، وكونوا على ثقة من أن الأشياء التي رأيتها لا يمكن أن تكون أسوأ مما أنتم على وشك أن تقمن بالتحدث معي عنه.»

تكلمت بهدوء باللغة الإنجليزية لتهدئة أي مخاوف بشأن أصولي العربية، على الرغم من أنني كنت أعرف أن التحدث باللغة العربية كان من الممكن أن يكون أسهل للفهم بالنسبة لهن.

اتكأت على باب المقطورة، محاولة أن أبدو عفوية وغير مهدِّدة إلى أقصى درجة ممكنة، وبقيت الملازم في الخارج وخلفي مباشرة. كانت السماء قد بدأت بالفعل في التفسخ إلى ظلال الغروب الحمراء والبرتقالية.

وبمجرد حلول الظلام، انخفضت الحرارة، وكان برد ليالي شهر كانون الثاني/ يناير في بغداد معذِّباً بالدرجة نفسها تقريباً لعذاب حرارة أيام شهر تموز/ يوليو. تمنيتُ لو أنني لم أترك معطفي في سيارة الملازم ماكبرايد. ومع ذلك، وبصرف النظر عن مدى البرودة، لم أكن أريد أن أدخل حيز الفتيات الضيق ما لم يقمن بدعوتي.

رفعت واحدة من الفتاتين في السرير العلوي وجهها عن الوسادة ونظرت نحو الأسفل إلي. ولم تكن تبدو أكبر من عشر سنوات بيوم واحد، على الرغم من أنني عرفت فيما بعد أنها كانت في سن الثانية عشر. كان شعرها الطويل الواصل إلى الخصر ملفوفاً في جديلة مرتجلة استمرت في برمها على كتفها. وسألت ورأسها مائل قليلاً، «إذا كنت أميركية، فلماذا أنت مغطاة؟»

قلت، «أنا مسلمة. وأغطي لأنني اخترت ذلك. الكلمة المهمة هي اخترت.» وتفاجأت من إفادتي المتناقضة، ولكنني غريزياً كنت أعرف أنني كنت بحاجة إلى الاستمرار في الحديث، ولم يكن مهماً ما كنت أقوله طالما أنني قلته باللغة الإنجليزية. وكان من الواضح أنه ينجح.

قامت إحدى الفتيات، والتي أقنعت نفسها بأنها كانت غير مرئية خلف أحد أعمدة السرير الرقيقة، باختلاس نظرة إلي وسألت بصوت خجول، «هل والداك عراقيان؟»

أجبت، «لا. أنا هنا فقط منذ أشهر قليلة.»

«هل أتيت مع الأميركيين؟»

«كلا، ليس كذلك على الإطلاق. أنا هنا مع عمال الإغاثة الإنسانية. وعملي هو مساعدة النساء. وليس لي أي روابط مع الجيش.»

جلست رئيسة العصابة على الفرشة السفلية وحدقت بي بتحدٍ بعينين غريبتين. «نحن نتحدث فقط مع أشخاص من الجيش، نثق فقط بالجنود الأميركيين. نعطي معلومات، والآن يأخذوننا إلى أميركا.»

فيما بعد عرفت أن اسمها كان زينه. كانت في سن السادسة عشر، وكانت هي التي دبرت مغامرة الفتيات التافهة.

أجبت بهدوء، «هذا معقول.» كنت أعرف أنه من الضروري أن يستوعبوا ما كنت سأقوله لهم، ولكنني كنت قلقلة أيضاً بشأن التحول من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية، وقمت متعمدة بتغليظها بما يسميه أصدقائي المقربين لكنتي العربية، لكنة ولاية تكساس. «أنظري، لا يستطيع الجنود أن يفعلوا شيئاً لكُنّ سوى إبقائكن في هذه المقطورة. وحتى ذلك، يمكنهم القيام به لفترة لا تزيد عن شهر فقط. وقد اتصلوا بي لأنهم يعرفون أنني قد أكون فرصتكن الوحيدة. نحن بحاجة لإيجاد حل واقعي أكثر لكُنّ، ويمكنني مساعدتهم في القيام بذلك. ولكن فقط إن كنتن تردن ذلك.»

ردت زينه بحدة وغضب، «لا نريد مساعدتك.» متحدثة بصوت مرتفع في اللغة الإنجليزية من أجل الملازم ، التي يبدو أنها كانت تعرف خمس كلمات فقط باللغة العربية.

قلت، «حسناً.» وأنا ما زلت واقفة خارج المقطورة. هززت كتفي وبدأت في الانسحاب مغلقة الباب ورائي.

قالت الفتاة التي تجلس قرب زينه، «انتظري». ثم استدارت نحو زينه وقالت بحدة شديدة باللغة العربية، «نحن هنا منذ ثلاثة أيام، لا يمكنني

النوم في هذه المقطورة. الطعام فظيع، ونحن بحاجة لأن نعرف ما الذي سيحدث لنا. ربما يمكنها أن تساعدنا. دعينا على الأقل نتحدث إليها.»

بقيتُ صامتة، وكان باب المقطورة موارباً قليلاً. والآن كانت الوجوه الخمسة تنظر إلي. وهذه الفتاة الأخرى كانت في سن قريب من سن زينه. وكان اسمها رشا. وكان من الواضح أن الفتيات الثلاث الباقيات كن صغيرات جداً وخائفات جداً. كنت أريد أن أجذب الصغيرات إلي وأعانقهن عناقاً طويلاً وقوياً. ما هو الأمر الفظيع الذي حدث لهن ودفع بهن إلى هذا الوضع؟

بدون انتظار وصول زينه ورشا إلى اتفاق، قالت الأصغر سناً في السرير العلوي بشكل مفاجئ، «لقد هربنا من المنزل. وليست هناك طريقة للعودة. ظننا أن الجيش سيرسلنا إلى أميركا، ولكننا الآن لا نعرف بماذا نفكر.» وكانت على وشك البكاء.

صرخت زينه، «انشبّي! (اخرسي!)» وهي تقف وتدور حول نفسها لمواجهة البنت الصغيرة.

قلت محاولة نزع فتيل الموقف، «لستن بحاجة لقول أي شيء لي الآن.» فتحت الباب ووضعت قدماً داخل المقطورة. لقد جعلتني شراسة زينه أخشى ترك الصغيرات معها. «وبدلاً من ذلك، لماذا لا تقمن بطرح أسئلة علي وتتعرفن علي. وإن شعرتن أنني أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلكن، عندئذ يكون ذلك جيداً. وسأكون مسرورة للعودة في الغد. وإن لم يحدث، فلن تكنَّ مضطراتٍ لرؤيتي مرة أخرى، وسوف أنسى نهائياً أنني رأيتكن. اتفقنا؟»

لم تُجب زينه. عادت فقط إلى الجلوس، ولم تقاطع عندما بدأت باقي الفتيات بطرح الأسئلة. جلستُ على حافة مدخل المقطورة، وقد أسندتُ ظهري إلى الباب المفتوح. وكانت قدماي متدليتين بحرية إلى الخارج. وتحدثنا طوال الخمس عشرة دقيقة التالية. سألن عن عملي، وبدا عليهن التأثر بإعجاب عند سماع أنني سافرت كثيراً. وشعرن باهتياج عندما علمن أنني كنت في أفغانستان وكينيا، وحتى زينه بدت منفتحة من خلال المشاركة بأن حلمها كان دائماً السفر في كافة أرجاء العالم. وقامت الفتيات الأصغر -زهره وإيمان وأماني- بتقديم أنفسهن بطريقة رسمية. كانت أماني، الأصغر، تبلغ التاسعة من العمر فقط. وكانت زهرة وإيمان كلتاهما في سن الثانية عشر.

وجدت نفسي مستمتعة بالتحدث إلى الفتيات، وحتى أنني تمكنت من نسيان كم كان الطقس بارداً. وبحلول الوقت الذي جاء فيه كولونيل للاطمئنان علينا، كان التوتر قد تبدد، وكانت الفتيات تُمطرنني بالأسئلة.

وقف الكولونيل جانباً وتنحنح. متخذة إشارتي منه، وقفت. «يجب أن أذهب الآن. لا أعلم إن كنت سأراكن مرة ثانية، ولكنني سوف أفكر فيكن جميعاً. أعرف أنكن فتيات نبيهات وشجاعات، لذلك لن أقلق كثيراً عليكن.»

وهكذا عدتُ والملازم ماكبرايد إلى القصر، وانتظرتها في موقف السيارات لتحضر مفاتيحها لسيارة تويوتا لاند كروزر. لقد كنت متجمدة أصلاً حتى العَظم، لذا فإن خمس دقائق أخرى في الخارج لم تكن لتقتلني. وكان عليها أن توصلني إلى مركز المؤتمرات حيث كان سائقي ينتظر.

وبينما كنت أنتظر، أدركت أنني قد حنثت بوعدي لنفسي بعدم التورط عندما يتدخل الجيش الأميركي في حياة المدنيين العراقيين، خصوصاً النساء. وكان الثور العنيد في داخلي ببساطة يرفض أن يتعلم درسه. كان طاقم موظفيَّ ما يزال يشعر بالإحباط من الحادث الأخير: اتصل بنا الجيش عندما أدت شهامة جندي إلى القبض على رجل زُعم أنه هدد زوجته في كشك بيع خضار في بغداد. وعندما تم إطلاق سراح الرجل بعد ثلاثة أيام، قام بإلقاء زوجته خارج المنزل وطلقها. وعندما فشلنا في التوفيق بين الزوجين، كل ما كان بوسعنا عمله تمثل في جعل المرأة تنخرط في برنامجنا لتطوير المهارات من أجل مساعدتها في كسب دخل. وما وصفته بأنه شجار بسيطٍ في السوق، انتهى بتركها بدون حماية أو مصدر رزق.

لقد علمتني سنوات من العمل الإنساني أن أبسط تدخل يمكن أن يجرر سيلاً من العواقب غير المتوقعة. لقد كنت أعقل من أن أقدِم على الغوص لمجرد نزوة. وكان الأمر الرئيسي يتمثل في التوقع والتخطيط لمواجهة السيناريوهات الأسوأ، والتعرض لمخاطر محسوبة من أجل تحسين حياة الناس. وحتى عمال الإغاثة الأكثر خبرة قد يجدون أنفسهم عالقين في بعض الحالات المستعصية. لقد كان شعار منظمتي «عِد بالقليل وقدِّم الكثير».

بطريقة أو بأخرى، أهمل التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة هذا الدرس. وفي كل يوم كانت الفجوة بين الخطاب والواقع تتسع. وكان هناك أفراد في الجيش، ذوو نوايا حسنة، متحمسين جداً بشأن تقديم المساعدة، إلى درجة أنهم تعهدوا بالتزامات استثنائية. ونتيجة لذلك، سُمِح للجيش بمعالجة قضايا بعيدة جداً عن اختصاصه. وعندما كانت تلك الحالات تتضمن نساء، كانت في أغلب الأحيان تجد طريقها إلي.

مثال توضيحي ذو صلة: الباندورات الخمس اللواتي فتحن الصندوق بدون التفكير في العواقب. ومرة أخرى، تم جرِّي إلى حالة أصبحت مستعصية الآن لأن الجيش الأميركي كان متورطاً.

كانت الكابتن آن ميرفي قد اتصلت بي بشأن حالة الفتيات. ولم تكن تعرف أي تفاصيل، إلا أن ضابطاً برتبة كولونيل كان قد طلب منها أن تجعله على اتصال مع منظمة إغاثة نسائية أميركية غير حكومية. وعند اتصالها، بيّنت أنني كنت الشخص الوحيد الذي يمكنها أن توصي به وهي مرتاحة الضمير. وكانت ثقتها بي تعني الكثير، ولم يكن بإمكاني أن أرفض ببساطة. وعلى مدى الشهور القليلة الماضية، بدأت أعتبر آن صديقة أكثر من كونها زميلة عمل. وقد وافقت على مقابلة الفتيات كخدمة لها.

عملنا معاً في عدة مشاريع منذ تدخّل آن في قضية كلثوم. وفي المقام الأول كنّا عازمتين على رؤية ملجأ للنساء يُفتح في بغداد من أجل توفير مأوى آمن للنساء المهمشات. كما كنا قد بدأنا العمل على مشروع المركز النسائي، وأصبحنا بسرعة متلازمتين. وكان آخر أمر أتوقعه هو أن أصبح صديقة لجندية أميركية، إلا أن آن نجحت في تغيير رأيي بتفانيها واستقامتها.

كانت من مواليد بوسطن، وترعرعت في عائلة ليبرالية، وكانت مدافعة عن ما كانت تدعوه المعتقدات الديمقراطية الأساسية. وكانت واحدة من بين القلة القليلة، ممن كنت أعرفهم في بغداد، الذين تجنَّدوا طوعياً بعد بدء الحرب في أفغانستان. ومعظم الجنود الذين كنت أعرفهم كانوا إما قد انضموا إلى صفوف الاحتياط، من خلال برنامج تدريب ضباط الاحتياط في الجامعة، أو كانوا في مسار حياة مهنية طويلة الأمد في الجيش.

وصفت آن أثناء أحد لقاءاتنا الأولى الظروف التي جعلتها تُقدِم على التجنيد. كانت المسألة من وجهة نظرها، مسألة وقت قبل أن يقوم الرئيس بوش وأعوانه بإفساد الأمور. وفي الوقت ذاته، كانت تشعر أنه لا يمكنها أن تقوم بمجرد الجلوس ومراقبة الأمور السيئة تحدث، وقررت أن تتجند بحيث يمكنها أن تكون في الخطوط الأمامية مع أبناء بلدها من أجل أن تحاول إحداث تغيير إيجابي.

وشرحت، «حتى وإن كان فقط من أجل تغيير حياة الناس الذين أتعامل معهم مباشرة، على الأقل أشعر أنني أقوم بشيء ما.» وقد أعجبت بها على الفور.

وإلى جانب التزامي الشخصي تجاه آن، كنت قد تأثرت حقاً من تعابير وجوه الفتيات عندما تركت المقطورة. وكنت، بكل إخلاص، أريد أن أفعل ما بوسعي لكي أساعدهن، ولكن كان من الواضح أن زينه، الأكبر، لم تكن تريدني أن أفعل ذلك، ولم أكن أعرف ما إذا كان علي أن أترك زينه تتولى الأمر وأن أقوم ببساطة بالابتعاد، أو أن أفرض مساعدتي من أجل الصغيرات. وكان الجانب العقلاني مني يقول بعدم التورط، ولكن الجانب العاطفي كان قد بدأ فعلياً بالبحث عن الحلول. كان جزء مني يريد أن يتسلَّم القَدَر زمام أمور الوضع، وأن تخبرني الملازم ماكبرايد بأن الفتيات لا يردن مساعدتي.

عندما وصلت الملازم مع مفاتيح سيارتها، كان هاتفها الخلوي محشوراً بين كتفها وأذنها. وأنهت المكالمة بسرعة وقالت، «حسناً، إنهم يريدون منك أن تعودي. هل يمكنك أن تأتي غداً؟»

قلت، «بالتأكيد». وقد فوجئت أنني، بدلاً من الفزع، شعرت بإحساس بالارتياح يجتاحني. لقد كنت أريد أن أبقى منخرطة من أجل الفتيات الصغيرات. وكانت زينه تعتقد أنها هي المسؤولة، ولكن لم تكن لديها أدنى فكرة عما كانت تفعله.

كنت لا أزال حتى أقل تبصُّراً فيما كان يجري في الواقع. في ظل أي ظروف قامت الفتيات الخمس بالهرب من منازلهن؟ ولماذا عرَّضن أنفسهن لمثل هذه المخاطرة المجنونة؟ لقد كنت بحاجة لجمع بعض المعلومات المخابراتية الخاصة بي.

قبل أن أذهب إلى النوم في تلك الليلة، قررت أن أتصل بعبد الله، وهو رقيب في الشرطة في بعقوبة، وقد كان متحمساً لمساعدتي. وسألته إن كان قد سمع عن اختفاء مجموعة من خمس فتيات، ولكنني امتنعت عن أي ذِكر بشأن مقابلتي لهن. وقال لي إنه سوف ينظر في الأمر وسوف يعود إلي.

* * *

استيقظت مبكراً في صباح اليوم التالي وتوجهت نحو المنطقة الخضراء من أجل موعدي مع الفتيات في الساعة العاشرة. كان الوصول إلى هذه المنطقة الآمنة يُصبح أكثر صعوبة بشكل تدريجي، فعندما وصلت قبل ستة أشهر، كان بإمكان أي شخص أن يمشي على الرصيف المقابل لمركز المؤتمرات، الذي كان يقع في وسط المنطقة الخضراء وكان بمثابة نقطة الاتصال الإدارية الرئيسية بين المدنيين العراقيين وسلطة الائتلاف المؤقتة. وكانت هناك نقطة تفتيش واحدة فقط تبعد ربع ميل عن المدخل الرئيسي

لمركز المؤتمرات. ويضطر الزائرون الآن إلى المشي لأكثر من ميل خلال رواق من أكياس الرمل والأسلاك الشائكة، وأن يمروا عبر ثلاث نقاط تفتيش. وكان الأمر يتطلب وضع شارات خاصة والتعرُّض لتفتيش جسدي من أجل تجاوز أولى نقاط التفتيش المزودة بأسلاك شائكة، والتي كانت تتعدى على تقاطع مزدحم متعامد مع شارع حيفا.

قابلت الملازم ماكبرايد في المكان المعتاد في مركز المؤتمرات، وتوجهنا في السيارة نحو القصر الجمهوري، الذي كان قد تحوّل إلى مقر لسلطة الائتلاف المؤقتة. لقد كان ركوب السيارة من مركز المؤتمرات إلى القصر ما زال مصدر بهجة. وبعد سنة واحدة، كانت المنطقة ذاتها قد تم تحويلها إلى متاهة من ألواح الخرسانة القبيحة والأسلاك الشائكة والخنادق مع نقاط تفتيش منتشرة في كل مكان مثل الأعشاب الضارة. ولكن في العام 2003، كانت الحدائق مشذبة جيداً وكانت هناك تماثيل نصفية برونزية لصدام حسين بارتفاع ثلاثة طوابق تقف بكل وقاحة في الزوايا الأربعة من القصر، كما لو كانت تذكرنا أين كنا في الواقع.

اتجهنا مباشرة نحو مقطورة الفتيات وفوجئت باكتشاف أنها فارغة. وأخبرنا جنود من مقطورة مجاورة بأن الفتيات توجهن نحو الكفتيريا.

قالت ماكبرايد وهي تحرك عينيها حركة دائرية، «أولئك الفتيات يتطلبن الكثير جداً من الانتباه.» وأضافت بسخط، «إنهن موجودات هنا منذ ثلاثة أيام فقط، إلا أنهن كن يشتكين باستمرار في كل ساعة وكل دقيقة وكل ثانية من ذلك الوقت. بطريقة ما توقعن جناحاً ملكياً داخل القصر. لا تسيئي فهمي، لقد أصبحت أحبهن حقاً. إلا أنهن يتصرفن كما لو كن في مغامرة ما - وليس كما لو كن يطلبن اللجوء.»

والآن، بعد أن تمت دعوتي للعودة كنت مصممة على الحصول على المزيد من التفاصيل منهن. ولم تكن هناك طريقة كان بإمكاني تقديم أي مساعدة بها إذا بقيت ظروفهن مبهمة. مشينا نحو الكفتيريا، ومنذ قدومي إلى بغداد، كانت هذه هي المرة الثانية فقط التي آتي بها إلى المنطقة العامة للقصر القديم. وفي المرة الأولى التي زرتها بها كنت مبهورة ببهرجة التصميم الداخلي، وهو مزيج مترف من مسجد اسطنبول الأزرق وقصر فرساي خارج باريس، وقد شعرت بالاشمئزاز من فكرة أن صدام وأبنائه المولعين بالقتال من الممكن أن يكونوا قد وقفوا في المكان ذاته الذي كنت واقفة فيه.

في هذه المرة كنت مصدومة أكثر من التجاور بين الكافتيريا، ذات النمط الخاص بالمدارس الثانوية والتي كانت تنتشر في كافة أنحاء المنطقة العامة، وبين المباني المزخرفة التي ارتفعت عالياً حولها. وعلى قمة الجدران، عالياً فوق رؤوس الجنود الذين كانوا يتناولون الطعام، كانت هناك أقوال مأثورة من الكتب المقدسة أو الإسلامية -نُسِبَت كذباً إلى صدام، بطبيعة الحال- منقوشة بخط عربي متقن. وفوق المدخل المقنطَر إلى ما كان في السابق صالة رقص، والآن تحول إلى مقصف، كان أحد النقوش يُقرأ: «لا تصرف النظر عن الساذج الذي يحط من سمعتك، فكم من الحصى الصغيرة كسرت زجاجة كبيرة؟»

كان المزيج المتضارب بين بذخ صدام والتقشف العسكري منصة مثالية للفتيات الصغيرات الخمس اللواتي اندمجن جيداً بطريقة مدهشة في بحر من البزات العسكرية. وجدناهن في الجزء الخلفي من الكفتيريا يجلسن مع مجموعة من الجنود. كان الجنود يتناوبون في التقاط صور مع الفتيات، اللواتي كان من الواضح أنهن كن خائفات بدرجة أقل مما كن عليه في الأمس. وفي الواقع أن الفتاتين الأكبر سناً كانتا منتشيتين.

نادتني الأصغر سناً، أماني، «منال! منال! تعالي إلى هنا!»

ذهبت لأنضم إليهن وقدمت نفسي إلى الجنود. وكانت الفتاتان الأكبر سناً تجلسان على حافة الطاولة، وأقدامهن تتدلى فوق الأرض. وكل بضعة ثوانٍ كن يقهقهن لسبب ما. عاد شعوري الأولي بالانزعاج بالظهور إلى السطح مرة ثانية، وكان وصف الملازم لهؤلاء الفتيات كباحثات عن المغامرة دقيق جداً. وكنت أعلم أن آباءهن وأمهاتهن سوف يكونون في ثورة من الغضب لو رأوا سلوك بناتهم الآن. وحتى في أكثر المجتمعات تحرراً، سوف تؤدي صورة هؤلاء الفتيات الصغيرات في سن المدرسة وهن يتسلين بين مجموعة من الجنود الذكور إلى الشعور بالغثيان. إن مساعدة النساء والفتيات اللواتي لا حول لهن ولا قوة هو أمر هام، ولكن لم يكن هناك أي نوع من المساعدة تجري هنا.

كانت قهقهات زينه ورشا كل بضعة دقائق تتحول إلى زعيق من الضحك. وكانت الفتيات الثلاث الأصغر سناً يجلسن حول الطاولة، ينظرن بابتهاج نحو الفتاتين الأكبر. وكان علي أن أقاوم رغبة أمومية ملحة في جذبهن بعنف عن الطاولة وتوبيخهن. بدلاً من ذلك، وبقدر ما استطعت من عدم المبالاة، قلت مرحباً، وسألت كيف كان حالهن.

أجابت أماني، «جيد، جيد.» هذا الصباح التقطنا صوراً مع الأميركي المشهور، ووعدوا بإرسال نسخ إلينا لأخذها إلى المنزل.» كانت تتحدث بالعربية وكان من الواضح أنها كانت مبتهجة بشأن كل الاهتمام الذي كان الجنود يمنحونها إياه.

أخذت زينه ورشا، اللتان كانتا ما تزالان جالستين على الطاولة، وضعاً للتصوير بين ثلاثة جنود كانوا يميلون ورائهن. وقاموا جميعاً برفع أيديهم وأشاروا بعلامة السلام. أردت أن أتقيأ.

جعلتني الصورة التي تم التقاطها أشعر كما لو كانت تلك الفتيات الصغيرات جوائز للجنود. لم يكن بادياً أن أياً من الجنود لديه أدنى درجة من الاهتمام بشأن أن الفتيات قد تقطعت بهن السبل وليس لديهن أي مكان يذهبن إليه. لم يكن لديهم أدنى فكرة عن التوقعات التي كانوا يضعونها في عقول هؤلاء الفتيات الصغيرات - أو ببساطة لم يكن ذلك يهمهم.

تذكرت ما قالته أماني في الليلة الفائتة - كن يأملن أن يتم إرسالهن إلى أميركا. وكنت أعلم أنه لا توجد فرصة لحدوث ذلك. وقررت أن أبدأ في العمل.

«اسمعن أيتها الفتيات، ليس لدي الكثير من الوقت هذا الصباح. دعونا نجلس في الجانب بحيث يمكننا أن نتحدث حديثاً مناسباً.» وقد بدوت مهتاجة أكثر مما كنت أود أن أكون.

قالت زينه وهي تمط في الكلام، «استرخي» تسحب الكلام وتلف عينيها نحوي.

مشيت إلى طاولة أخرى، وتبعتني أماني والبنات الأخريات. وبقيت زينه متخلفة مع الجنود.

حسناً، أخبروني بما حدث. ابدأن من اللحظة التي قررتن فيها المغادرة.»

بدأت رشا تخبرني بالقصة. كان آباء الفتيات أشقاء، وكانت عائلاتهن تعيش في منزل واحد في بعقوبة. وفي إحدى الأمسيات سمعن آبائهن يتحدثون مع أشقائهم الأكبر سناً. وكان الأشقاء يخططون لهجوم على قاعدة قريبة لجيش التحالف. ولليلتين لم تتمكن زينه ورشا من النوم. ووفقاً لرشا، شعرت ابنتا العم أن لديهما التزاماً أخلاقياً بتحذير الجنود

الذين قاموا بتحرير مدينتهم من صدام. وقالت إن ذلك هو السبب الذي جعلهن ينطلقن في رحلتهن.

كان الأمر يبدو كما لو أن رشا كانت تقرأ من نص. وعندما سألتها لماذا لم يذهبن إلى مخفر شرطة قريب، ولماذا سافرن كل تلك الطريق إلى بغداد، لم يكن بإمكان أي منهن إعطاء إجابة. وأخيراً قررت زينه أن تنعم علينا بوجودها، وقامت بسرعة بتولي أمر المحادثة من النقطة التي صمتت عندها الفتيات. وشرحت أنهن شعرن بالقلق من أن يراهن أحد الأصدقاء أو الأقارب، وهكذا استمرين بالحركة إلى أن شعرن أنهن على بعد مسافة كافية للاقتراب من إحدى القواعد.

سألت رشا و زينه، «ولكن لماذا أخذتما شقيقاتكما الصغيرات؟»

أجابت رشا و زينه على الفور بأنه لم يكن بإمكانهما ائتمانهن عند عائلاتهن.

تفحصت بعناية الفتيات الخمس، لقد بدا أنه تمت العناية جيداً بهن جميعهن، وكان من الواضح أن الخصلات في شعرهن قد تم صبغها منذ فترة. صحيح أنه كان يبدو كما لو كن قد تعرضن لهجوم من أطفال الروضة المسلحين بصبغة صن-إن، ولكن ليس بإمكان الكثير من العائلات في المحافظات المحيطة ببغداد أن ينفقوا على صبغ خصلات شعر بناتهم، أو أن يشتروا لهن عدسات لاصقة. وكانت الفتيات الصغيرات ممتلئات، لذا كان من الواضح أنه كانت تتم تغذيتهن جيداً. وكان يبدو أن هناك أمراً خاطئاً جداً.

لم تكن قصتهن مقنعة جداً، ولكن الآن كانت هناك مشكلة أكبر بكثير. أياً كانت الظروف المحيطة بهروبهن، فقد كانت هؤلاء الفتيات الآن

مفقودات من منازلهن منذ أسبوع تقريباً. وكانت هناك فرصة للتسوية إذا اعتقد الآباء أنه تم أخذهن ضد رغباتهن، ولكنها كانت ضئيلة. وفكرة أن تكون فتيات صغيرات في عداد المفقودين طوال أيام عديدة قد يثير العديد من الأسئلة بشأن شرف العائلة. وقلة هم الرجال العراقيون المستعدون للمخاطرة بوصم اسم العائلة بالعار. حتى وإن طلب أب الفتيات فحصاً للتأكد من أنه لم يتم انتهاك عرض الفتيات، واجتزن الفحص، سيكون هناك ما يكفي من الشك بشأن طول مدة غيابهن. وإذا كان لدى الآباء أدنى فكرة عما حدث فعلاً، فلم يكن في عقلي أي شك بأن الفتيات سوف يقتلن. ومن وجهة نظر آبائهن، ستكون الفتيات قد ارتكبن جريمتين فظيعتين: خيانة آبائهن، وقضاء وقت بعيداً عن عائلاتهن بدون مَحْرَم. وحقيقة أنهن كن بين الأميركيين لن يؤدي إلا إلى مفاقمة العار.

كان من الواضح بالنسبة لي أن هؤلاء الفتيات لن يكون في مقدورهن أبداً العودة إلى المنزل.

سألتهن، «إذن ما الذي سوف نقوم بعمله؟»

صرّحت زينه بجرأة، «أتينا لننضم إلى الجيش. نريد أن نتجند.»

«عفواً؟» كنت متأكدة من أنني سمعتها خطأ.

«نعم نحن نريد أن نحارب مع الأميركيين ضد الإرهابيين. لا معنى من قيامهم بمحاربتهم نيابة عنا.»

كنت مصدومة. هذه الفتاة ذات الستة عشر عاماً قد فقدت عقلها. «أنت تعرفين أن ذلك غير ممكن.»

سألت، «لم لا؟ شاهدت في التلفاز الكثير من الصغار الذين يحاربون من أجل بلدهم.»

لم يكن لدي أدنى فكرة عما يجب أن أفعله مع هذه العبارة. لم أكن مهيأة للدخول في الأسباب البديهية التي تبين لماذا منطقها كان سخيفاً، لذلك قلت ببساطة، « يجب أن تكوني في الثامنة عشرة حتى تتجندي.»

بقيت زينه صامتة للحظة. قبل أن تنفجر، إذن يمكنهم أن يرسلونا إلى أميركا، وعندما نصبح في الثامنة عشرة، ننضم للجيش.» وبدت مصرّة على أن خطتها كانت سهلة جداً. وأدركت أن المنطق لن يجدي مع هذه الفتاة.

استدرت نحو رشا، التي تضرعتُ من أجل أن تكون الأكثر تعقلاً بين الفتاتين. «يمكنني أن أساعدكن. هناك منظمة أعمل معها في السليمانية، في شمال العراق، وقد ساعدت في إيجاد مكان لفتيات صغيرات مثلكن. الوضعَ هناك مختلف، وعلى الأقل سوف نعرف أنكن في أمان.»

سألت رشا، «ماذا سنفعل هناك؟»

وتدخلت زينه «توقفي! توقفي عن التحدث إليها.» نظرت إلى أماني، وإلى الفتاتين الأخرتين اللتين لم تقولان أية كلمة حتى الآن. وكان لديهن التعبير الخائف ذاته الذي رأيته على وجوههن في الليلة الماضية. وقد جعلني ذلك غاضبة من زينه، التي بدأت تجعل البنت الممسوسة في فيلم طارد الأرواح الشريرة (The Exorcist) تبدو مثل فتاة كشافة.

وسألت أماني بخنوع، «ألا نستطيع أن نبقى هنا؟»

قلت مقررة أن أبقى إلى جانبهن، «أتمنى لو كنتم تستطيعون. أنا إلى جانبكن بكل جوارحي، ولو كنت أعتقد أن بإمكانكن الذهاب إلى أميركا أو حتى البقاء هنا، لما تورطت حتى. ولكنكم لا تستطعن. وذلك هو السبب الذي جعلهم يتصلون بي. إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بكن، والوقت يمضي بسرعة.»

وسألت رشا، وهي تحاول بوضوح ألا تنظر نحو زينه، «ما الذي سوف نفعله إذا ذهبنا إلى الشمال؟ هل سبق وأن ذهبت إلى هناك؟»

لقد ذهبت إلى هناك، إنها دار جميلة جداً. وأنا أعرف شخصياً المرأة التي تمثل المنظمة هنا في بغداد، وأعرف أيضاً المرأة المسؤولة عن الدار في السليمانية. إنها صديقة جيدة، وأنا أذهب إلى هناك مرة كل ثلاثة أشهر. وسوف أقوم حتى بالذهاب معكن إلى السليمانية، بحيث لا تحتجن للسفر بمفردكن.»

نظرت أماني ورشا إلي بإمعان. ويبدو أنهن كانتا شقيقتين. والاثنتين الأخرتين الصغيرتين كن شقيقتي زينه ولم تجرؤان على مخالفتها. وبدا أن زينه هدأت قليلاً، وانحنت إلى الأمام.

قالت، «أنت امرأة لطيفة، وربما في يوم ما سأرغب حتى في سماع المزيد عن حياتك وعن الأماكن التي سافرت إليها. ولكنك تفسدين كل شيء. الآن الخيار الوحيد هو الذهاب إلى أميركا. ومعك، سيكون هناك خيار آخر. سوف أموت قبل أن أذهب إلى الشمال، وسوف أقتل نفسي في تلك المقطورة المقيتة التي وضعونا فيها. لذلك ابقي بعيدة عن هذا الأمر. إفهمتي؟ (هل تفهمين؟)»

* * *

لم يكن هناك الكثير مما يمكن أن أفعله أو أقوله بعد ذلك. يجب أن تقوم الفتيات بطلب المساعدة مني، وحتى لو كنت مجنونة بما يكفي لمحاولة فرض مساعدتي عليهن، كنت أعرف أن منظمتي الشريكة سوف تطلب موافقة موقعة من الفتيات الصغيرات، ولم يكن هناك شيء يمكنني القيام به من أجلهن طالما أنهن يرفضن التعاون.

كان علي أن أشرح الوضع للكولونيل.

منذ أول لقاء لي مع الكولونيل قبل أيام قليلة، كان تفاعلنا يسوده التوتر. كان يعرف أنني عاملة إغاثة أميركية من أصل عربي، ولكن يبدو أن أحداً لم يكلف نفسه عناء ذكر أنني كنت أرتدي الحجاب، ويمكنني القول إنه فسر الأمر على أنه علامة تطرف. وقد استجوبني استجواباً مصغراً للتأكد من أميركانيتي. ما الذي أتى بي إلى العراق؟ من أين أنا؟ لماذا اختار والداي أن يبدءا حياتهما في الولايات المتحدة الأميركية في مدينة لوبوك في ولاية تكساس؟ لماذا انتقلا إلى سبارتانغبوغ؟ لماذا كنت مسلمة؟ وقد أجبت عن جميع الأسئلة بصرف النظر عن مدى كونها شخصية أو خاصة. وبدا أنه مرتاح بأجوبتي وأصبح ودوداً أكثر قليلاً - قليلاً جداً فقط.

تركت الفتيات وذهبت إلى المبنى حيث يقع مكتب الكولونيل، وسألت عنه عند مكتب الأمن المؤقت الذي تم انشاؤه في الردهة. جلست على مقعد وانتظرت. وعندما ظهر بعد خمس عشرة دقيقة لم يكلف نفسه عناء دعوتي إلى مكتبه.

«هل سألت عني؟» وحدق بي على نحو خال من التعبير.

قلت، «نعم، سيدي.» جفلت من صوت كلمة سيدي وهي تخرج من فمي. «أريد منك أن تعرف أنني لن أتمكن من مساعدتك بشأن تلك الفتيات.»

سأل، «وما هو سبب ذلك؟» مع أثر ضئيل من القلق يزحف إلى تعبير وجهه.

قلت، «سيدي،» غاضبة من نفسي لمخاطبته بكلمة سيدي مرة أخرى، «لا يمكنني أن أساهم إذا كن لا يردن مساعدتي. وقد أخبرنني بتعابير واضحة جداً أنهن لا يردن أن تكون منظمتي، أو أي منظمة غير حكومية أخرى مخصصة لهذه المسألة، منخرطة. فقط الجيش.»

«اعتقدت أنك قلت أن هناك ملجأ في الشمال. يمكنني ترتيب أمر النقل وإرسالهن إلى هناك. ما هي المشكلة؟»

«لا يردن الذهاب، سيدي.» اللعنة! «يمكنني أن آخذهن فقط إذا ذهبن طوعاً، ويجب أن يوافقن على شروط الإقامة. ولن يفعلن.»

«إن الأمر غير عائد إليهن - هل تفهمين ما أقول؟ - إن الأمر غير عائد إليهن!» وصاح في وجهي بما يشبه النباح كل كلمة نطقها بصوت مرتفع.

فكرت ملياً في ردي، وأجبت بهدوء، «جميعهن تحت سن الثامنة عشرة. لا يمكنني أن أجبرهن على الانتقال، سواء كفرد أو كعضو في المنظمة غير الحكومية التي أعمل معها. أولاً، من المحتمل أنهن سيهربن مرة أخرى. ثانياً، يعتبر ذلك في كثير من البلدان اختطافاً.»

قال، «يجب أن يذهبن. تلك البنكات (punks) الصغيرات قدمن لنا معلومات فارغة. وقمنا بإجراء تحقيق شامل، وكانت إدعاءاتهن وهمية. تلك الوقحات خدعننا! والآن يلتصقن بنا مثل علقات.»

قلت، «أنتم رجال تعاملونهن كما لو كن سائحات. هل يا ترى قمتم حتى بالتحدث إليهن بشأن عواقب استقبالهن كزائرات؟ بالنسبة لهن هذه مغامرة العمر. بالطبع لا يردن الذهاب. يجب ألا تقوم ببساطة باستقبال زائرات صغيرات في مثل هذا السن بدون أن تبلغهن ما الذي سيحدث لهن.» وكان هناك غضب في صوتي الآن.

قال الكولونيل، «تلك مشكلتهن، ليست مشكلتي. في رأيي أن حكومة الولايات المتحدة الأميركية كانت سخية جداً معهن، وقد ذهبتُ أبعد من نداء الواجب. والآن يجب أن تقومي بعملك وتضعي الفتيات في مأوى!»

«نعم، حسناً كان يجب أن تفكر بشأن ذلك عندما قررت أن تبقيهن في قاعدة عسكرية أميركية. فات أوان التراجع الآن.» كنت تقريباً أصرخ فيه. «حقيقة الأمر هي أنه إذا اكتشف آبائهن أين كن في الأيام القليلة الماضية، فسوف يتم قتلهن بشكل مؤكد، تقريباً. أنت تتحمل مسؤولية حياتهن.»

وبدون تردد رد بسرعة خاطفة، «إما أن تأخذينهن أو سأقوم بتحميلهن في سيارة لاند كروزر، وأنقلهن بها إلى بعقوبة، وأركلهن إلى داخل الصحراء التي أتين منها.»

كانت غطرسته مذهلة. وفكرت في نفسي، هذه ليست مشكلتي، ولن أتورط. وبقيت أقول ذلك في ذهني، محاولة أن أقنع نفسي، ولكن ذلك

لم يكن مجدياً. ولم يكن بإمكاني أن أبتعد عن تلك الفتيات وأتركهن تحت رحمة الجيش. لقد كان ذلك بشأن الفتيات، وليس الكولونيل. نعم، لقد قمن بعمل غبي جداً. ولكن ألا نقوم جميعنا بفعل أشياء غبية بدون إدراك العواقب بشكل كامل؟ وفي النهاية، إنها مسألة حياة أو موت.

أخذت نفساً عميقاً ونظرت إلى الكولونيل. وقلتُ، «سوف أحاول مرة ثانية. لقد علق في أذهانهن أنكم تستطيعون مساعدتهن وأنني أفسد كل شيء. عليك أن تفعل ما بوسعك لكي يعرفن أنه ليس لديهن خيارات، بحيث ينظرن بجدية أكبر إلى أي بديل أقدمه. وفي النهاية، القرار لا أتخذه أنا. سوف يكون قرار ملجأ النساء. اسم المديرة خانم. وسوف أرتب لها لتحضر وتجري مقابلة مع الفتيات.»

«هل هي مع منظمة عراقية؟ إذا كانت كذلك، لا يمكنها أن تقابل الفتيات. فقد وعدت أن لا تضطر الفتيات لمقابلة منظمة عراقية.»

قلت بطريقة فظة قليلاً، «الأمر ليس متروك لك.» ثم لطَّفت من لهجتي. «خانم امرأة كردية، وهي الوحيدة التي يمكنها أن تقبل الفتيات في هذه المرحلة.» وأضفت لمزيد من التلطيف، «سيدي.»

كنتُ أقول نصف كذبة. كنت أعرف أن خانم سوف تقبلهن بناء على إحالتي، ولكنها لن تسامحني أبداً إن لم أحذرها بشكل مناسب من أن الفتيات يتم نقلهن بصورة غير طوعية. وقد كنت أشك في أنهن سوف يهربن حالما يصلن.

قال الكولونيل، «إن ذلك لن يحدث.» وسأل، «هل لديك أي توصيات أخرى؟»

«يمكنني أن أجعل أحد أعضاء طاقم موظفيَّ يقوم بإجراء المقابلة نيابة عن خانم. لا يمكنني أن أقوم بذلك بنفسي لأن مهاراتي في الكتابة باللغة العربية ليست قوية بما فيه الكفاية لكتابة تقرير الإدخال، ولن أكون قادرة على تعبئة النماذج المطلوبة.» قلت وأنا أفكر في منى. «ولكن تذكر أنني أفعل ذلك من أجل البنات، وليس من أجلك.»

«نعم، حسناً، لا أكترث لماذا تقومين بفعل هذا. فقط أخرجيهن من هنا.»

* * *

تركت المنطقة الخضراء وأنا أستشيط غضباً من الجنود غير المؤهلين الذين أحضروا هؤلاء الفتيات بدون التفكير في تبعات أفعالهم. وقد شعرت بالغضب بصورة خاصة من أن الأمر كان متروكاً لي لكي أرتب الفوضى البغيضة التي تسبب بها الكولونيل. ولكنني حاولت أن أفكر أقل بدوافعه، وأكثر بالبنات أنفسهن.

كان يظهر على وجه يوسف تعبير جدي عندما عدت من المكتب. وقال، «قد تحتاجين إلى تلك الشفة في وقت ما.» وقد احتجت إلى ثانية لكي أدرك أنني كنت أتناوب بين مضغ شفتي السفلى وبين سحبها إلى الأمام والخلف مثل العلكة الفقاعية - علامتي المُميزة في الارتعاش عندما أكون غارقة في التفكير.

كانت لديه رسالة من عبد الله، رجل الشرطة الذي اتصلت به في بعقوبة للحصول على معلومات عن البنات. وكان قد أتى من بعقوبة ويريد

أن يراني في أسرع وقت ممكن. وكان عبد الله سيعود إلى المكتب بعد الظهر. كانت الساعة قد أصبحت الثانية أصلاً، لذلك كنت أعرف أنه ربما يظهر في أي لحظة.

وقبل أن يصل، قررت أن أطلِع يوسف على الجديد بشأن حالة البنات. وعندما قمت بسكب التفاصيل، بالإضافة إلى طبق جانبي من التعليق، أدركت كم كان رائعاً أن يكون هناك شخص يمكنك أن تأتمنه على أسرارك، حتى وإن كان يعني تلقي واحدة من محاضرات يوسف الفظيعة. وكانت محاضرة يوسف النموذجية تبدأ عادة بـ : «منال، يطلب منا القرآن ألا نلقي بأنفسنا في حفرة النار، وأن نسلك الطريق السهل بدلاً من ذلك. لماذا تصرين على القفز إلى داخل حفرة النار والسباحة والعوم في كل مكان فيها؟»

لقد كانت المحاضرة ثمناً قليلاً أدفعه من أجل الاطمئنان على أن يوسف سوف يكون إلى جانبي. لقد كان من المستحيل، تقريباً، معالجة مثل تلك المشاكل الصعبة بدون قدرته على نصحي في السياق العراقي. وقد كان بارعاً في المناورة والالتفاف على الروتين الرسمي وغير الرسمي على حد سواء. وعلى الرغم من أننا كنا نختلف، إلا أنني كنت أعرف أنه كان يمكنني أن أثق به. وكنت بحاجة إلى نصيحته الآن أكثر من أي وقت مضى.

وصل عبد الله بعد عشرين دقيقة. كان في منتصف العمر، يبلغ طوله خمسة أقدام وثلاثة إنشات، تقريباً، وكانت لديه بنية عضلية ووضع جسماني مثاليين. وعلى الرغم من قصر قامته، كان يتكلم ويتحرك بقوة شخصية بحيث كان يملأ الغرفة على الفور بحضوره. وكان الناس يتهافتون نحوه في لقاءاتنا المجتمعية.

إلا أنه أتى اليوم وهو شاحب اللون، مع تعبير قلق على وجهه. جلس متراخياً في المقعد الموجود أمام مكتبي وتململ بينما يحاول أن يقرر بأية طريقة يشابك فيها رجليه. بدأ القلق يساورني. لم يكن أمثال عبد الله من يقومون برحلة غير محددة مسبقاً من بعقوبة إلى بغداد. كنت أتضرع من أجل أن يقول لي إنه مر لأنه كان في الحي، ولكن ما هي احتمالات ذلك عندما يكون حيُّك في بغداد؟

وفي اللحظة التي استلمنا فيها الشاي، سأل، «كيف علمتِ عن قضية الأولاد؟»

خفضت كأس الشاي الخاص بي ونظرت إليه. «أي أولاد؟» رمقني عبد الله بنظرة مريبة. «الأخوان اللذان ألقي القبض عليهما قبل يومين. إنهما يخضعان للتحقيق. حتى أنا لم أعرف عنهما. كيف عرفت أنت؟»

«ليس لدي أية فكرة عما تتحدث، عبد الله. ما شأني في هذا؟»

تسلل الانزعاج إلى صوته، «الأخوان المسؤولان عن اختطاف بنات المتوكل؟»

نظرت إليه في رعب وعدم تصديق. «ليس لدي أي فكرة عن أن البنات اختطفن.» تمتمت وأنا مرتبكة تماماً بشأن ما أستطيع أو يجب أن أكشفه. «سمعت فقط أن هناك احتمال في أن تكون بعض البنات من بعقوبة مفقودات، وأردت أن أرى إن كان هناك أي حقيقة في هذه الإشاعات.»

ظل عبد الله صامتاً، ربما لم يكن يريد أن يصدّقني، ولكنه كان أيضاً غير قادر على صرف النظر عن الصدمة المطلقة في وجهي. وكنت قد بدأت أشعر بأنني معتلة بدنياً بإدراك أن رجلين بريئين يتم احتجازهما من أجل

خمس فتيات هربن بشكل طوعي. «كيف يعرفون أن هذين الرجلين قد قاما باختطافهن؟»

«حسناً، يبدو أنهما قد اعترفا.»

وازداد الشعور بالاعتلال سوءاً. ما الذي تم فعله بهذين الرجلين من أجل انتزاع اعتراف؟ «أين يتم احتجازهما؟»

كنت قد بدأت فعلاً بالتدرب ذهنياً على المكالمة الهاتفية مع الكابتن ميرفي، حليفتي الرئيسية وهي التي اتصلت بي لأول مرة بشأن القضية. كان من الضروري أن تعرف عن هذا، ونظراً لمقتها للتعذيب، كنت متأكدة أنني كنت أستطيع أن أقنعها بالنظر فيها.

نظر عبد الله إلي بتمعن. «منال، أنت عزيزة جداً بالنسبة لي وبالنسبة للآخرين في المجتمع. أسرة المتوكل أسرة قوية وثرية. أي كان الشخص الذي قرر أن يعبث مع هؤلاء الفتيات، فإنه قد ارتكب خطأً فادحاً. لا يعتقد أحد في بعقوبة أن المذنبين هما هذان الأخوان، ويقول جميع ضباط الشرطة أنه لم تكن هناك أية طلبات فدية. نصيحتي لك هي أن لا تسألي عن تلك الفتيات بعد الآن. هناك أشياء يمكنك أن تفعليها، وأشياء لا يمكنك أن تفعليها. ومن الضروري أن تصبحي أكثر قدرة على التمييز بين الأمرين.»

غاص قلبي على هذه الكلمات. لم أكن بحاجة للنظر في اتجاه يوسف لرؤية تعابير وجهه. فقد سبق وأن رآني أشق طريقي بعناد في حالات خطرة أخرى، وكنت أعرف أنه كان خائفاً من أنني سوف أقوم بذلك مرة أخرى.

* * *

وضع صعب أصبح للتو أكثر تعقيداً. وليس فقط أن تصرّف الفتيات الأحمق أدى إلى تعريض حياتهن للخطر، بل إنه أدى أيضاً إلى التعذيب والسجن الجائرين لأخوين بريئين. أكدت مصادر يوسف تصريحات عبد الله في أنه لا أحد يعتقد أن الأخوين قاما باختطاف الفتيات. لقد كانا من عائلة فقيرة ومعروفين جيداً في قريتهما بالتقوى، وكانا من بين حفنة من القرويين الذين يمضون كل فجر في الصلاة في المسجد المحلي. وبطريقة ما تمكنا أن يصبحا كبشي الفداء المثاليين.

قام يوسف بالتحري بدقة عن عائلة المتوكل أيضاً. لقد كانت عائلة عشائرية قوية جمعت ثروتها من مزارع الدجاج العديدة في عدة محافظات جنوبي بغداد، وكانت معروفة جيداً في بعقوبة بوصفها من العائلات القليلة التي تمكنت من الاستفادة من النظام السابق ومن الوضع الحالي على حد سواء. وقد كانت صلاتها عميقة مع الشرطة العراقية ومجالس المناطق المحلية. وفي الوقت ذاته، كانت عائلة المتوكل كذلك على صلة وثيقة جداً بقاعدة الجيش الأميركي، ولديها الكثير من وسطاء الاتصالات لدعم أعمال إعادة الإعمار. ولن يهدأ للعائلة بال حتى تعرف بشكل مؤكد ما الذي حدث مع بناتها. إن لم يكن من أجل الحب، فمن أجل الشرف. وكانت نصيحة عبد الله بأن هذه ليست عائلة يمكن العبث معها، هي التعبير الأكثر استخفافاً الذي سمعته لهذه السنه.

لقد كان كل سكان بعقوبة في حالة من الغضب بشأن الفتيات، وكان المركز النسائي هناك يبلغ عن زيادة في عدد البنات الصغيرات اللواتي يتم إخراجهن من المدرسة خوفاً من الاختطاف. أصابني الصداع لمجرد التفكير في سلسلة الأحداث التي تسببت بها أفعال هؤلاء الفتيات.

على الرغم من سلسلة العواقب، ما زلت أشعر بالتعاطف مع هؤلاء الفتيات، وقد أمضيت من الوقت في المحافظات الوسطى المحيطة ببغداد ما يكفي لكي أعرف الصعوبات التي واجهتها فتيات من أمثالهن، فقد عرفت الكثير من المراهقات اللواتي تم إرغامهن على الزواج، والمحظوظات منهن تمكنَّ من جعل زواجهن موفقاً، ولكن الكثيرات منهن انتهى الأمر بهن إلى الطلاق وعدن إلى آبائهن. وبالطبع كانت هناك أيضاً الأرامل، المنبوذات الأخريات في المجتمع العراقي تماماً بعد المطلقات. وحقيقة أن هؤلاء النساء لم تعدن عذارى كان يعني بطريقة ما أنهن كن دائماً في حالة إثارة. وكان الرجال العراقيون يعتبروهن صيداً سهلاً، وفي كثير من الأحيان كان الآباء يحبسون الأرامل والمطلقات من بناتهن في البيوت، ولو تم تسويق حزام العفة في العراق لأصبح الشيء الأكثر مبيعاً في البلاد.

كانت زينه ورشا قد اقتربتا من سن الزواج، ويمكنني أن أتخيل بسهولة بأنهن قد أصبن بالذعر من التفكير في الوقوع في مثل هذه الظروف. وحقيقة أنهن من عائلة قوية وثرية، كان سيؤدي فقط إلى تقرير مصيرهن بصورة نهائية.

كما أنني أمضيت من الوقت في منازل الناس ما يكفي لمعرفة مدى سذاجة بعض الفتيات. وكانت البنات من داخل بغداد (باستثناء المناطق المنعزلة) معروفات باسم بغداديات. وكن ذوات صبغة عالمية أكثر ومتطورات أكثر، وكن يتمتعن بالحريات الشخصية ذاتها التي كنت أتمتع بها عندما كنت في مرحلة النمو. وبنات المحافظات -أو محافظات (كلمة عامية للمرأة الجِلفة)، كما كانت بعض البغداديات تسميهن- يعشن حياة معزولة عن العالم الحقيقي. ومع استثناءات قليلة، كان يتم إبقاء البنات اللواتي يعشن في

المحافظات داخل المنزل. وإذا لم يتزوجن، كان يسمح لهن فقط بمغادرة المنزل إلى المدرسة أو في مهمة محددة، وفقط مع مرافقة ذكورية. وحتى الأسر الأكثر تحرراً في المنزل، كانت ترغم أهل بيتها من النساء على البقاء مغطيات في الأماكن العامة. وفي معظم الأحيان لا يكون غطاء الرأس كافياً. وكان من المتوقع في كثير من الأحيان أن تغطي المرأة نفسها بالكامل بواسطة عباءة سوداء. إلا أنه مع وجود الإنترنت والفضائيات والهواتف النقالة لا تضطر البنات إلى مغادرة المنزل أبداً لكي تتعرض لعالم جديد كلياً.

على سبيل المثال، مكثتُ ذات مرة مع عائلة من النجف، وهي واحدة من أكثر المدن قدسية عند الشيعة، وهي مقر قبر الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، ابن عم النبي محمد ﷺ والشخص الذي يعتبره الشيعة أول خليفة إسلامي. وهي أيضاً المكان الذي تعرّفت فيه لأول مرة على برنامج «ستار أكاديمي»، نسخة اللغة العربية من برنامج أميريكان آيدول. وكان لدى الأسرة ست بنات وصبي، وكان الصبي يعتبر ملك القلعة، وكان يستحق ذلك حيث أنه كان يقوم بدوره بشكل جيد. وكانت البنات يقضين الليل وهن يشاهدن ستار أكاديمي ويعانين من توتر بشأن مَن مِن الممكن أن يتم اختياره ليستمر في المستوى التالي من المسابقة. وكن أثناء الإعلانات الترويجية يتوسلن أمهن لكي تشتري لهن ملصقات أحدث فناني البوب العرب الذين لم أكن أميز أياً منهم أو أهتم في تذكرهم. وكن يمضين باقي الليل يشاهدن القناة الثانية من محطة إم بي سي والتي كانت تبث أفلام الإثارة الأميركية بشكل متتالٍ.

يعتبر هذا النقيض المتطرف لما كان من الممكن أن يُشاهَد على شاشة التلفاز قبل الغزو الأميركي. وفي ظل صدام، كانت هناك قنوات عراقية

رسمية فقط، وكان من المألوف أن تقوم المدارس بسؤال الأطفال الصغار عن برامج الكرتون المفضلة لديهم. وكانت إجاباتهم تستخدَم كدليل على ما إذا كان لدى آبائهم وصول إلى الفضائيات، وهي جريمة عقوبتها الإعدام.

ونظراً للتحول من الحظر التام إلى مشاهدة مستمرة لنجوم البوب ومطاردات السيارات، يمكنني أن أستوعب كيف يمكن أن يكون لدى زينه وباقي الفتيات أوهام العظَمَة. وكنت أعرف في قلبي أنهن لا يتحملن مسؤولية الوضع الذي قمن بإيجاده. ومع ذلك، تمكنَّ من إدخال أنفسهن في حفرة حفرنها وجررن إليها معهن الأخوين البريئين من بعقوبة.

* * *

كنت سعيدة أنني ائتمنت يوسف على سري. وقد أثبت أنه كان لا غنى عنه في دعمه من أجل مساعدتي في العمل بنجاح على تفاصيل القضية. كان تركيز «نساء من أجل نساء» الدولية ينصبّ على تحسين إمكانية حصول المرأة على سبل العيش في مناطق ما بعد الصراع، وكان هناك القليل من الموارد للتعامل مع قضايا تنطوي على عنف وعمليات هروب ونطاق حالات درامية عادية بدا أنها كانت تجد طريقها إلي. وكنت أستطيع أن أتورط في مثل هذه الحالات فقط بصفتي الشخصية. ومع كل ما كان يجري في العراق، انتهى بي الأمر بالعمل على مدار الساعة. وكان هناك بضعة من الموظفين العراقيين، برئاسة يوسف، الذين كانوا على استعداد لتقديم أكثر مما هو مطلوب منهم عندما كان الأمر يتعلق بقضايا خلافية.

وبعد أن زودنا عبد الله بتعليمات دقيقة، استلم يوسف السيطرة على العمليات اللوجستية بين الملجأ في السليمانية والكولونيل في المنطقة

الخضراء، وكنت مسرورة أن الأمور تتقدم مع حالة الفتيات بحيث يمكنني أن أتابع مع الكابتن ميرفي بشأن الأخوين في بعقوبة.

عندما أخبرت آن ميرفي ما قاله لنا عبد الله بشأن الأخوين، رفضت تصديقي وقالت، «هذا مستحيل. أعترف أننا مغفلون، ولكن ليس إلى هذه الدرجة. الفتيات موجودات تحت حمايتنا.»

قلت، «آن، ثقي بي في هذه الحالة. أتمنى أن أكون مخطئة. أنت لم تشاهدي التعبير على وجه صديقي. فقط أجري بعض الاتصالات وتحققي من القصة لأجلي.»

اتصلت بي بعد أقل من ساعة. «حسناً، تحققت وتحققت بطريقة مزدوجة. يبدو أن ما قلته قد يكون حقيقياً. هناك أخوان يتم حجزهما، ولكن الشرطة العراقية وشرطة الجيش الأميركي في بعقوبة لا يقولون لماذا. سوف أتابع الأمر بكل ما بوسعي. وإذا كانوا فعلاً قد حصلوا على اعترافات منهم، أعدك بأنني سوف أثير الأمر بصخب.» وضعت سماعة الهاتف وتنفست الصعداء. ومن خلال الجهود المشتركة من جانب آن ويوسف، كان يبدو أننا كنا في طريقنا إلى الخروج من هذه الفوضى.

* * *

بحلول نهاية الأسبوع أكد يوسف خطة نقل البنات إلى السليمانية. وبالضبط في الوقت الذي كنت أستعد فيه لشكره على عمله المذهل، تلقيت مكالمة هاتفية من الكابتن ميرفي. كان صوتها يرتجف بعض الشيء، وقد هيأت نفسي لسماع أن الأخوين قد توفيا في السجن. ولكنها لم تكن تتصل

بشأن الأخوين في بعقوبة على الإطلاق. وبدلاً من ذلك، كانت تتصل لتلغي نقل الفتيات إلى الشمال. وقالت، «لا تأخذي هذا الأمر بصورة شخصية. ولكن الكولونيل يريدك أن تكوني خارج القضية.»

«لماذا؟ ما الذي حدث؟» كنت مصدومة.

لم تكن هذه هي النهاية التي توقعتها. لقد كنا قريبين جداً من إنهاء القضية. لقد كنت مشدوهة. في لحظة كان الكولونيل يناشدني أن أتولى القضية، وفي اللحظة التالية يقوم بوضع حد لنشاطنا وخططنا؟

ترددت آن. وسألت، «إلى أي مدى تعرفين الموظفة التي جاءت من أجل إجراء مقابلة الإدخال؟»

بدون تردد أجبت أنني أعرفها جيداً جداً ولدي ثقة تامة بالطريقة التي تعمل بها. وكانت منى قد أثبتت بامتياز تفانيها والتزامها تجاه منظمة «نساء من أجل نساء» الدولية.

قالت آن إن الكولونيل يعتقد أنها قامت بتهديد الفتيات، والآن يريد أن تكون جميع المنظمات غير الحكومية خارج القضية. سوف تتم معالجتها من قبل الجيش.

سألت، «كيف؟» لم يقدم الكولونيل أي حلول في السابق. ما الذي يعتقد أنه يستطيع فعله الآن؟

أخبرتني أنه تم إضفاء صفة السرية عليها. شكرتها على تحديث معلوماتي، وأغلقت الهاتف. لم يكن بإمكاني تخيل ما الخطأ الذي حدث. لقد قللت من شأن زينه. وبطريقة ما، تمكنتْ من جعل الأمور تسير كما تريد.

اتصلت بمنى وأخبرتها بشأن قرار الكولونيل. وبدت متفاجئة بالخبر كما كنت أنا. وسألتها عما حدث في اللقاء الأخير، وسألتُ إن كانت قد قالت أي شيء يمكن أن يكون قد أسيء فهمه. وشرحت منى أنها اتبعت مقابلة الإدخال بالضبط كما أوضحت خانم. وكررت الفتيات رغبتهن في البقاء مع الجيش الأميركي، وشددن على أنهن سيذهبن إلى الشمال كملاذ أخير. وأصبحت منى محبطة معهن وأخبرتهن أنهن كن وقحات وجاحدات مع أولئك الذين يحاولون مساعدتهن.

وظللت أسأل ما إذا كانت قد خرجت عن طورها، ولكنها أصرت على أنها بقيت هادئة طوال الوقت. وفجأة، كل ما كنت أسمعه على الخط كان صوت تنفس. وقالت منى، «أوه، لا. الآن أتذكر أنني قلت شيئاً يمكن أن يكون قد حُرِّف على أنه تهديد. لقد كن وقحات جداً، وقلت لهن إنه لو كن بناتي، لكنت قد أعطيتهن رشده (صفعة).»

بينغو.

هذا كل ما كانت زينه تحتاجه لإخراجنا من الصورة. لقد كسبت معركتها. ولست واثقة من أنها تملك ما يكفي من الدهاء لكسب الحرب.

* * *

في صباح اليوم التالي، انضم يوسف إلي على شرفة المكتب لتدخين سيجارة. لم أكن مدخِّنة، ولكنني استيقظت في ذلك الصباح وأنا أرغب بشدة لو كنت مدخِّنة. وكنت قد طلبت من سائقي أن يتوقف قرب كشك سجائر في شارع حيفا في الطريق إلى مكتب الشواكة. كانوا يبيعون سجائر

منفردة، ولكنني قررت أن أشتري علبة مارلبورو لايتس كاملة. والآن كنت أضرب العلبة في الجزء الخلفي من إبهامي. لم أكن متأكدة لماذا. كنت قد رأيت من قبل مدخنين محترفين يفعلون ذلك قبل أن يقوموا بفتح علبة جديدة، وقد وجدت ذلك مهدئ بصورة غريبة.

سأل يوسف، «لماذا أنت منزعجة كثيراً؟» أخذ العلبة من يدي، وأزال الغلاف البلاستيكي، وفتح الغطاء العلوي، وأعطاني سيجارة. «لقد حصلتِ على ما أردتِ. أنتِ خارج القضية.»

حدقت في الفسحة المتدفقة لنهر دجلة في الأسفل. إن موقع مكتبي بمحاذاة حافة النهر جعله واحداً من أماكني المفضلة في بغداد. فكرت فيما قاله يوسف. وكان محقاً في أحد الجوانب. لقد كنت أريد أن أبقى خارج القضية لأنني كنت أعرف أنها يمكن أن تنتهي بشكل سيء. ومن ناحية أخرى، كنت أعرف أيضاً أنه لم تكن هناك طريقة لضمان سلامة الفتيات. والآن لن أكتشف أبداً ما الذي حدث للأخوين المسجونين ظلماً. أتذكر كلمات عبد الله بشأن معرفة متى أتدخل. وعرفت أن علي أن أكون بعيدة عن هذه المعركة، ولكن ذلك لا يعني أنني يجب أن أكون سعيدة بشأن ذلك.

كنت أثق بعبد الله ثقة كافية لأكون أعقل من القيام بمزيد من التحريات عن الفتيات. مثل تلك الأسئلة قد تشكل صلة باختفائهن وتبدأ الإشاعات.

علمت فيما بعد أنه لم أكن أنا فقط التي أوقِفْت عن العمل في القضية، ولكن كان ذلك هو الحال أيضاً مع الكابتن ميرفي لأنها هي التي أوصت بي. وتم فيما بعد منعنا من الوصول إلى المعلومات بشأن القضية. وحتى هذا اليوم لم أتمكن أبداً من اكتشاف ما الذي حدث للفتيات الهاربات أو للشابين المتهمين باختطافهن.

13
محبوسة

◖ تصورت موتي في العراق في مرات كثيرة.

بدأ الأمر عندما كان قلقي يتجلى في شكل سيناريوهات أسوأ الاحتمالات. وكانت السيناريوهات تتمحور حول حالات موت في الزمان الخطأ والمكان الخطأ. ولم أكن الوحيدة، فمع مرور الوقت تطور هذا النوع من التفكير إلى لعبة سادية بين المغتربين عندما كنا نتنافس بشأن أسوأ الطرق للموت.

وبينما كنت أقف فوق المرحاض، أصرخ من النافذة طلباً للعون، لم يكن بإمكاني أن أمنع نفسي عن التفكير في أن لدي طريقة رابحة.

قبل ثلاثين دقيقة تمكنت من حبس نفسي داخل حمام أحد مراكزنا النسائية في بغداد، والذي كنا نقوم بتجديده. ويبدو أن أكشاك المراحيض كانت في آخر قائمة المهندسين، حيث أن باب الكشك الذي كنت فيه كان محشوراً. وفي الدقائق العشر الأولى كنت مشلولة من الرعب، ذلك أنني لم أقم فقط بإقفال الكشك، ولكن قمت أيضاً بإقفال الباب الأمامي المؤدي إلى الحمام. ولم يكن هناك أي منطق في حقيقة أنني قمت بإقفال ليس باب واحد فقط وإنما بابين، سوى أنني كنت مرهقة جداً إلى درجة أنني لم أعد

أفكر. والآن يجب أن أدفع الثمن. وبعد أن خف أثر الصدمة الأولية، بدأت أضرب ضربات عنيفة وأصرخ على الكشك، ولكن بدون جدوى. ثم لاحظت أنه ما زال هناك بعض الحظ إلى جانبي، وكانت نافذة الحمام مباشرة فوق الكشك الذي حُبست فيه. تسلقت المرحاض وبدأت في الصراخ.

لا شيء.

كان وقت غروب الشمس تقريباً، وكان الافتتاح الرسمي للمركز النسائي في صباح اليوم التالي، وقد كنا نعمل حتى وقت متأخر لبذل ما بوسعنا حتى يتم افتتاح المركز في الوقت المقرر. هززت رأسي عندما أدركْتُ أنه لن يكون بإمكان أي شخص أن يسمعني. وانطلقت مخيلتي بدون سيطرة عندما أدركت أنه من السهل أن يعتقد الموظفون أن شخصاً آخر قد أخذني إلى المنزل. وهيأت نفسي لقضاء الساعات الأربع والعشرين التالية في كشك الحمام في بغداد. وكان جزء مني مرتاح لفكرة اعتقاد موظفيَّ أنني كنت في المنزل والذهاب بدون الإصرار على أخذي معهم، إذ سيكون ذلك أقل إحراجاً بكثير من اكتشاف أن رئيستهم المتألقة محبوسة في الحمام.

وبمجرد تقبلي لفكرة ذهابهم بدون اصطحابي معهم، سمعت الباب الخارجي للحمام يخشخش. ومن ثم كان هناك طرق. بدأت أصرخ.

«منال؟» لقد كان يوسف. لا بد أنه لاحظ عدم وجودي. ولا بد أنه قام بتمشيط المركز غرفة غرفة. كنت مسرورة جداً بسماع صوته. وكان بإمكاني في الواقع أن أشعر بالدموع تتدفق من عينيَّ.

انتظرت في كشكي بتلهف بينما كنت أسمع طرقاً على الباب. لا بد أن يوسف كان يركل الباب. وفي مرحلة ما من الإثارة تسلقت المرحاض

مرة أخرى، وأنا أشجعه ذهنياً. وأخيراً، تأرجح الباب منفتحاً واندفع يوسف إلى الداخل فجأة. كان بإمكاني أن أشعر أن وجهي كان يصبح متورداً بينما كنت أتخيل المشهد الذي استقبله. كنت هناك، رأسي يطل فوق كشك الحمام، مبتهجة لإنقاذي. حسناً، إنقاذي جزئياً.

سأل، «ماذا تفعلين؟»

انتابتني رغبة في أن أردَّ بجواب ساخر ولكنني أدركت أنني لم أكن في الوضع الأمثل للقيام بذلك. وقلتُ بوهن. «هذا الباب مقفل، أيضاً.»

هز يوسف رأسه وهو ينظر إلى كشك الحمام. والآن، كان مائس وفادي وغيرهم من الموظفين قد وصلوا ليشاهدوا المنظر. تجنبت عيون فادي، مدركة أنه لن يدعني أنسى هذا أبداً.

وحيث أنه كان من المستحيل أن يقوم يوسف بركل الباب بدون أن يسحقني باب الكشك، فقد ذهب إلى داخل الكشك المجاور لكشكي وتسلق على المرحاض.

«ما الذي تفعله؟» كان دوري أن أسأله.

لم يُجب يوسف. ولوح لي بالنزول عن عرشي، وبدأ بتسلق كشك الحمام. ونزل إلى كشكي وطلب مني أن أضغط نفسي مقابل الجدار الخلفي. ثم ركل الباب من الداخل إلى الخارج. وصفق الجميع عندما تأرجح الباب منفتحاً.

ابتسمت له. كنت أعرف أنه كان يجب أن أظهِر قدراً أكبر من الامتنان، ولكنني كنت محرجة حتى النخاع. كنت أقوم هنا بإنشاء مركز لتمكين المرأة، وكنت أقوم فعلياً بدور امرأة في محنة. في أسوأ وضعية ممكنة.

كانت تلك أول إشارة إلى أن عشية افتتاح المركز النسائي كانت تتجه نحو الكارثة. والأمر التالي كان مكالمة هاتفية من السفارة الأميركية، فقد قررنا أن يتم افتتاح المركز النسائي في 8 آذار/ مارس، اليوم العالمي للمرأة. وكان أيضاً اليوم المقرر فيه توقيع القانون الإداري الانتقالي (TAL). وكان هناك الكثير من النقاش بشأن القانون الإداري الانتقالي بسبب لغته الضعيفة في حماية حقوق المرأة. وكان أحد العباقرة في مكتب السفير بول بريمر قد أوصى في أن يقوم بحضور افتتاح مركز نسائي كرمز لتفانيه في العمل من أجل النساء العراقيات. افتتاح مركزنا النسائي.

توقف قلبي في اللحظة التي قام فيها المسؤول الصحفي بشرح الخطة. أغلقت عيني رافضة أن أسمح للخوف بالتسلل. وشرحتُ بهدوء أن افتتاح المركز النسائي كان حدثاً من أجل المجتمع المدني العراقي، وأننا لم نكن نخطط لوجود مسؤولين حكوميين. وشرحتُ أيضاً أننا دعونا رسمياً وزير حقوق الإنسان العراقي، عبد الباسط تركي، من أجل حفل قص الشريط. تلا ذلك مناقشة مهذبة، والكثير من الحديث عن أهمية أن تقوم حكومة الولايات المتحدة الأميركية بتسليط الضوء على إنجازاتها على المدى القصير. وحاولت أن أظل مصرة على أن وجود السفير سوف يَحرِف عن الهدف الرئيسي - النساء العراقيات، وأشرت إلى أن حضوره في الافتتاح سوف يغطي على جميع الفعاليات والخطابات الأخرى. لم تكن تلك هي المقدمة التي أردت أن أعرضها على النساء العراقيات. وأجاب المسؤول عن الصحافة بكل هدوء بالكلمات التي كنت أخشاها منذ اللحظة التي قبلت فيها مشروع المركز النسائي.

قال المسؤول عن الصحافة، «إنها أموالنا.»

كنت خلال الشهور الأولى من وجودي في العراق متشائمة بشأن التعاون مع الجيش، وكرّست نفسي للعمل داخل المجتمعات. إلا أن الواقع كان أن الإنجاز غير العسكري كان بطيئاً للغاية.

كنت أعاني من كوابيس عن جميع الفتيات اللواتي كنت غير قادرة على مساعدتهن، وكان يوسف يذكرني مراراً وتكراراً بنجاحاتنا، ولكن الواقع كان لا يزال قائماً. لم نكن قادرين على إحداث فرق. ولهذا السبب كان مشروع المركز النسائي هاماً جداً بالنسبة لي، وكان واضحاً أنه لم يكن لدى النساء مكاناً خاصاً بهن يذهبن إليه. كنت قد سافرت إلى كربلاء والحِلة، لرؤية عمل فيرن هولاند على المراكز النسائية، وكان الأثر فورياً. ويمكنك أن ترى السعادة. كانت وجوه النساء متوهجة بالحماس بينما كن يتنقلن بخفة بين غرف الكمبيوتر وغرف التدريب.

كنت أريد النتائج الرائعة ذاتها، وكنت مستميتة من أجل تحقيق تغيير ملموس، مستميتة إلى درجة منعتني من رؤية الثمن.

أمضيت الساعات الأربعة التالية محاولة أن أساوم بشأن ذلك الثمن، ولم أكن لأسمح بأن يتم اختطاف المركز النسائي. لقد كان مُلكاً للنساء العراقيات، وسوف يقوم الوزير العراقي لحقوق الإنسان بقص ذلك الشريط اللعين. لم يقم أي أحد، ولا حتى الكابتن آن ميرفي، بالوقوف إلى الجانب الآخر، محاولين باستماتة أن يجعلوني أفهم أن هذا كان أمراً جيداً. وحقيقة أن السفير بريمر سيحضر كان سيجعل الافتتاح يؤدي إلى حشد الانتباه من أعلى المستويات في واشنطن، ويمكن أن يؤدي إلى دعم أعم لقضايا المرأة. ولكنني لم أكن لأقتنع بذلك. لقد كانت لحظة التقاط صور يمكنها أن تعرِّض مستقبل المشروع للخطر.

في نهاية المطاف توصلنا إلى حل وسط اعتقدت أنه كان يمكنني تقبله. لن يحضر السفير بريمر الافتتاح الرسمي للمركز النسائي، وبدلاً من ذلك، سوف يظهر قبل الافتتاح الرسمي بثلاث ساعات من أجل إفطار غير رسمي مع بعض النساء العراقيات. وقد ذهبت خطوة أبعد وكنت مصرة على أن نقوم نحن باختيار النساء، فقد سبق وأن التقى مع بعض نساء النخبة، وقد آن الأوان بالنسبة له لمقابلة نساء مهمشات من مناطق في بغداد لم يرها من قبل مطلقاً. نساء من الشواكة ومدينة الصدر والشلة، وهي الأحياء التي كنت أعمل فيها يومياً.

كان اليوم التالي حافلاً بالنشاط. ومر إفطار الصباح مع السفير بريمر بسلاسة لا تصدق، مع عدم كون الفرصة الرئيسية للتصوير هي النساء، وإنما المشهد الذي اضطر فيه السفير بريمر لخلع حذائه القتالي سيء السمعة من أجل الجلوس على الأرض مع النساء. وقامت النساء العراقيات بطرح أسئلة عليه، وانصب تركيز الأسئلة على الجدول الزمني لإيصال الخدمات. وقامت امرأة من الشواكة باستجوابه بقسوة بشأن الكهرباء، وسألته امرأة أخرى ما الذي ينوي فعله من أجل جعل الأرامل قادرات على الحصول على رواتب أزواجهن التقاعدية. كان بول بريمر يبتسم ويشرب الشاي ويتجنب الأسئلة المباشرة بغموض مهذب. ومع ذلك، فقد اعتُبِر ذلك نجاحاً من قِبل الجميع.

ومباشرة بعد أن اختفت حاشية السفير الأرضية والجوية، بدأ ضيوفنا الآخرون بالوصول. سارت الأمور تماماً كما خططتُ لها، فلم يكن هناك تداخل بين الضيوف العراقيين المدعوين من أجل المركز النسائي وبين زيارة السفير، وبقي الشريط سليماً. وفي وقت لاحق من اليوم، علمنا بانتصار

كبير لحقوق المرأة: تم التوقيع على القانون الإداري العراقي الانتقالي، الذي اشتمل على هدف تمثيل للمرأة في الحكومة بنسبة 25 بالمائة. وقد تمنينا أن لا يمر التوقيع على هذه الوثيقة التاريخية في اليوم العالمي للمرأة بدون أن يُلاحَظ، وأن يمثل رمزاً للدور الذي سوف تلعبه المرأة في مستقبل العراق.

انتهى اليوم بقيامي بصلاة صامتة. لقد كنت ممتنة لأنه كان يوماً مرَّ بسلاسة وسعادة. ولبرهة اعتقدتُ فعلياً أنني تمكنت من تجنب نتيجة كارثية.

* * *

بحلول منتصف صباح اليوم التالي، حُطِّمت سعادتي دفعة واحدة. بينما كان فريق من موظفيَّ العراقيين يسافرون من بغداد إلى كربلاء في مهمة تدريبية، قامت سيارتان بمهاجمة شاحنة نقل بضائع أمام مركبة موظفيَّ. وكان صدفة بحتة هي التي أنقذت حياتهم. لقد كان المهاجمون قد تجاوزوا مركبة الفريق، وألقى سائقنا نظرة أثناء مرور السيارة، ولاحظ أن جميع الركاب كانوا يضعون أوشحة ذات مربعات بيضاء وسوداء ملفوفة حول وجوههم مثل أقنعة التزلج، ومغطية كل شيء ما عدا أعينهم. بدأت الغريزة بالعمل، وداس على الفرامل. وفي غضون ثوان قام المهاجمون بإطلاق النار على شاحنة البضائع التي كانت على بعد بضعة سيارات من مركبة المدرِّبات. وانطوت الشاحنة على نفسها وأوجدت حاجز طريق.

وأدى التصرف الغريزي لسائقنا بالدوس على الفرامل إلى منعه من الاصطدام بالسيارات التي أمامه. وقام بسرعة بعمل مناورة دوران كاملة

وانطلق بسرعة هارباً. وفي وقت لاحق وصفت لي المدرِّبات خوفهن بينما كن يشاهدن المهاجمين وهم يطلقون النار على السيارات التي اصطدمت ببعضها البعض في قافلة، مُحدثين مذبحة على الطريق السريع.

على الرغم من أن الفريق كسب بضعة ثوان إضافية للقيام بالدوران، إلا أن كابوسهم لم ينته، فقد قامت سيارة أخرى بالخروج من طابور السيارات الطويل وبدأت في مطاردتهم، وتم إطلاق عيارات نارية، وقام سائقنا بقيادة المركبة بخبرة عند رجوعنا من طريق عودة مألوف. كانت هذه المرة هي الثانية التي كان فيها الحظ إلى جانب فريقي، ففي رحلة سابقة إلى كربلاء، كان سائقنا يُغالب النعاس، ولكي يُبقي نفسه صاحياً، استنبط لعبة تتمثل في عدّ الحفر في الطريق. وبعد الكمين، تذكر عقله الباطن كل حفرة، وكان قادراً على الانعطاف عنها وتفاديها، مكتسباً ميزة هامة على المهاجمين.

بعد بضعة أشهر كان سيتم إطلاق لقب مثلث الموت على هذه الطريق. لقد كانت فيرن هولاند تسافر كثيراً على هذه الطريق، وكانت أول فكرة تلقائية خطرت لي فور سماعي عن الهجوم هي أن أرسل إلى فيرن رسالة إلكترونية: «فيرن، تمت مهاجمة فريقي على الطريق من بغداد إلى كربلاء. أرجوك كوني حذرة! اتصلي بي عندما تقرأين هذا.»

لم تقرأ فيرن الرسالة الإلكترونية أبداً.

سمعت في اليوم التالي الخبر بأن فيرن قُتلت بوحشية على الطريق نفسه. تم العثور عليها مع مساعدتها، سلوى، ميتتين في الصندوق الخلفي لمركبة مهجورة. وكان هناك تكهُّن بأنه قد تم إيقافهما من قِبل نقطة تفتيش زائفة وتم اغتيالهما. وعلمتُ، في وقت لاحق، أن جسديهما كانا مليئين بالثقوب، كالغربال، من الطلقات.

لم يكن من الممكن لأي شيء أن يجعلني مهيأة لهذا الخبر المروع. في البداية رفضت تصديقه. كنت مقتنعة أنه كان هناك سوء تفاهم. لم أتمكن من تصديق أن أي عراقي يمكن أن يؤذي فيرن.

على الرغم من أن جميع وسطاء الاتصالات الذين أعرفهم في كربلاء أكّدوا الخبر، بقيت متمسكة بأملٍ منافٍ للعقل في أن يكون الجميع مخطئين، ولم أبدأ بتقبل الحقيقة إلا عندما قام كابتن في الشرطة العراقية المحلية في كربلاء بالاتصال مع يوسف. ثم انهرت.

أخذني يوسف إلى منزلي في حي الجامعة. وكل ما أستطيع تذكره هو أنني بقيت أبكي حتى نمت. وتعلّمت من التجربة المباشرة كيف يمكن لحدث أن يضرب بسرعة في صميم المرء وأن يغيره للأبد. وفي غضون يومين، تم نقلي من مرتفع عاطفي من النعمة والإنجاز إلى حضيض من الرعب والخسارة الكاملين. لقد كان عمق الخسارة والشعور بها ساحقين: خسارة حياة وخسارة أصدقاء وخسارة هائلة للعراق. وعلى الرغم من أنني تمسكت بعناد بفكرة أن عملنا كان يجب أن يستمر، متعامية بإحساس جديد من التصميم لضمان أن موت فيرن وسلوى لم يكن عبثاً، منذ تلك اللحظة تغيرت حياتي في العراق.

كانت تراودني لأسابيع بعد مقتل فيرن الوحشي أحلام متكررة من التبادلات بين كِلتينا. في بعض الأحيان كان تركيز أحلامي منصبّاً على التهديدات بالكشف عن الفساد في سلطة الائتلاف المؤقتة بين المتعهدين. وكنت أحذرها بعدم صنع الكثير من الأعداء داخل النظام، وكنت أذكّرها بأننا ما زلنا في منطقة حرب وأننا معرضتين للخطر إلى حد كبير من الأطراف الخارجية المحيطة بنا. ولكن الحلم الأكثر تكراراً كان ينصبّ

تركيزه على الأيام التي ذهبنا فيها معاً في زيارات ميدانية من أجل المراكز النسائية. وتذكرت بوضوح نقاشنا بشأن المبنى في وسط مدينة الحِلة. وفي أحلامي، ناقشت فيرن بحماس بشأن الأسباب التي يجب أن تدفعها للتخلي عن ذلك المبنى. كنت أتوسل إليها أن لا تصنع أعداء، ولم يحدث أبداً أن استمرت الأحلام حتى الوصول إلى نتيجة نهائية، ولكن الرسالة واضحة جداً. كان يجب أن لا أبقى صامتة.

14
أربعة رجال وامرأة

توقفت عن ارتداء ملابس الحِداد التقليدية في اليوم الذي انتقلت فيه إلى منزلي الجديد في حي المنصور الأكثر ثراء في بغداد.

كنت قد ارتديت ملابس الحِداد منذ يوم جنازة فيرن وسلوى، وانتقلت إلى منزلي الجديد لأسباب مماثلة مثيرة للاكتئاب.

اعتُبِر مقتلهما نقطة تحول كبرى بالنسبة للمدنيين الذين يعملون داخل العراق. كانت فيرن أول أنثى مدنية تعمل مع سلطة الائتلاف المؤقتة يتم قتلها في العراق، وقد اعتقد السكان الأجانب والمحليون على حد سواء أن السبب وراء استهداف فيرن وسلوى كان أنهما كانتا تعملان لمساعدة النساء. وكان هناك خوف من أن الولايات المتحدة الأميركية كانت تهاجم النسيج الاجتماعي للمجتمع من خلال تمكين المرأة.

لم يكن أحد في العراق يتوقع مني أن أرتدي الأسود التقليدي، وكان بودي أن أقول إنني فعلت ذلك احتراماً للأعراف المحلية، ولكن ذلك لم يكن صحيحاً تماماً. لقد فعلت ذلك لأنني كنت بحاجة لفعله. كنت أعاني من مستوى غامر من الحزن، ومكّنني ارتداء اللون الأسود بطريقة ما من تحريره. لقد كان انحناءة رأس لأجل أولئك اللتين فقدتهما.

عرفت فيما بعد أنني لم أكن الوحيدة، فكثير من النساء في المناطق التي كانت فيرن وسلوى تعملان فيها ارتدين ملابس سوداء أثناء فترة الحِداد بعد فقدان شخص عزيز.

لم أقم بارتداء العباءة التقليدية التي كان يتم ارتداؤها في القرى الجنوبية، ولكنني مزجت وطابقت مما كان لدي أصلاً من بناطيل وقمصان وتنانير باللون الأسود. الملابس التي اشتريتها بقصد أن أبدو أنحف، تحولت فجأة إلى ملابسي للحِداد، ولم أدرك أبداً كم عدد الملابس السوداء اللون التي كنت في الحقيقة أمتلكها. تفاجأت أنها يمكن أن تكفي لشهر كامل. وكانت النساء العراقيات يرتدين اللون الأسود لمدة لا تقل عن سنة بعد فقدان محبوب، وكثير من الأرامل ارتدينه بقية حياتهن.

ولم أتمالك نفسي من التفكير بشأن من الممكن أن يرتدي اللون الأسود في حالة وفاتي؟

تأثرت كثيراً أثناء فترة حِدادي بمستوى الدعم الذي تلقيته من عائلة يوسف، واستمرت والدته، التي كانت تقوم بكرم كبير بإرسال قدور من الطعام، بإرسال وجبات مطهوة في المنزل مرة كل يومين، وكانت في كثير من الأحيان تصر على يوسف أن يحضرني إلى منزلهم لكي أقضي بعض الوقت معها. وفي هذه الأيام كانت تمسك يدي وتقول لي كلمات مواساة. لقد كنت أعتبرها أمي في العراق، وقد ساعد تعاطفها في عملية معافاتي.

كان حسين، في كثير من الأحيان، يقوم باحضار ميسون، شقيقة يوسف، إلى منزلي خلال هذه الأيام أيضاً. وفي الأيام التي لم يكن بإمكانها أن تحضر، كانت تتصل للتأكد من أنني كنت بحالة جيدة.

لقد كان الأسبوع الأول من شهر نيسان/ إبريل من العام 2004، وكانت الحالة العامة في أحلك مراحلها منذ وصولي إلى العراق قبل تسعة أشهر. في شوارع بغداد، وعلى مدى سنة واحدة، تحول وصف التحالف، بصورة واضحة، من جيش التحرير إلى قوات الاحتلال. وقبل أربعة أيام فقط، تعرَّض أربعة من المدنيين الأميركيين إلى كمين وقتلوا في شوارع الفلوجة، وتلا عمليات القتل تدنيس علني لجثث الضحايا. كان من الصعب عليّ التعرّف على الشوارع التي مشيت فيها قبل بضعة أشهر، على أنها هي الشوارع ذاتها التي يتم بثها الآن على قنوات الفضائيات العربية مع صور للجثث المشوهة والمحترقة.

أدى كرم الضيافة للأسر العشائرية إلى جعل الفلوجة واحدة من الأماكن المفضلة للزيارة لدي، وقد كانت في ذلك الوقت مدينة صغيرة غير هامة في غرب العراق. الرابط الوحيد الذي أذكره مع الفلوجة هو أن لديها أفضل كباب في العراق، وهي سمعة مكتسبة عن جدارة متفق عليها في كافة أنحاء البلد. وعرفت أنه لن يكون هناك مزيد من الزيارات ولا مزيد من الكباب، وسوف تطغى صورة الجثث الأربعة المعلقة من الجسر الذي مررت بسيارتي تحته قبل أشهر قليلة، على الطبق العراقي المعروف وعلى كرم الضيافة العشائرية لسنوات قادمة.

كان الجنود الأميركيون يخوضون حرباً على جبهتين، مع معقل سني في الفلوجة من جهة، ومعقل للشيعة في النجف من جهة أخرى. وكان المسجد في الجهة المقابلة لمنزلي الجديد يدعو إلى حملة وطنية للتبرع بالدم والغذاء لأهالي الفلوجة والنجف. كانت هناك حماسة في التضامن بين الشيعة والسنة في شوارع بغداد عندما قرروا القيام بمسيرة احتجاج

اعتراضاً على محاصرة التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة لقرية الفلوجة، وبدا أن جميع التدريبات التي تم تنظيمها من قِبل قوات التحالف، والتي كانت موجهة نحو مؤسسات المجتمع المدني الناشئ، كان لها تأثير في الجماعة المستهدفة الخطأ.

أدى التوتر الذي لفّ البلاد إلى جعل الخطوط الفاصلة بين الصديق والعدو غير واضحة. وبطريقة ما، أصبح الحي الذي كنت أقيم فيه سابقاً، حي الجامعة، واحداً من المناطق الموجودة على قمة قائمة المتمردين للمناطق الساخنة، وأصبح الاستيقاظ على اهتزاز النوافذ بسبب قنبلة على جانب الطريق حدثاً يومياً اعتيادياً. من المؤكد أن حقيقة أنني كنت عاملة إغاثة إنسانية لم يكن يضمن أنني لن أستهدَف. وقبل أن ينتهي العمل بمكتب الشواكة، كان منزلي ومكتبي هما الشيء ذاته، ونتيجة لذلك، كانت الكثير من المنظمات العراقية تعرف أين أعيش. وكان العنوان حتى مسجلاً لدى وزارة الداخلية، المعروفة بين أوساط المغتربين باسم وزارة الكراهية. وقد سمع عمال الإغاثة الدوليين والصحفيين، على حد سواء، إشاعات عن وجود غرف في وزارة الداخلية لتعذيب العراقيين والأجانب المختطفين.

كل شيء يحيط بي كان يظهر علامات دليليَّة لحقبة جديدة للعراق، وقد استقال وزير حقوق الإنسان عبد الباسط تركي، الرجل الذي قام بافتتاح المركز النسائي في بغداد، وترك منصبه في 8 نيسان/ إبريل احتجاجاً على اعتداءات الجيش المتكررة على الفلوجة والنجف. وتعرَّض المبنى الذي توجد فيه بركة، والذي تم عرضه علي في منطقة الكراده، وتم احتلاله في وقت لاحق من قِبل الحزب الديمقراطي الكردستاني، لهجمات بالقنابل، ويقبع المركز النسائي الذي افتتحناه قبل شهر في المستنصرية، مقابل جسر مدينة الصدر، الآن فارغاً بسبب تعرضه لهجمات عديدة.

وبينما كانت الأمور تتدهور في العراق، اتخذت منظمة «نساء من أجل نساء» الدولية، التي يقع مقرها في واشنطن العاصمة، قراراً إدارياً بأنني يجب أن أترك منزلي القديم على الفور وأن أنتقل إلى حي المنصور.

كان المنزل الذي انتقلت إليه أكبر بأربعة مرات، على الأقل، من منزلي في حي الجامعة، وكان في نهاية طريق مسدود وينفتح على حديقة تم الاهتمام بها بعناية فائقة. وكانت الحديقة بمثابة مصدر مواساة على المدى القصير. كانت الإجراءات الأمنية، التي وصلتني عن طريق البريد الإلكتروني، تسلط الضوء على أنني يجب أن لا أجلس في أماكن مرئية، كما أنهم منعوني بصرامة من التفاعل مع جيراني. وكان اسم اللعبة الجديدة توارٍ عن الأنظار (low profile). لقد ذهبت الأيام التي كنت أتناول فيها الإفطار مع الأسرة في الجهة المقابلة من الشارع، أو أتناول فيها الشاي في منتصف فترة ما بعد الظهر في حديقة صاحب منزلي. وخلال أول تسعة أشهر من وجودي في العراق، تلقيت دعوات لحضور عُرسين، وعشاء خطوبة، وحفل تخريج. وفي حيي الجديد كان علي أن أقوم بكل ما بوسعي لكي لا يلاحظ أحد وجودي.

كان الأمر منطقياً من منظور أمني، وكنت وحيدة من منظور اجتماعي. وفي كل صباح، كان موظف عراقي مختلف من مكتبنا يُقلّني بسيارة مختلفة من أجل توصيلي إلى أحد المواقع الثلاثة لمكاتبنا في أماكن متفرقة من بغداد. وبحلول نهاية الأسبوع الأول كان بإمكاني، تقريباً، أن أسمع اللحن الرئيسي لفيلم المهمة المستحيلة (Mission: Impossible) يتم تشغيله في الخلفية حيث أن حياتي بدأت تشبه معارضة أدبية سيئة للعميل 007. لم يكن لدي ما أخفيه، ومع ذلك كنت أتنقل في كل مكان في بغداد مثل امرأة مطلوبة للعدالة.

وصل فادي في صباح أحد الأيام متأخراً ساعة، وعلى الرغم من أنه كان يعمل كمسؤول لوجيستي، كان يأتي أحياناً بدلاً من السائق المعتاد، صلاح. وكان كل ذلك جزءاً من الإجراءات الأمنية. لم يكن وصول فادي ليقلقني، وذلك لأن الإجراءات الأمنية كانت توصي بتغيير الأوقات والمسارات بشكل منتظم. وعندما دخلت إلى السيارة ولاحظت السكون في داخلها أدركْتُ أن هناك شيئاً غير طبيعي. لقد كان جهاز ستيريو سيارة فادي امتداداً له، وكان دائماً يُشغِّل أحدث أغاني المغنية اللبنانية إليسا. كانت جهارة صوت الراديو مرتبطة بطريقة ما بدواسة البنزين. فعندما كان فادي يزيد من سرعته على طريق بغداد السريع، تكون الموسيقى مرتفعة جداً، وعندما كان يقترب من إشارة ضوئية، كان يخفضها تلقائياً. وكان هذا التذبذب في جهارة الصوت يستمر طوال الرحلة بأكملها. إن عدم وجود موسيقى في سيارة فادي كان يعني أن هناك مشكلة.

سألت، «ما الذي حدث الآن؟»

هز رأسه وأخبرني أنه سمع مصادفة بعض الأخبار السيئة. تنهدتُ. وكان فادي معروفاً كمصدر للإشاعات في المنظمات، وكانت لديه شبكة واسعة من الاتصالات مع جميع المنظمات الدولية تقريباً، بما في ذلك منظمة الأمم المتحدة. كان يقول مازحاً في كثير من الأحيان إن المعلومات الصادرة حديثاً من الصحافة كانت ميزة إضافية لحضور صلاة الأحد في الكنيسة بانتظام. ومعظم المعلومات التي كان يمررها كان لها ما يبررها. وفي هذا الصباح، وافق على أن يشاركني بالأخبار بعد أن حصل على وعد بأنني سوف أنسى ما كان على وشك أن يقول.

قال فادي، كان مقرنا الرئيسي فيها مرة أخرى. وقد سمع مصادفة محادثة بين المدير المالي والمكتب الرئيسي، ويبدو أنهم لم يكونوا مقتنعين أن

تغيير المنازل كان يشكل إجراءات أمنية كافية بالنسبة لي. وكانوا يشعرون أن الوضع داخل العراق لم يكن يبدو جيداً. وكان من الواضح أن هناك مواجهة في النجف، ولم يكن يبدو أن العنف في الفلوجة سوف تخف حدته في أي وقت قريب. كانوا يريدون أن ينقلوني إلى عمان، في الأردن.

وجدت أن الفكرة لا تطاق. وعلى الرغم من وعدي لفادي، رفعت سماعة الهاتف واتصلت مع المكتب الرئيسي من أجل رؤية ما إذا كانت هناك أي حقيقة في الإشاعة. وتمت طمأنتي إلى أن قراراً كهذا لن يُتخَذ من جانب واحد، وقالوا إنه بالرغم من ذلك، كانت لديهم مخاوف بشأن إبقائي -بوصفي مواطنة أميركية- في المنطقة الحمراء.

المنطقة الحمراء؟ منذ متى تستخدم المنظمات الإنسانية هذا التعبير؟ كانت المنطقة الحمراء في العام 2003 جزءاً من المصطلحات في الجيش الأميركي، وقد أزعجني أن هذا التعبير أصبح الآن يستخدَم من قِبل المدنيين. علامة مميزة أخرى للمرحلة.

منذ متى كان جوازي السفر هو التصنيف الوحيد لهويتي؟ نعم، لقد كنت أميركية، ولكن السنة الفائتة التي أمضيتها في المجتمع العراقي كان لا بد أن تستحق شيئاً ما. وكنت أعرف أن هناك قدراً معيناً من الحماية كنت سأتلقاه بوصفي امرأة عربية مسلمة.

انطلقت في حديث فردي عبر الهاتف، وناقشت بحماس أنه لم يتغير أي شيء وأن الوسائل الإخبارية والإعلامية كانت تهوِّل الوضع. وقد تمكن برنامجنا من تسجيل ما يقارب 2000 امرأة، والعديد منهن قمن بتأسيس أعمال تجارية صغيرة جداً. هل كنا جاهزين لإدارة ظهورنا لهن بالضبط في الوقت الذي كن يبدأن عملهن فيه؟

وعندما سألوني عن وضع المنظمات الإنسانية الدولية الأخرى، صمت. فجميع زملائي من المنظمات الإنسانية الأخرى قد خرجوا من العراق على مدى الأشهر القليلة الفائتة، ويمكن أن يتم عدُّ القلة الباقية على أصابع يدين اثنتين.

ومع ذلك، في رأيي، لم يكن ذلك أمراً هاماً. لن أترك العراق، فمن واجبي تجاه الكثير جداً من الناس أن أستمر في البرنامج الذي بدأت به، ولا يمكنني أن أحتمل فكرة المغادرة في منتصف الطريق. وقد أدى مقتل فيرن وسلوى إلى جعلي مصممة أكثر. اعتقدت بشدة أنني إن كنت أتمتع بالإبداع والمرونة، فيمكنني أن أجد طريقة للاستمرار بالبرنامج. كان يتعين علي فقط العمل بطريقة جديدة تماماً. كنت بحاجة إلى بداية جديدة لتكييف نفسي مع السياق المتغير داخل العراق.

انتهت المحادثة بمهمة محددة لي: من الضروري أن أقدِّم حلاً جديداً من شأنه جعلي أقل عرضة للخطر. لم أكن أعرف ما الذي كان يعنيه ذلك، ولكنني كنت سعيدة لأنه كان بمقدوري شراء مزيد الوقت لنفسي. تمتمت باعتذار لفادي لأنني نقضت اتفاقنا وطلبت منه أن يلتف ويعيدني إلى المنزل. كنت بحاجة إلى وقت للتفكير. لم أدرك أن الدموع كانت تنهمر على خدي إلا عندما قام فادي بإعطائي منديلاً ورقياً.

* * *

كان ينبغي أن يكون إيجاد حل أمراً أسهل بكثير. وناقشت، بما يشبه الهيستيريا، أنه كانت هناك حلول كثيرة للبقاء داخل العراق والاستمرار

بالعمل الإنساني. ومع ذلك، وفي اللحظة الأخيرة، لم يكن بإمكاني التفكير بأي خيارٍ قابل للتطبيق. كنت أرفض العيش في المنطقة الخضراء، لقد كان ذلك غير منطقي بالنسبة لي، فلن يؤدي ذلك إلا إلى عزلي عن بقية العراق وإبعادي عن الجماعة ذاتها التي كانت برامجنا تستهدفها: النساء العراقيات. وعندما يتعلق الأمر بالعيش في المنطقة الحمراء، كانت حجتي الوحيدة هي أنه إذا كنت أعتبَر من الأخيار، فإن المجتمع العراقي سوف يقوم بحمايتي.

ولكنني كنت أعرف أن هذا الافتراض كان ساذجاً جداً، حتى لا نقول إنه ينم عن عجرفة، فالخطوط الفاصلة بين المدنيين والعسكريين أصبحت غير واضحة منذ وقت طويل، والفوارق بين العامل الإنساني والصحفي والمتعهد والمسؤول المدني في الجيش كانت مبهمة، في أحسن الأحوال، في أوساط السكان العراقيين. ونظراً لأنه أتضح أن أول الضحايا من المدنيين في الفلوجة كانوا مرتزقة، تم توظيفهم من قِبل بلاك ووتر سيكوريتي كونسلتنغ (Blackwater Security Consulting)، فليس من المستغرب أن العراقيين لم يكونوا قادرين على التمييز بين المدنيين والجنود. وكان أهل العراق متشككين بشكل متزايد من نوايا عمال الإغاثة الدوليين في داخل العراق، ولم يكن بمقدور المواطن العراقي العادي أن يفكر سوى أن جميع التغييرات الملموسة في حياته (الكهرباء، الماء، الغذاء) إما أنها بقيت على حالها أو أنها أصبحت أسوأ. وحيث أنه تم إقناع الكثير من العراقيين بأن قوات التحالف كانت سوف تعمل على قدم وساق من أجل تحسين هذه الأمور، كانت خيبتهم بالواقع كبيرة جداً.

لم أستطع أن أفكر بوضوح، وعدتُ إلى آليتي الرئيسية في المواجهة: الطهي. وفي أوقات التوتر كنت ألجأ عادة إلى أي طعام يتيح لي القيام بالكثير

من التقطيع، وأول شيء جال في خاطري هو التبولة. واتصلت بفادي من أجل قائمة المكونات: البرغل والنعناع والطماطم والبصل الأخضر. وعلِقْتُ عندما جاء دور البقدونس (parsley)، وهو المكون الرئيسي. ولم يكن لدى فادي أية فكرة عن ما هو الـ (parsley) فالكلمة العراقية له كانت مختلفة عن تلك الشائعة بين الناطقين باللغة العربية في بلاد الشام. لقد كانت على طرف لساني، ولكنني لم أستطع تذكرها. وحيث أنني كنت مستميتة من أجل أن أنسى نفسي على لوح التقطيع، أخبرت فادي أنني سوف أكتشف وأعود إليه. اتصلت بزينة، صديقتي العراقية الأميركية في واشنطن، والتي كانت على أهبة الاستعداد للأوقات الطارئة، مثل هذا الوقت، لترجمة لغتي العربية الفلسطينية - الأميركية إلى العربية العراقية. كرفس! صفعت جبهتي بباطن يدي. كنت أعرف أن تلك هي الكلمة. بدأت في طلب رقم فادي وأنا مجهّزة بالكلمة الصحيحة.

وقبل الانتهاء من طلب رقمه، رأيت سيارته تدخل إلى الطريق غير النافذ. تفاجأت من عودته بهذه السرعة. ألم يكن من المفترض أن ينتظر من أجل البقدونس؟ وكان فادي خالي الوفاض، ولكن خيبة أملي تبدلت إلى حماس عندما رأيت أن يوسف كان في المقعد الثاني. لقد كان جميع موظفيَّ داعمين للغاية في مساعدتي في التغلب على فقدان فيرن، ولكن لم يكن أي منهم داعماً بقدر ما كان يوسف، فقد كان على أهبة الاستعداد طوال الأسابيع القليلة الماضية، وكان يزورني تقريباً مرة كل يومين.

وعندما فتحت الباب الأمامي، سأل فادي إن كان بإمكانها الدخول والتحدث. أومأت موافقة، مهيأة نفسي لمزيد من الأخبار السيئة.

«هل تريدان شرب الشاي؟» كنت أتصرف برسمية غير معهودة، ولكنني كنت أشعر بتوتر أمامهما لسبب ما.

وصرح فادي،»لا تهتمي بشأن الشاي. لدينا، يوسف وأنا، الحل الأمثل!» وقام بهمّة بعرض خطتهما الرئيسية، فقد قرر الاثنان أن الحل الوحيد كان يتمثل في انتقالهما للإقامة في منزل حي المنصور. وشرح يوسف أن جميع محاولات تعزيز الأمن لن تُبعِد حقيقة أنني كنت امرأة عزباء غير عراقية تعيش بمفردها. الهدف الأسهل.

ومن وجهة نظرهما، كانت المعادلة بسيطة: إذا كنت مستعدة للمخاطرة بحياتي من أجل العمل داخل العراق، إذن فقد كانا مستعدين للمخاطرة بحياتهما من خلال البقاء إلى جانبي 24/ 7.

وفي هذه المرة كنت مدركة لدموعي. لقد كان تأثري كبيراً بهذا المعروف إلى درجة أن كل ما استطعت فعله هو وضع رأسي بين يدي والبكاء. وكان يبدو أن المشاعر التي لم أكن قادرة على تحريرها طوال الأشهر الماضية قد فاضت مني دفعة واحدة. اختفت جميع الكوابح، وسمحت لنفسي بالبكاء علناً.

وبسبب عدم معرفتهما بما يجب أن يفعلاه مع امرأة باكية، فقد منحني فادي ويوسف المجال الذي كنت بحاجة إليه. وعندما قامت الشهقات بإفساح المجال للدموع الصامتة، عادا إلى المطبخ. وأصرا بحزم أنه لم يكن هناك حل آخر.

ومع ذلك، كان أول رد فعل لي هو الرفض. وبصرف النظر عما قالاه، كان ذلك يتجاوز نداء الواجب. حتى وإن تجاهلت هذه الحقيقة، فسيؤدي

السماح لهما بالانتقال إلى عبور الخط الفاصل بين الموظِّف والموظَّف، وسوف يضع حداً ليوم العمل المكون من ثماني ساعات، ويرغمهم على نوبات عمل تمتد 24 ساعة.

كان ذلك في الواقع يشكِّل رُبع مخاوفي، وكان الأمر الرئيسي الذي يجول بخاطري هو السؤال: ماذا سوف أقول لوالدتي؟ فخبر سكني مع رجلين سيكون كافياً لإصابة والدتي بنوبة قلبية عابرة للأطلسي. ففي ثقافتنا، بكل بساطة، من غير الممكن أن يتم ذلك. وهناك حديث للرسول ﷺ أنه إذا اجتمع رجل وامرأة غير متزوجين لوحدهما كان في صحبتهما ثالث: الشيطان. أضف رجلين وضاعف ذلك. هززت رأسي وشرحت مدى تأثري بالرأي المفعم بالعاطفة، ولكنه لم يكن حلاً مقبولاً على كثير من الأصعدة.

هتف يوسف، «إذن يجب أن تغادري. فلا يمكنك البقاء هنا لوحدك. سوف تتعرضين للقتل أو الاختطاف قبل الصيف. لن نكون رجالاً إن وقفنا متفرجين وتركنا ذلك يحدث. هناك خياران فقط، إما أن ننتقل نحن للإقامة هنا أو تخرجي أنت من هنا.»

صُدمت بفظاظته، ولكنني أدركت مرغَمَة أنه كان محقاً. ربما أن ذلك هو الحل الوحيد. ولكنني لا أستطيع أن أتخيل المحادثة التي سيكون علي أن أتبادلها مع والديَّ لشرح الوضع. وعلى الرغم من أنني كنت على مشارف الثلاثين، إلا أنني ما زلت بحاجة إلى إذن منهما. وعلى الرغم من أنني معروفة بأنني بائعة موهوبة، ولكن هذا الترتيب كان سيشكل عملية بيع صعبة.

تحققتُ من أجل التأكد من أن عائلتيّ فادي ويوسف كانتا مدركتين لما يفكران به. وقد تأثرت حقاً بالحديث مع والدتيّ فادي ويوسف، اللتين

كررتا الإحساس نفسه بضرورة توفير الحماية لي. مقتنعة بحجج فادي ويوسف، وافقت على مناقشة الأمر مع عائلتي ومع المكتب الرئيسي.

كانت منظمة «نساء من أجل نساء» مسرورة بالترتيبات، شريطة أن تكون طوعية بالكامل وأن تتم على أساس من التزام شخصي وليس من التزام مهني. ولم يكن إقناع والديّ بالسهولة ذاتها. كان الحل الأمثل بالنسبة لهما أن أخرج من العراق. وعندما أدرك والدي أنني لن أقبل بهذا كخيار، بدأ يسألني عن الترتيبات. شرحت تخطيط المنزل، ووصفت له أنها كانت فيلا كبيرة مع أربعة غرف نوم في الطابق الثاني وغرفة نوم رئيسية في الطابق الأرضي والتي يوجد فيها حمام خاص بها. وسوف يقيم الشابان في الطابق العلوي. وكان للغرفة الرئيسية قفل، ووعدتُ بأن أقفلها كل ليلة. وقد وافق والدي، على مضض، أن ذلك كان أفضل من البقاء بمفردي.

وحتى ذلك الحين كنت قد كبحت أي مشاعر بالأمل. وحالما وافق والدي، احتفلت علناً. أخيراً، كان هناك أمر يجري كما أريد. وقررت أن سحابة سوء الحظ الموجودة فوق رأسي قد ذهبت بعيداً. بالنتيجة، فقد كان مذهلاً حقاً أنني لم أواجَه بأي معارضة على الإطلاق. وفي أي سياق آخر، فإن فكرة أن تقيم رئيسة مع موظفيها -امرأة مسلمة تقيم مع ذكرين أعزبين- كان سيشكل فضيحة. إلا أنه في خلفية بغداد الخيالية، بدت كما لو كانت حلاً طبيعياً.

* * *

كان الشهر التالي واحداً من الأشهر الأسوأ في العراق. ومن المعترف به أنه على مدى السنوات القليلة التالية قد يكون من الصعب

التحكيم في مسابقة الشهر الأسوأ. ولكن شهر نيسان/ إبريل من العام 2004 ما يزال يعتبر أحد الأشهر المرشّحة الرئيسية، فقد كانت هناك واحدة من أوائل المرات التي تمكن فيها رجل الدين الشيعي مقتدى الصدر من استعراض قوة ميليشياته من خلال مواجهة قوات التحالف. وقد رد جيش الولايات المتحدة الأميركية بقوة على مقتل الأربعة الأميركيين في الفلوجة بحصار لمدة شهر تسبب في قتل المئات من العراقيين، وأعداد أكبر حتى من المشرّدين، الكثيرون منهم من النساء والأطفال.

ولم يكن شهراً جيداً بالنسبة للأميركيين أيضاً، ففي الواقع أنه كان من أكثر الشهور دموية منذ غزو العام 2003، مع أكثر من 135 جندياً قتيلاً. وأصبحت الطريق إلى المطار تُعرَف الآن باسم طريق المحكوم عليهم بالإعدام بسبب العدد الكبير من القتلى من العبوات الناسفة على جانبي الطريق. وبحلول نهاية شهر نيسان/ إبريل، تمت إضافة الوقود إلى النار عندما وصلت إلى وسائل الإعلام العالمية أخبار الاعتداءات البدنية والجنسية على السجناء في سجن أبو غريب سيء السمعة على أيدي القوات الأميركية. كان وقع الأخبار أشد ما يكون على الجنود، فقد كان الكثيرون منهم بحاجة لأن يشعروا بأنهم يجعلون حياة العراقيين أفضل، ولكن أخبار أبو غريب كانت محبطة.

لم يكن للأخبار ذلك الوقع الكبير على العراقيين أنفسهم، فطوال العام الماضي كان معظم العراقيين يعرفون جيداً ما الذي يحدث وراء جدران السجن. وبالنسبة لكثير من العراقيين لم تكن الأخبار سوى تعزيز لإيمانهم بالمعايير المزدوجة الأميركية عندما يتعلق الأمر بحقوق الإنسان والعدالة. وسارع آخرون بالإشارة إلى أنها لم تكن شيئاً يُذكر بالنسبة للتعذيب الذي

كان صدام حسين وأعوانه يُخضِعون الشعب له. وفي اليوم التالي لقيام محطة سي بي إس ببث صور أبو غريب في برنامج 60 دقيقة (60 Minutes)، التقيتُ مع آن ميرفي. صُدِمت عندما رأيتها في الملابس المدنية، وهي إساءة يعاقب عليها القانون في محكمة عسكرية. وشرحت لي أنها تطوعت للتجنيد في الجيش لأنها كانت تعتقد أن ذلك كان واجباً عليها، ولكنها شعرت بالخجل من ارتداء بزتها العسكرية بعد رؤية صور أبو غريب.

* * *

وخلال أسوأ الحوادث، كنت سأخضع للإقامة الجبرية، بأمر من ضابط الأمن في المنظمة والمكتب الرئيسي. وفي بعض الأحيان لم يكن بإمكاني مغادرة المنزل لأيام. وبقدر ما كنت أكره ذلك، كنت أعرف أنني كنت أسير على حبل رفيع مع إصرار بالبقاء في بغداد، ولذلك كنت أوافق على جميع الإجراءات الأمنية.

وعلى الرغم من كل ما كان يجري في الخارج، كان شهر نيسان/ إبريل واحداً من أفضل الشهور على المستوى الشخصي. ساعدني الرجلان وبطريقة ما في منزلي بإيجاد فقاعتي الخاصة المحمية. وفي الأيام التي كان يُسمح لي بها بالخروج، كنا ننشئ روتيناً يشتمل على جميع التكتيكات اللازمة لما يشابه المهمة المستحيلة الضرورية لإنجاز عمل يوم واحد. ومع ذلك كنت أتمكن من زيارة المراكز النسائية في جميع المناطق المختلفة لبغداد، وغالباً ما كنت أجتمع مع منظمات نسائية عراقية كنت أعمل معها في شراكة وثيقة. إلا أن الزيارات إلى المنطقة الخضراء كانت محدودة بسبب إشاعات تفيد بأن المتمردين كانوا يراقبون نقاط التفتيش وكان يتم تعقُّب الناس.

كنت أراقب تلك الأحداث بفزع أثناء وقوعها. كيف كان بإمكاني الاستمرار في تجاهل حقيقة أن بغداد لم تعد آمنة عندما يكون من الممكن حتى لأفعال تبدو غير ضارة، مثل النظر عبر نافذة، أن تكون مميتة؟

تسرَّبَت إلى وعيي حقيقة أنه كان من الممكن أن أكون بسهولة ضحية عبوة ناسفة موضوعة على جانب الطريق، وفي وقت ما من تلك الفترة بدأت أتقبل فكرة الموت في الوقت الخاطئ والمكان الخاطئ. وقد جعلت من عادتي أن لا أغادر المنزل أبداً بدون استكمال صلواتي والتضرع إلى الله بالمغفرة.

* * *

في غضون أربع وعشرين ساعة من انتقال يوسف وفادي، اختفت جميع مظاهر الارتباك بيني وبين شركائي في السكن. وكان المنزل كبيراً بما يكفي لاستيعابنا جميعاً بدون التعدي على خصوصيتي. وبحلول الليلة الثانية انضم إلينا صلاح ومائس. لقد كان ذلك نسخة عراقية، ملائمة لجميع الأعمار، من مسلسل العالم الحقيقي لـ إم تي في (MTVs Real World) - فقط في منطقة حرب.

وفي الأمسيات توقفتُ والرجال عن كوننا زملاء عمل وأصبحنا عائلة مختلة وظيفياً من نوع رديء خاصة بنا. لقد كان جميع الرجال، ما عدا صالح، غير متزوجين، لذلك فقد كان معظمهم يقضون النهار والليل بأكملهما في منزلي، وسرعان ما توسّعت العائلة وطورنا مجتمعنا الممتد الخاص، فكثيراً ما كانت تأتي زوجة صلاح مع الأطفال أثناء النهار، كما كانت تفعل أمهات الرجال الآخرين. وكانوا في كثير من الأحيان يحضرون

قدوراً من الطعام، وأمضينا أمسيات بأكملها نُتخم أنفسنا بأطعمة مطهوة منزلياً. وسرعان ما أصبح الطعام أسطورياً.

وفي صباح كل يوم جمعة، كان مائس يذهب إلى وسط المدينة ويحضر لنا الإفطار: كاهي وكيمر، وهي معجنات رقائق محشوة بقشطة متخثرة كثيفة. وفي وقت الغداء كان يذهب إلى نهر دجله ويلتقط سمك المسكوف (سمك نهري مشقوق) ليتم شيه وتتبيله. ولكنه لم يكن مجرد صبي تسليم، فقد كان مائس يقضي ساعات في تقشير البطاطا وقليها ليُعد أفضل بطاطا مقلية على الطريقة الفرنسية أكلتها في حياتي.

كنت أعد الحلويات، وكنت مشهورة كثيراً بكعكة الجزر، التي كانت ظاهرة جديدة على الرجال. وكان صلاح يُجبر زوجته على صنع شيء ما، وكان فادي ويوسف مسؤولين عن الإمدادات التي لا تنتهي من الكولا الدايت في الثلاجة. من كان يعرف أن أيام الجمعة تلك كانت ستصبح بعض أفضل الأيام في حياتي؟

كان الطلب الوحيد الذي طلبه الرجال الأربعة هو أن أعلمهم اللغة الإنجليزية. ولم أكن أبداً معلمة جيدة، لذلك فقد تحولت، بالروح الأميركية الحقيقية، إلى وسائلي الرئيسية في التعلم: التلفاز وألعاب الألواح (board games). كانت فكرتي غير الموفقة كثيراً أن أبدأ بلعبة سكرابل. ولكن عندما كانت مجموعة المفردات مقتصرة على كلب وقط ومرح، أدركت أن علي أن أتحول إلى أمر أكثر بساطة. وهكذا انتقلت إلى مجموعتي من أقراص الفيديو الرقمية، وبدأت بـ العثور على نيمو (Finding Nemo). إن جعل أربعة رجال يجلسون لمشاهدة أفلام الكرتون لم يكن إنجازاً يستهان به، ولكنني لم أكن أبداً امرأة تؤيد النضالات السهلة. فجميع أفلامي كانت تتضمن تعليقاتي المستمرة.

أعددت منهاجاً من الأفلام كدورة دراسية مكثفة لتجربة المهاجر إلى أميركا، مبتدئة بأفلام المافيا بدءاً من كارليتوز واي (Carlito 's Way) إلى أنيوجوال سسبيكتس (Unusual Suspects)، وماي بيغ فات غريك ويدنغ (My Big Fat Greek Wedding) وسيلينا (Selena)، وأميريكان هيستوري إكس (American History X) للتشديد على التنوع.

وعندما عدنا إلى الألعاب، مثل أونو وسكرابل باللغة العربية، تطورت إلى المعركة المطلقة للفطنة. وبصفتي الأنثى الوحيدة بين أربعة رجال، كان هناك الكثير من الضغط للفوز. لقد طغت على سيمفونية الأعيرة النارية في الخارج، وكانت انفجارات القنابل التي كانت تجعل النوافذ تهتز تؤدي فقط إلى إضافة تشديد عندما كنت أتمكن من الاستيلاء على بلد آخر في لعبة الهيمنة على العالم، ريسك (Risk).

سرعان ما أصبح تركيز حياتنا منصباً على أقراص الفيديو الرقمية، ألعاب الألواح. وازداد وزني عشرة باوندات خلال أول ثلاثة أسابيع من انتقال الرجال إلى منزلي. ولم أكن الوحيدة. وبدأنا نحن الخمسة المناقشات بشأن منافستنا الداخلية لنرى من يمكنه أن يفقد القدر الأكبر من الوزن. إلا أنه في اليوم الذي قررنا فيه أن نبدأ منافسة الخاسر الأكبر، أحضر مائس إلى المنزل كعكة البراوني المفضلة عندي من مخبز في الحمراء، إضافة إلى القشطة الحامضة وبرينجلز البصل والعشرات من قطع الشوكولاته من أجل ماراثون الأفلام التي نتابعها حتى وقت متأخر من الليل. وشرح مائس أن هذا كان «وداعنا للطعام». سوف نأكل جميع أطعمتنا المفضلة ونبدأ في الحمية في اليوم التالي. ألقيت نظرة على طاولة القهوة المليئة بالأطعمة قليلة القيمة الغذائية، وهتفت، «دعونا نأكل كالخنازير!»

حملقت بي أربعة أزواج من العيون في حيرة. حاولت أن أوضح أن الأكل كالخنازير يعني أن نأكل قدر ما نريد، ولكنني أدركت أن استعارة الخنزير لم تكن مناسبة. ولم أفكر أبداً كم هي عبارة غير ملائمة في بلد إسلامي حيث يحرّم الإسلام أكل الخنازير. إلا أن مائس أدرك الفكرة بسرعة وشعر بالحماسة. وهكذا بدأت «حفلاتنا للأكل مثل الخنازير».

وبطريقة ما تم تأجيل منافستنا المتمثلة بمن يستطيع أن يفقد القدر الأكبر من الوزن، وتم تمديد عملية الوداع للطعام من ليلة أخيرة إلى عطلة نهاية الأسبوع، إلى أسبوع، إلى حسم ملحمة الصدر.

* * *

على الرغم من أنني كنت ممتنة للرجال لبقائهم في منزلي، فقد كنت مضطرة لوضع بعض الحدود. أولاً تحديد حظر تجول صارم. فلم يكن حظر التجول، الذي كان يتم فرضه في بعض الأحيان في كافة أنحاء المدينة من قِبل سلطة الائتلاف المؤقتة، رادعاً كافياً. وكانت هناك أحيان كان يتأخر فيها الرجال في عودتهم إلى المنزل إلى منتصف الليل، على الرغم من أننا اتفقنا على حظر التجول بعد الساعة 10 مساء.

وفي إحدى الليالي لم يعد مائس حتى الساعة 10:15. وعندما طرق الباب، رفضت أن أفتح ما لم يعد بأنه لن يتأخر مرة أخرى أبداً.

وافق، وجعلته يدخل. ثم قام بسحب كيس من البطاطا إلى داخل المطبخ وألقاه على الطاولة. وابتسم مائس ابتسامة غير متوازنة لي كتعبير عن الاعتذار. وأصبحت ابتساماته تدريجياً ترمز إلى طمأنينتي الظاهرية. كان هناك شيئاً فيها يجعلني أشعر أن كل شيء سيكون على ما يرام.

قام مائس بتمزيق الكيس لفتحه وسحب حبة بطاطا. رفعها في كف يده وهو يقول، «أنا أطهو أفضل أصابع في العراق.» ولم أكتشف أبداً من أين أتى تلطيف التعبير العراقي ذاك، ولكنه لا يجعل من البطاطا المقلية التي يعدُّها على الطريقة الفرنسية أقل لذة بأي درجة.

وقال مائس، «لا أحد يستطيع أن يعرف أنني أطهو. وقوف رجل عراقي وراء الفرن ليس منظراً جيداً.»

كان مائس يحب أن يبدأ جمله بالهمسة التآمرية «لا أحد يستطيع أن يعرف.» وقبل ليلتين تلى هذا التصريح واحدة من زياراته المتكررة لمقهى الإنترنت: «منال، لا أحد يستطيع أن يعرف كم من الوقت أمضي في مقهى الإنترنت.»

كان مائس دون جوان عربي ناشئ، على الرغم من أنه كان مُحرَجاً من حقيقة أن اتصالاته الغرامية كانت قائمة على العالم السيبراني. وكان في معظم الليالي يبقى في المقهى حتى الفجر ويدردش مع بنات على الإنترنت. ويبدو أنه تخطى سنوات المراهقة، والآن، وهو على عتبة الثلاثين، يبدو أنه مصمم بكل طيش على الحصول على أكبر قدر ممكن من الحب على الإنترنت.

كان يدردش مع نوعين من البنات. كان يسميهن آفاق وإمكانيات. الآفاق كن بنات من أقطار مختلفة يوسعن آفاقه. والإمكانيات كن بنات عراقيات من الممكن أن يأخذ بالاعتبار الزواج منهن. وكان مائس، وهو رومانسي حقيقي، يُمضي معظم وقته يدردش مع الإمكانيات، وكنّ، في كثير من الأحيان، بنات على بعد بضعة مبانٍ من الطريق ذاتها.

وعدتُه، «سِرَّك في أمان.»

كان وجهه متغضناً بينما كان يقشر البطاطا.

وسأل بلا مبالاة، «منال، كيف تعرفين إن قابلت الرجل المناسب؟»

لم أتمالك نفسي من الضحك. كان مائس بطول ستة أقدام وبوصتين، ووزنه 250 باونداً، وكان يتمكن دائماً من أن يُعطي انطباعاً بأنه مراهق عاشق.

ونظراً لأنه ليس لدي الكثير من التبصر في مسألة الغرام، قمت فقط بهز كتفي. واقترحت بلا فائدة، «يقولون إنك تعرف عندما تعرف. لماذا لا تقوم ببساطة بالتعرف على بنت في مقهى؟» فلم أكن مقتنعة تماماً من أنشطة مائس في التودد على الإنترنت.

قبل ستة أشهر فقط، ما كنت لأجرؤ على طرح مثل هذا السؤال. وعلى الرغم من أن أسرتي كانت ليبرالية جداً في بعض الجوانب، إلا أن هناك حد فاصل عندما يتعلق الأمر بالعلاقات العاطفية خارج إطار الزوجية. (وهو حد فاصل محدد في معظم الأسر المسلمة). ومع ذلك عرفت عن الكثير من العراقيين الذين كانوا يتواعدون بصورة منتظمة، أو الذين كانوا يتواعدون في فترة ما. وفي الواقع أن الكثيرين منهم كانوا مشبوكين في دراما غرامية. وكما عبّر عن ذلك زميل عراقي، «في خضم العقوبات والحرب، كانت تسليتنا الوحيدة هي الوقوع في الحب والخروج منه.»

هز مائس رأسه. «لا أريد حتى أن أفكر بما يمكن أن يحدث إن اكتشف أمرنا. ما كنت لأخاطر بالتحدث إليها على الهاتف. لست مستهتراً إلى هذه الدرجة. على أي حال، الأمر منته.»

لم أقل شيئاً.

بعد عدة دقائق واصل حديثه، والديها من السنَّة، ولن يفكرا أبداً بشيعي مثلي.» هز كتفيه، وكان لدي انطباع بأنه كان يتظاهر بأنه لا يهتم.

لقد كان كفوءاً بصورة ملفتة في مهمته المتمثلة في تقشير البطاطا، وكان قد أنجز ربع ما في الكيس. قطع البطاطا وجعلها تنزلق إلى داخل المقلاة، متراجعاً عندما انقذف الزيت الحار نحوه.

وقال مائس، «قبل سنة واحدة ما كانت هذه الاختلافات الطائفية لتشكل مشكلة.» متحدثاً إلى المقلاة أكثر مما كان يتحدث إلي. كنت أعرف أنه كان محقاً، ولكنني لم أتمكن من التفكير في أي شيء مفيد أقوله. ولحسن حظي أنني لم أكن مضطرة للتفكير في أي شيء لملء الصمت غير المريح، لأن يوسف اندفع إلى داخل المطبخ.

سأل يوسف، «ماذا تفعل بحق الجحيم؟»

أجاب مائس، «أقلي أصابع.»

سأل يوسف، «إنها الحادية عشرة مساءً. هل تحاول أن تقتلنا بنوبة قلبية؟» ومثلما كانت تؤثر علي، كانت حفلاتنا للأكل مثل الخنازير تؤثر سلباً على يوسف. لقد كان يظهر له كَرْشاً ببطء، وكان يربت عليه باعتزاز. وظل باقي جسمه نحيفاً بصورة ملفتة للنظر، وكنت أقرُّ في نفسي، رغماً عني، كم كان يوسف وسيماً.

لقد كان الرجل المثالي بالنسبة لي دائماً هو رجل طويل وذو بشرة سمراء. وكان يوسف استثناءً ملحوظاً. كان من طولي تقريباً، وأقرب إلى اللون الفاتح. وكان شعره الأشقر الداكن وعيناه العسليتان يجعلانه جذاباً للنساء العراقيات. وكان شعره مقصوصاً على نمط المارينز ولديه إحساس

بالموضة رفيعة المستوى لدرجة بدا معها أن باقي الرجال كانوا يقلدونه. وفي الواقع أنه في كثير من المناسبات عندما كنا نقترب من نقطة تفتيش، كان الجنود يلوحون له بالعبور ويوقفونني ويطلبون رؤية هويتي.

لم تكن مجرد طلته الحسنة هي التي تجعله محبباً للجنس الآخر، بل إنه كان يمتلك سحراً معيناً خاصاً به. وعلى الرغم من أنه كان مدركاً لطلته الحسنه، إلا أنه كان يمتلك سحر شخصية باحتشام جعلته محبَّباً. كنت ألاحظ تعامله مع الموظفات، فقد كان واضحاً أن يوسف كان مدركاً لتأثيره على النساء. ولهذا السبب، خرجت عن أسلوبي المعتاد للتأكيد أمامه على أنني أفضِّل الرجال الأكثر سُمرة.

عندما ابتسم لي في المطبخ، أدركت أنني كنت أحدق به. حاولت أن أعيد تركيزي على مائس، ورجوت أن لا يكون وجهي يحمَرّ خجلاً.

قام مائس بجعل مزيد من البطاطا تنزلق إلى داخل المقلاة، والتي كانت الآن قد أصبحت تطقطق بصوت مرتفع. ولم يكن يوسف حتى ينتظر رداً، فقد توجّه نحو الثلاجة لإخراج زجاجة من صلصة الطماطم (كاتشاب) من نوع هاينز، رفعها باعتزاز مع ابتسامة وقال، «صلصة الطماطم التي كادت أن تكلفني حياتي.»

يمتلك يوسف موهبة خاصة في المبالغة، ويستطيع أن يعيد رواية الحدث الأكثر إثارة للملل مع قدر كبير من الحيوية بحيث يصبح أسطورياً في غضون أربع وعشرين ساعة. ومن الابتسامة التي كانت على وجهه، كنت أعرف أنه كان على وشك الانطلاق في روايته لكيفية قيامه ببسالة بالتقاط صلصة الطماطم من أجلي من المنطقة الخضراء.

سأل يوسف، «هل تمانعين إن استخدمت صلصة الطماطم الخاصة بك؟ نظراً لأنني قضيت ساعتين كاملتين عند نقطة التفتيش من أجل الحصول عليها؟»

همهمت بسخرية، «نعم بالتأكيد.»

«أعني أن هذه يجب أن تكون صلصة طماطم خاصة، على الرغم من أنني يجب أن أعترف أنه لو كنت أعرف في ذلك الوقت أن السبب الذي كنت أعرض حياتي للخطر بشأنه كان من أجل الحصول على زجاجة من صلصة الطماطم، لكنت قد طلبت منك أن تقفزي من على جسر. في البداية كنت أعتقد أن هذه كانت كلمة السر لشيء آخر، وأنها كانت معبأة بالحشيش، ولكن يا للمفاجأة - إنها حقاً مجرد صلصة طماطم.» واستدار يوسف نحو مائس وسأله، «هل أخبرتك أنني أمضيت ساعتين عند نقطة التفتيش؟»

«نعم، أخبرتني. أعتقد أن هذه هي المرة المائة.» أجاب فادي وهو يرقص الفالس داخلاً إلى المطبخ، وبدأ في التقاط البطاطا المقلية مباشرة من المقلاة. وعلى العكس من يوسف ومني، لم يكن يظهر على فادي أي شيء يأكله. وكان يأكل بالتأكيد. وبإمكان فادي أن يفوز بمسابقة في الجنوب لأكل الفطائر في أي وقت. ومع ذلك كان مجرد جلد وعظم.

قال مائس، «لقد انتهيت تقريباً من الدفعة الأولى،» وضرب فادي مُبعداً إياه بطريقة وقائية.

تدخلت قائلة، «للعلم فقط، وأنا أيضاً لم أكن أعرف أنها كانت كاتشاب.» وأنا أشعر بالذنب. فقد ذكرت آن ميرفي ليوسف أن عندها هدية

لي. وتطوع لجلبها من المنطقة الخضراء في المرة القادمة التي سيكون فيها هناك. وبهدف الإرضاء، قام بزيارة خاصة من أجل إحضار هديتي. ولم يشعر بسعادة غامرة عندما أدرك أن الهدية كانت زجاجة من صلصة الطماطم.

في الواقع أنها كانت هدية لطيفة جداً. وفي الشهر الماضي كنت قد ذكرت كم هي مختلفة صلصة الطماطم العراقية عن صلصلات الطماطم في الوطن. وقلت مازحة إن الشيء الذي أفتقده كثيراً هو هاينز. وقد تذكرت آن باهتمام بأن تطلب إضافتها إلى واحد من رزم الرعاية الخاصة بها. وقد تأثرت حقاً أنها تذكرت هذا التعليق العابر. وكان مجرد دليل آخر على مدى اهتمام الكابتن ميرفي.

وضع مائس طبقاً حاراً من البطاطا المقلية على الطريقة الفرنسية على طاولة المطبخ، وقام يوسف برش كمية سخية من صلصة الطماطم عليها. وفي غضون دقائق كان الطبق فارغاً.

وسأل مائس، «إذن ما هو فيلم الليلة؟» ونظراً لأن لغة مائس الإنجليزية كانت الأقوى، فقد كان الأكثر استمتاعاً بمجموعتي من الأفلام. وكان يوسف وفادي يستمتعان بألعاب الألواح أكثر.

وفي النهاية كان التبادل منصفاً جداً. فقد وفروا لي حماية على مدار الساعة، وبالمقابل عرَّفتهم على أفلام العرَّاب وفشار الميكروويف.

* * *

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، مر صلاح مع زوجته نغم وطفليه في زيارة قصيرة. كنت قد تكلمت مع نغم عدة مرات على الهاتف،

وكانت أحياناً تأتي في زيارات قصيرة. تذمرتُ عندما عرفت أنها أحضرت المزيد من الطعام معها، على الرغم من أنني كنت أعرف أننا سوف نأكل بنهم فور مغادرتها.

وقدَّم صلاح طفليه - علي في سن الثامنة، وزهرة في سن السادسة. وقال مازحاً وهو يلقي نظرة على مائس ويوسف، «أترون، حتى نحن السنة نسمي أبناءنا علي.»

وتدخل يوسف، «بالطبع يفعلون. فبالنتيجة هو ابن عم الرسول، ﷺ.»

قاطعته، مستديرة نحو نغم لتغيير الموضوع، «شكراً لك لسماحك لصلاح بالقدوم في كثير من الأحيان. أنا أقدِّر ذلك حقاً.» لقد كان تطرقنا نحن الخمسة إلى هذه المناقشة، بشأن أوجه الاختلاف والتشابه بين السنة والشيعة بأشكال وأحجام مختلفة، ما لا يقل عن ألف مرة على مدى الأسابيع القليلة الماضية. ولم يكن بإمكاني الاحتمال إن كانوا سينطلقون في الموضوع مرة أخرى.

أجابت، «أرجوك، لا تقولي ذلك. أنت ضيفتنا، ولو كان منزلنا كبيراً بما يكفي، لكنت أصريت على أن تقيمي معنا. وعلى أية حال، صلاح لا يقضي هنا الوقت الذي يود أن يقضيه. وهو يشعر بقدر كبير من الغيرة من أن علاقتكم جميعاً تتوطد بدونه.»

كان التحدث مع نغم ساراً جداً بحيث كان الأمر مفاجئاً عندما قام صلاح بصفع فخذيه، الإيماءة العراقية من أن وقت الزيارة قد انتهى. ونظر إلى نغم، هل تخططين لقضاء الليلة أيضاً؟»

لقد كنا مستغرقتين في الحديث إلى درجة أننا لم ندرك أن عدة ساعات قد مرت. إنها المرة الأولى التي بقيت فيها أسرة صلاح وقتاً طويلاً، وقد استمتعت حقاً بفرصة معرفة نغم بشكل أفضل. كان من المسلي جداً التحدث معها، وكان طفلاها مؤدبين جداً، فقد جلسا، طوال الوقت الذي كنا نتحدث فيه، يشاهدان التلفاز، وأتاحا الفرصة لنا نحن الاثنتين للانشغال ببعضنا البعض. لقد كان الأمر مضحكاً. لا أتذكر كيف بدأت محادثتنا، ولكنني شعرت براحة كبيرة معها بحيث أننا كنا نتبادل قصص حياتنا مع بعضنا البعض. تشاركْت معها بتجاربي وأنا أكبر في أميركا، وسألت عن الحياة في أميركا وارتداء الحجاب في الوقت نفسه. وكانت تشعر بفضول بشأن معاناتي الشخصية بوصفي مسلمة ملتزمة في بلد علماني.

شاركتني نغم أيضاً بحبها للمدرسة، وعلى الرغم من أنها تزوجت صلاح عندما كانت في سن الثامنة عشر، إلا أنها كانت لا تزال مصممة على إكمال تعليمها. وكانت في الوقت الراهن راضية بأن تجعل حبها للمدرسة يتدفق نحو طفليها، ولكنها كانت تعتقد أنه عندما يكبر طفلاها بما يكفي، تكون لديها فرصة في العودة إلى المدرسة. وكانت تشعر بأنها محظوظة لأن صلاح، خلافاً لإخوانها، كان منفتح الذهن إلى حد كبير، ولم يكن يريد أكثر من طفلين، فقد كان لدى بقية إخوانها وأخواتها حدّ أدنى من الأطفال يبلغ ستة لكل منهم.

شاركتني في الوقت نفسه بقصصها عن الرجال الأربعة الذين هم الآن حراسي الشخصيين الذين نصَّبوا أنفسهم بأنفسهم. كنت دائماً مدركة للصداقة الحميمة التي تربط الأصدقاء الأربعة، ولكنني لم أدرك أبداً إلى أي مدى كانت علاقتهم عميقة مع بعضهم البعض.

كان يوسف ومائس وفادي إلى جانب صلاح في المرة الأولى التي أتى فيها صلاح لطلب يد نغم من أجل الزواج، ووصفت نغم مدى شعورها بالرهبة عندما رأت أربعة شبان يدخلون من الباب. كان ثلاثتهم إلى جانبه في يوم زفافه، وقد أتى كل واحد منهم بسيارته من أجل أن تكون الزفة أكبر ما يمكن، وكانوا يقودون سياراتهم جنباً إلى جنب مع سيارة الزفاف التي كانت تقل العروس والعريس، الموسيقى صاخبة، والأبواق تزمر وأحياناً يقومون بإطلاق الرصاص من مسدساتهم نحو السماء. وفي نهاية حفل الزفاف، قام الأصدقاء الأربعة بإطلاق النار من بنادق الكلاشينكوف نحو السماء -النسخة العراقية من الألعاب النارية- لجعل الاحتفال بالزفاف مميزاً.

وأخبرتني نغم أن ثلاثتهم كانوا يقفون إلى جانب صلاح في غرفة الانتظار عندما ولِد علي. ووصفتهم بأنهم جيران أصبحوا أصدقاء، وأصدقاء أصبحوا إخوان.

طوال الوقت الذي جلست نغم فيه معي، لم يكن بوسعي إلا أن أحدق فيها بإعجاب شديد. لقد كنت مصدومة من مدى جمالها. هناك صفات كثيرة يتمتع بها صلاح، ولكن الوسامة لم تكن واحدة منها. وفي الواقع أنه كان بعيد كل البعد عنها. ولكن جسم نغم الطويل والنحيل كان يخفي حقيقة أنها أم لطفلين. وكان شعرها الأسود بلون خشب الأبنوس يتدلى إلى خصرها في تفاوت حاد مع جلدها الذي كان بلون الخزف الأبيض. وكنت مندهشة من طول رموشها، وكان بإمكاني أن أقسم أنني كنت أشعر بنسيم خفيف كلما كانت ترمش بعينيها. كان لديها جمال بدوي كنت أتخيله عندما كنت أقرأ الشعر العربي الكلاسيكي. وكان بإمكاني أن أتخيلها مصدر إلهام لكثير من الشعراء العراقيين.

بعد أن ذهب صلاح ونغم مع طفليهما بعيداً في السيارة، وقفت أحدق خارج الباب الأمامي لدقائق، وكنت لا أزال مصدومة بجمال نغم، أو بالأحرى، بصراحة أكثر، بافتقار صلاح له. وسألت يوسف بينما كنت أغلق الباب، «كيف حدث هذا؟»

ضحك يوسف، مدركاً تماماً ما قصدت. وقال، «إنها ابنة عمه.»

ضحكت، مسرورة أننا كنا نحن الاثنين نفهم بعضنا البعض بسهولة كبيرة.

وأضاف، «إنها مدرجة بين ألغازنا التي ما زالت غير محلولة. نسختنا العراقية من الجميلة والوحش.»

وبينما كان يوسف يسخر برفق من صديقه، صدمت مرة أخرى من العطف في صوته. وتذكرت وصف نغم للطريقة التي نشأ فيها الأربعة معاً، متشاركين بأثمن الذكريات مع بعضهم البعض.

كانت صداقتهم تقف في تحدٍ جريء للحديث عن حتمية تقسيم العراق. وبينما كان العراق يتفكك من حولي، كان لدي امتياز مشاهدة هؤلاء الأربعة وهم يتفاعلون. لقد كانوا يحبون بعضهم البعض بطريقة اقتصرتها الثقافة الغربية على الأخوة في الدم. وكان كل واحد منهم مستعداً فعلياً لتلقي رصاصة بدلاً عن الآخر.

وبطريقة ما أتيح لي أن أدخل في دائرتهم.

* * *

وانفجرت فقاعتنا في بعد ظهر أحد الأيام عندما تلقيت مكالمة من رايان، المدير العراقي لمعهد الديمقراطية والشفافية (DTI) وهو منظمة أميركية غير ربحية. كان جزءاً من التوجيهات الأمنية الجديدة لمنظمتي ينطوي على أنه إن ساءت الأوضاع، فسيتم إجلائي مع فريق معهد الديمقراطية والشفافية. ووافق رايان على إدراجي في جميع تحديثات معهد الديمقراطية والشفافية الأمنية، إلا أنه، وحتى هذا الوقت، كنت قد قرأت وتجاهلت جميع رسائله الإلكترونية بشأن «المنطقة الحمراء» و«ضرورة الإخلاء.» كنت أعرف أن هذا كان أمراً سيئاً، ولكنه في رأيي، على الرغم من أن الوضع كان قد تدهور، كان لا يزال تحت السيطرة، بالإضافة إلى أنه كان لدي احتكار دفاعي علي أن أتشبث به.

من الواضح أن رايان وفريقه لم يكونوا يعتقدون أن الوضع كان لا يزال آمناً. كان يتصل من مطار بغداد حيث قام بإجلاء فريقه، واستأجر طائرة، وكان من المقرر أن تقلع بعد ثلاثين دقيقة. اعتذر بشدة عن عدم الاتصال بي في وقت مبكر أكثر، ولكن إجراءاتهم الأمنية كانت تنص على ألا يتم إبلاغ أياً كان حتى اللحظات الأخيرة. لا أحد. ولم أجد أي فائدة في الإشارة إلى أنه كان هناك اتفاق شفوي، وأنه كان من المفترض أن أكون جزءاً من أي خطة إجلاء. قمت فقط بوضع سماعة الهاتف وأنا مذهولة.

أبلغت الأنباء للرجال.

كنا في وسط لعبة مليئة بالمخاطر الجدية جداً. كنا نجلس نحن الخمسة حول طاولة غرفة المعيشة، نلعب اللعبة بقواعدنا الخاصة المعدة خصيصاً. وكان ذلك هو اليوم الثالث من الإقامة الجبرية المفروضة من المكتب الرئيسي.

رد يوسف، «النذل! ذلك النذل الأناني!»

سأل مائس العملي، « ماذا أنت فاعلة؟»

قلت، «لا شيء، سوف أنهي لعبتنا. كنت أريد أن أتظاهر كما لو أن المكالمة الهاتفية لم تتم مطلقاً. ولم أتمكن من التفكير في ما الذي دفع إلى القيام بمثل عملية الإجلاء هذه. وفي الوقت ذاته، لم أكن أريد أن أفكر بشأن حقيقة أنه، نظراً لإجراءات معهد الديمقراطية والشفافية، ربما أن وقت إجلائي قد حان أخيراً.

«عليك أن تغادري. لا بد أن لديهم بعض المعلومات التي لا تعرفينها. علينا أن نفكر بطريقة لإيصالك إلى المطار.»

وقف يوسف وكان يخطو جيئة وذهاباً. وبدلاً من أن أتأثر باهتمامه، شعرت فجأة بغضب شديد من إحساسه بالسيطرة.

قلت، «لا، لن أذهب. سوف أبقى. إذا كان ذلك يعني بضعة أسابيع من الإقامة الجبرية، فليكن. ولكنني لن أرحل.»

وناقش يوسف، «لا بد أن شيئاً ما قد حدث ما جعلهم يقررون أن يرحلوا. أنت لا تقومين فقط بوضع حياتك في خطر، أنت الآن تقومين بوضع حياتنا جميعاً في خطر. لو كنت أعتقد أنني أستطيع أن أحميك، كنت سأقول لك إبقي، ولكنني أعرف أنني لا أستطيع. لا أحد منا يستطيع. لذا عليك أن ترحلي.»

لم يكن في استطاعتي أن أبدأ في استيعاب ما الذي كان يقوله. وبدأت بالصراخ، مصرة على أنه كان بإمكاني أن أبقى وأنني لا أستطيع أن أرحل. وكان هناك جزء مني قد أدرك إلى أي مدى كنت أتصرف بطريقة

تنم عن عدم نضج، ولكن لم يكن بإمكاني أن أوقف نفسي. شعرت بإحساس قوي من كراهية الذات عندما بدأت في البكاء. منذ متى وأنا ينبوع من العاطفة؟ لم أسمح لنفسي أبداً بالبكاء بالقدر الذي بكيت فيه خلال الأشهر السابقة. لقد اعتبرته علامة ضعف. وفي ذلك الوقت لم أكن أدرك أن كلمات يوسف كانت تؤلمني. لم أكن أدرك أن إصراري على البقاء لم يكن مجرد تصرف تضامني ولكنه كان أنانياً إلى حد كبير. والكلمة الوحيدة التي كنت أسمعها من يوسف كانت ارحلي، وقد تسبَبَتْ في قدر من الألم أكبر بكثير من ما كنت مستعدة لأن أعترف به.

تدخل فادي قبل أن تحتد المناقشة أكثر، وأشار إلى أن رحيلي سوف يكون حلاً مؤقتاً. وحقيقة أنني كنت سأذهب الآن لم يكن يعني أنني لن أعود. سوف يكون أمراً جيداً بالنسبة للجميع إن كان بإمكاني الخروج والحصول على إجازة لبعض الوقت.

كنت أعرف أن ما يقولونه كان منطقياً، إلا أنه في وقت ما من تلك الأثناء، فقدت ثقتي بالمنطق.

في وقت ما من تلك الأثناء أصبح العراق مسألة عاطفية بالنسبة لي. أصبح أمراً شخصياً.

جعلتني فكرة أنني أقوم بوضع حُراسي الأربعة في خطر أخيراً ألين، ووافقت على الرحيل على مضض. كان التحدي الآن يتمثل في الكيفية، وبدأ صلاح بالاتصال لاكتشاف ما إذا كان بإمكاني أن أحجز على رحلة إلى عمان، حيث أنه لم يكن هناك وقت للحاق برحلة معهد الديمقراطية والشفافية. وقد اتضح أن جميع الرحلات كانت محجوزة حتى نهاية شهر

أيار/ مايو. وتم إبلاغه أنه سيكون من المستحيل تقريباً جعلي أصعد على متن طائرة.

وأصرَّ يوسف على أن أتصل بالسفارة الأميركية لاكتشاف ما إذا كانت هناك خطة إجلاء للمواطنين. لذا فقد اتصلت بالسفارة وتلقيت محاضرة محترمة عن القيود المفروضة على سفر المواطنين الأميركيين الذين يعيشون داخل العراق. وحالما أنهت الموظفة قراءة تقرير السفر، قالت لي إن هناك حافلة تقل الناس من المنطقة الخضراء إلى المطار. ثم شرحت موظفة السفارة أنه ربما كان من الأكثر أمناً أن أستقل سيارة تكسي. حيث أن الحافلة كانت هدفاً رئيسياً.

وقالت، «ربما أنه من الممكن الحصول على النتيجة نفسها لو تم وضع حرف X بحجم كبير وبخط ثخين على ظهر الحافلة.»

قال مائس، بعد أن أبلغتهم بالخبر. «يبدو أن المسؤولية ملقاة على عاتقنا بمفردنا.»

كان يوسف يخطو جيئة وذهاباً ويتمتم بعبارات تعبر عن كم كان رايان نذلاً بتركي وراءه.

قلتُ، «ليس مسؤولاً عني. عندما تكون هناك محنة، يتعين على كل شخص أن يكون حذراً ممن حوله،» متسائلة إن كان ذلك سوف ينطبق عليّ في يوم من الأيام.

قال يوسف، «أنت لا تعتقدين ذلك.» وأضاف، « والأهم هو أنك لا يمكن مطلقاً أن تفعلي ذلك.»

وقال فادي، «حسناً، ليس هناك أي شيء نفعله الآن. لذلك أقترح أن نعود إلى لعبتنا، وعليكم جميعاً أن تتقبلوا حقيقة أنني على وشك أن أهزمكم شر هزيمة.»

كنا نعرف جميعاً أن فادي كان محقاً، فقد غربت الشمس، ولم يكن هناك ما نستطيع فعله هذه الليلة. وقد كانت السرعة التي تمكنا فيها من العودة إلى داخل فقاعتنا أمراً مذهلاً. وطوال الساعة التالية كنا مستغرقين بعمق في اللعبة. كان مائس يصرخ على فادي ويوسف لقيامهما بتشكيل تحالف، و كان صلاح ينتهز الفرصة بإلقاء بعض القنابل الإضافية على البلدان المحتلة.

ولكن الأخبار تنتقل بسرعة، وقبل أن تنتهي اللعبة كنت قد تلقيتُ ست مكالمات هاتفية: أربعة من أمي وواحدة من أخي الأصغر وواحدة من المكتب الرئيسي. وأمر المكتب الرئيسي أن أخرج على الفور من العراق. وبالنسبة للطريقة، لم يكونوا متيقنين، وكانوا غاضبين من تصرف معهد الديمقراطية والشفافية، ولكن لم يكن لديهم أي حل يقدمونه. وخشية أن أنسى، كانت أمي تريد أن تذكرني بشكل متكرر إلى أي مدى كانت فكرة ذهابي إلى العراق سيئة، وإذا كنت سأموت، فسوف لن تسامحني أبداً، في حين اتصل أخي الأصغر ليتأكد من أنني كنت مدركة بأنني كنت أقوم بقتل أمِّنا.

قام كل منا خلال الأربع والعشرين ساعة التالية ، نحن الخمسة جميعنا، بالاتصال بكل صلة لدينا لحجز مقعد لي على واحدة من الطائرات المغادرة. ثم سمعنا إشاعة عن ضرب أعناق ما يقارب من العشرين مواطناً أميركياً بطريقة وحشية، وبحلول نهاية اليوم التالي كنت أقترح أن أجلس على مقعد المرحاض في الطائرة إن كانت خطوط الطيران مستعدة على قبول القيام باستثناء.

في نهاية المطاف، قامت لوسي، وهي صديقة لبنانية تربطها علاقات وثيقة مع الخطوط الملكية الأردنية، بالتفاوض على مقعد لي. سأكون مدينة دائماً لها لقيامها بجعلي أسافر على تلك الرحلة. وأصبحت المهمة الآن تتمثل في العثور على طريقة للوصول إلى المطار.

ربما كانت الأميال الستة من المنطقة الخضراء إلى المطار أخطر مقطع طريق في كافة أنحاء بغداد، وكانت ما أسماه الجيش الأميركي «مليء بالأهداف.» وقد تم قتل الكثير من المواطنين الأجانب والعراقيين على ذلك الطريق.

قال يوسف، «سوف نوصلك،» وجعل صوته من الواضح أنه لم يكن هناك مجال للمساومة. ذلك لا يعني أنني لم أحاول، فقد أصرّيت على أن أستقل سيارة أجرة لأنه كان من غير المحتمل أن يقوم أي شخص بمهاجمة أجنبي يسافر في سيارة أجرة محلية. هز الأربعة رؤوسهم. لقد كان ذلك غير قابل للمساومة، وكنا في اليوم التالي سندسُّ أنفسنا في سيارة ونتجه نحو طريق المطار.

نقلتُ الخبر إلى ميسون في وقت لاحق من اليوم. وعلى الرغم من تأكيدها بأنه القرار الأفضل بالنسبة لي، إلا أنها بكت عندما أخبرتها أنني كنت سأرحل. وأضفتُ بسرعة أنني سأعود، ولكنني لم أكن أعرف متى سيكون ذلك أو ما هي الفترة التي سأكون فيها بعيدة.

قضيت الجزء المبكر من الليل في زاوية غرفة الطعام. وقد وجدني يوسف جالسة هناك أقرأ آيات من القرآن الكريم.

قال، «جميل أن أراك خائفة. لقد بدأت أعتقد أنك امرأة مصنوعة من حديد.»

قلت، لست خائفة، فقط أريد أن أفعل ما بوسعي حتى، إذا حدث شيء في الغد، أكون مستعدة للقاء ربي.» لم أقصد أن تخرج الجملة مبهمة كما بدت. كنت أريد فقط أن أشعر أنني جاهزة لأي شيء يمكن أن يواجهنا في الصباح. ولسبب ما وجد يوسف ذلك مضحكاً، وضحك. وكانت ضحكة لطيفة، وذكرتني بكم هو شخص لطيف. شعرت بهزة خفيفة لا يمكن وصفها في أعماقي، وأدركت أنه من بين جميع الناس الذين سوف أتركهم ورائي، سيكون يوسف هو الذي سأفتقده أكثر ما يمكن.

«ليس هناك سبب يدعو لأن تكوني دراماتيكية بعد. سوف تهدأ الأمور. من الأفضل لك أن تعودي - فهناك عيد ميلاد علينا أن نحتفل به». كان يفصل بين يومي ميلادينا يوم واحد فقط، وكنا نمزح بشأن القيام باحتفال مشترك. «لديك ثلاثة أسابيع للعودة إلى هنا.»

دخل مائس قائلاً، «ثلاثة أسابيع لماذا؟» وشرح يوسف أنها ستكون حفلة عيد ميلادينا الكبيرة عندما أعود. ضحك مائس وقال إنه لم تكن هناك حاجة لانتظار عودتي فما زال لدينا هذا المساء. وعلى الرغم من أن وقت بدء حظر التجول قد مر فعلاً، فقد قرر أن يخرج متجهاً نحو الحارثية لإحضار الشطائر من محلات تايم آوت، مطعم هامبرغر محلي. هززتُ رأسي بسخط. فقد كان مائس مستعداً لفعل أي شيء لبطنه. وقلت له إن الأمر لم يكن يستحق ذلك.»

قال، «هناك أشياء تستحق أن تغامري بحياتك من أجلها، وعلى رأس هذه الأشياء شطيرة جيدة.»

وكان علي أن أعترف، فقد كانت شطائر رائعة.

* * *

أكلنا بنهم حتى آخر لحظة. وعندما انتهيت من صلاتي الفجر في اليوم التالي، دخلت إلى المطبخ لأرى إبريقاً طازجاً من الشاي وكاهي وكيمر على الطاولة. ولم يكن بإمكاني أن أتصور متى استيقظوا لإحضار وجبة إفطار الوداع لي. وعندما دخلت إلى السيارة بعد عدة ساعات، وجدت جميع أنواع الشوكولاتة والقشطة الحامضة وبرنغلز البصل وكيس من الدايت كوك وزجاجات ماء. كانت الرحلة إلى المطار على بعد خمس عشرة دقيقة فقط عن حي المنصور!

لم يكن الطعام كافياً لتلطيف الجو. لقد كنا جميعاً عصبيين جداً. وعلى الفور بدأنا نتناقش بشأن الطريق إلى المطار «الأقل احتمالاً في أن نلاقي مصرعنا فيه.»

هرعنا في الليلة الفائتة لشراء بعض الأشرطة العراقية، وهي طريقة فادي لضمان أن لا أنقطع عن العراق بينما أكون بعيدة عنه. وهكذا أنهينا النقاش بتشغيل بعض الموسيقى بصوت مرتفع وقيادة السيارة فقط. وبعد عشر دقائق من النظر باستمرار نحو اليمين ونحو اليسار مثل الدجاج، أدركنا أن تشغيل الموسيقى في اليوم التاسع والثلاثين من محرم (يوم الشيعة المقدس للحداد الذي تكون فيه الموسيقى والتلفاز محظورين تماماً) لم تكن فكرة جيدة. وكما لو كانت اللحظة التي أوقفنا فيها الموسيقى هي ذات التوقيت المناسب تماماً، انعطفنا عند زاوية وشاهدنا سحابة من الدخان بالقرب من المطار: لقد تمت مهاجمة حافلة المدنيين وهي في طريقها إلى المطار.

وبقيت السيارة في صمت لفترة دقيقة تقريباً (رقم قياسي بالنسبة لنا)، ومن ثم قام الرجال بمحاولة يائسة لجعلي أشعر بأني أفضل من خلال مشاركتي بالطرائف العراقية الجديدة.

أدركت مدى حرصي عليهم وشعرت حقاً بخوف بشأن كيف سينتهي اليوم. لم أكن في الواقع خائفة من أن يتم تفجيري في طريقي إلى المطار، بل كانت أسوأ مخاوفي بشأن رحلة عودة الرجال إلى المنزل بدوني. لن أسامح نفسي أبداً إن تمكنت من الوصول إلى المطار، ومن ثم تعرضوا لحادث ما في طريق العودة.

كان بإمكاني أن أسمع صوت موظفة سفارة الولايات المتحدة في رأسي، محذرة من أن حافلة المدنيين كانت هدفاً رئيسياً. وللمرة المليون أدركت كم أنا مدينة لهؤلاء الرجال لإخلاصهم لي في نكران للذات.

وكما لو أن الله أراد أن يذكّرني أكثر بالمخاطر التي يعرضون أنفسهم له. كانت هناك في الأمام دبابتان أميركيتان تردّان على الهجوم على الحافلة. وكانت سبطانة مدفع الدبابة تتحرك، وفي مكان ما بين الذعر والغريزة، كانت المركبتان الضخمتان تتحركان بينما كان برجيهما يدوران بشكل متزامن. كان منظراً مرعباً، وكانت هناك مجرد إنشات وثوانٍ هي التي أنقذت السيارات التي كانت بالقرب من الدبابتين. فقد انحرفت سبطانتا المدفعين الكبيرتين فوقها وطرحت أرضاً أعمدة إنارة على جانب الطريق. وسقطت الأعمدة على الطريق. والشيء الوحيد الذي أنقذ حياتنا هو مهارة يوسف في القيادة.

عندما وصلنا إلى المطار، قيل لي إنه لم تكن هناك فرصة تذكر، أو لم تكن هناك فرصة نهائياً للصعود إلى الطائرة. ولكن بطريقة ما، مستعينة بصِلات لوسي السحرية، استطعت أن أحصل على تذكرتي. وبقي مرافقيَّ معي لحين كنت جاهزة للصعود إلى الطائرة. لقد كنت حزينة لرحيلي، وعلى الرغم من المخاطر، كنت لا أزال أرغب في البقاء. لقد شعرت بالذنب، كوني قادرة على المغادرة، لأن لديّ ذلك الخيار في الهرب.

سمعت عندما وصلت إلى عمان، أنه بعد وقت قصير من وصولي للمطار، تم إغلاق مطار بغداد.

لقد كانت رحلتي على الخطوط الملكية الأردنية آخر رحلة تغادر للأسابيع الثلاثة القادمة.

15
نقطة الانهيار

◖ أدركت أنني كنت أفقد عقلي تدريجياً في اليوم الذي حَشرتُ فيه مترجمة عراقية، وبدأت أستجوبها بقسوة بشأن تجربتها التي شارفت فيها على الموت. كان ذلك في وقت متأخر من شهر أيار/ مايو من العام 2004، وكنت قد عُدت إلى العراق بعد أن أصبح الوضع أهدأ، وأصبحتُ حتى قادرة على مغادرة منزلي وزيارة المراكز النسائية. وكان لدينا في ذلك الوقت ثلاثة مراكز جاهزة للعمل، على الرغم من أننا أخلينا مكتبنا الرئيسي في الشواكة قبل أشهر بسبب المعارك الصغيرة جداً التي كانت تنشب في شارع حيفا. وعلى الرغم من نكسات البلد الكبيرة، كنت أنظر إلى الجانب المشرق، وكان لدي أمل في أن برنامجنا سيزدهر مرة أخرى.

كانت علاقاتنا بالجيش ما زالت تلاحقنا، الأمر الذي كان يزعجني، فقد كانت إحدى وحدات الجيش الأميركي تقوم، بين الفينة والأخرى، بزيارة من أجل التحقق بشأن أحد المراكز النسائية. وأثناء إحدى الزيارات، كانت هناك امرأة عراقية شابة ترافق الجنود بوصفها مترجمة. وكنت قد رأيت الكثير من المترجمين من قبل، إلا أن شيئاً ما أدهشني بشأن هذه المرأة. لقد كانت لها هالة من القوة، وأعجبتُ بثقتها. وكان عندها عَرَج طفيف، وقالت لي غريزتي إن هذه كانت شيئاً جديداً. ووجدت نفسي أحملق بها بفضول.

لمحت عيناي وابتسمت. «إما أنك تتساءلين عن عَرَجي، أو أنك تفكرين أنني خائنة من نوع ما لأنني أعمل مع الأميركيين.»

كنت محرجة للإمساك بي متلبسة وأنا أحملق، واعترفتُ بصراحة، «كنت فقط أفكر بشأن كم هو صعب أن تكوني مترجمة أنثى. أنا أميركية، لذلك لا يمكنني قول الكثير بشأن جزء الخيانة.»

ضحكت وقدمت نفسها على أنها رغد. وبدأت بشرحها لي كيف تعرَّض فريقها لعبوة ناسفة على طريق المطار. لقد ذهلتُ، فقد بدأتْ بوصف أحداث ذلك اليوم الرهيب بالتفصيل: وصفت صوت الانفجار واندلاع النيران وإدراكها أنها قد لا تبقى على قيد الحياة. وشرحت لي كيف أنه، في الثواني القليلة الأخيرة قبل أن تفقد وعيها بسبب الألم، كانت أفكارها الوحيدة بابنها البالغ من العمر اثني عشر عاماً. وبصورة مماثلة، في الدقائق القليلة الأولى بعد استعادة وعيها من غيبوبة استمرت أربعة أشهر، كانت رغبتها الوحيدة هي أن ترى ابنها.

سألتُ، «لماذا عُدتِ إلى العمل؟» مندهشة من أنها بعد تجربة الاقتراب من الموت تُقدِم على المخاطرة بمثل هذه السرعة.

أجابت، «السبب ذاته الذي دفعني للعمل في المقام الأول.» وشرحت رغد أنها كانت أم مطلقة، وأن والديها لم يسمحا لها بالعودة إلى المنزل مع ابنها. كان زوج رغد متعسفاً، ولم تكن تطيق فكرة أن تترك ابنها معه. وعندما أصبحت قادرة على كسب مبالغ كبيرة، سمح لها والداها بالعودة إلى المنزل مع ابنها. وفي المقابل، كانت تُعطي دخلها لوالدها في نهاية كل شهر. كانت رغد سعيدة بهذه الترتيبات، وكانت مسرورة لأن والدتها كانت تعتني بابنها أثناء عملها.

شاطرتني قصتها بصراحة وصدق. ولم يكن هناك أي دوافع وراء وصفها للأحداث، وقد تأثرت بطبيعتها اللطيفة والحازمة. كان الأمر الذي أزعجني أكثر من التفاصيل الرهيبة التي شاطرتني بها هو رغبتي في سماع المزيد منها. لقد كنت منزعجة من رغبتي في الحصول على إحساس بمقدار الألم الذي انطوت عليه إصابتها وشفاؤها. وعندئذ فقط أدركت أنني بدأت تقبُّل ميتة وحشية كمصير لي.

كان هذا شكلاً مختلفاً للتقبُّل عن ذاك الذي كان لدي عندما دخلت إلى العراق لأول مرة. في ذلك الوقت كنت واعية فقط له، وقد اعتمدت على روحانيتي من أجل الدعم. وحاولت أن أكون ملتزمة أكثر بصلواتي خمس مرات في اليوم، وحتى أنني وضعت قائمة بالناس الذين كان من الضروري أن أعتذر منهم. إلا أنه، في الأشهر القليلة الماضية، اشتد وعيي، وكانت ذكرى موت فيرن هولاند ما تزال قريبة من قلبي. وفي أي وقت كنت أغادر منزلي، لم أعد أقول وداعاً ببساطة، بل كنت أطلب من الناس أن تغفر لي أي إثم. وفي مرحلة ما، قمت حتى بكتابة رسالة إلى أخي الأصغر، هاني، مع شعور عميق بالحزن من أنه قد لا تسنح لي الفرصة لمعرفته بشكل أفضل.

إلا أن هذه المشاعر كانت شيئاً مختلفاً، فبينما كنت أتحدث مع رغد، شعرت بدنو الأجل، وشعرت بهاجس في أعماقي لفهم ما الذي ينطوي عليه بالضبط. من ناحية أخرى، لم يكن في جوابها سلوى لي. وصفت رغد آلاماً مبرحة. وقد كنت أعتقد دائماً أن الدماغ سوف يحمي نفسه ويحجب الذاكرة. ولكن ما أخبرتني به رغد يخالف ذلك.

بعد ثلاثة أشهر أخبرني قائد رغد أنها قُتِلت على يد قناص. وكانت صلاتي الوحيدة أن يكون ألمها في هذه المرة قد كان في حده الأدنى.

لم تبتعد هواجسي بشأن الموت. أشهر مرت وأنا أشعر كما لو كنت أعيش على جبل الأعراف (جبل بين الجنة والنار) الخاص بي. مع ذلك رفضت أن أغادر العراق، ولم يكن هناك أي منطق في ذلك. فقد كنت أعرف أنني لن أنجز أي شيء مشابه لإنجازاتي خلال الأشهر الستة الأولى التي قضيتها في البلاد. وفي الوقت الحالي، كان العراق ينزلق في غياهب النسيان، ومع ذلك، لم يكن مستوى التهديد قد وصل بعد إلى ذلك المستوى من تفشي الخطر الذي كان سيبلغه بعد سنوات قليلة. وكنت لا أزال أتمسك ببارقة الأمل في أن تتحول الأمور إلى الاتجاه الصحيح، وكنت لا أزال أريد أن أعتقد أن كل الجهد المبذول مع النساء العراقيات لم يذهب أدراج الرياح. كان أملي متجذراً في حقيقة أن المراكز النسائية كانت جاهزة للعمل مرة أخرى. قبل أقل من شهر واحد لم يكن ذلك ممكناً. ومع ذلك كنا ما نزال بعيدين عن غايتنا، وكنت أعرف أن الطريق أمامنا كانت مليئة بالألغام الأرضية.

أصبحتُ منفصلة أكثر وأكثر عن المخاطر والأخطار المهنية، وقمت باتباع الإجراءات الأمنية بصورة آلية في اليوم الذي وجدنا فيه قنبلة خارج المركز النسائي في حي المنصور. أوعزت إلى الموظفين بإخلاء المبنى على الفور بينما انتظر صلاح، الموظف الوحيد الذي تلقى تدريباً عسكرياً، وصول فرقة القنابل التابعة للجيش. قمت بإغلاق المركز النسائي في وسط المستنصرية، في الجانب الآخر لمدينة الصدر، إلى أجل غير مسمى، عندما تم استهدافها بإطلاق الرصاص من قِبل سيارة مرت بجواره.

اتبعت تعليمات يوسف بطاعة وقمت بوضع شريط لاصق على نوافذ غرفة نومي تحسباً من الشظايا. وقد أصبح أمراً تلقائياً بالنسبة لي أن أرتمي على الأرض من أجل التغطية في كل مرة كنت أسمع فيها صوت انفجار

قنبلة. كنت أقوم بهذه التصرفات مثل رجل آلي وأنا على قناعة من أنها كانت ضرورات مؤقتة إلى أن يتمكن العراقيون من تصحيح كل ما اختل.

بحلول نهاية صيف العام 2004، تدهورت الحالة في شوارع بغداد إلى أقصى حد كان بمقدوري أن أتخيله على الإطلاق. وفي ذلك الوقت، تم اختطاف مائة من عمال الإغاثة والمتعهدين والصحفيين، وتم قتل ثلاثة وعشرين منهم. ولقيت أعداد لا تحصى من العراقيين حتفهما وقد بيّن ذلك إلى أي مدى كانت مخيلتي محدودة، فبعد سنوات قليلة، كان سيتم وصف العام 2004 على أنه حقبة استقرار، وقد اعتبرت السنوات بين 2005 و2007 على أنها عصور العراق المظلمة، وما كنت أشهده كان بداية حرب أهلية كبرى. لقد كان يتم تمزيق البلد في مهده.

كان جزء من تحرري من الوهم قد أتى من حقيقة أن بغداد أصبحت مفقودة الآن بالنسبة لي، فلم أكن أستطيع السير في شوارع حي المنصور التي تصطف فيها المتاجر، وتناول الطعام في مطاعم شارع عرصات الهندية، أو الذهاب في رحلة على متن قارب عبر نهر دجلة لشراء القطع الأثرية من شارع المتنبي. وقد أصبح التأخر في مطاعم العراق طي النسيان منذ فترة بعيدة. والمكان الوحيد الذي كنت أخاطر في الذهاب إليه هو منزل يوسف، وحتى عندئذ كان ذلك فقط لزيارة خاطفة. لقد افتقدت الجلوس على شرفة مكتب الشواكة المطل على نهر دجلة، وأصبح رئيس بلدية الشواكة، الذي كان يضايق فادي بشأن إيقاف سيارته، في عداد الموتى جنباً إلى جنب مع ولديه. وعانت صديقتي العزيزة ريما خلف من محنة التفاوض بشأن فدية ابنها المراهق وهربت إلى دبي فور إطلاق سراحه، وأصبحت جارتي في الجانب الآخر من الشارع الذي يوجد فيه منزلي في حي الجامعة،

والتي كانت ترسل إليّ المعجنات الطازجة، أرملة الآن. وأينما نظرت، كانت الأسر العراقية، التي أصبحتُ جزءاً منها، تتمزق إرباً. وكان من الغرور التفكير في أنه من الممكن أن أكون بمنأى عن كل ذلك بطريقة ما.

ومع ذلك، واصلت في أعماقي الشعور بالأمل. فأثناء صيف العام 2004، كنت مندهشة من الفرق الصارخ في الشعور المرافق للمسير في شوارع بغداد مقارنة بعام سابق واحد فقط. كنت مكتئبة بشدة من مدى تدهور الوضع، ولم يكن بإمكاني تصور أنه كان من الممكن أن يصبح أسوأ. إلا أنه، وبطريقة ما، تمكّن دائماً من فعل ذلك.

أثناء الأسابيع التي كنت فيها في عمّان، قامت ميسون وحسين بزيارتي. كانت المرة الأولى التي تغادر فيها ميسون العراق. جعلتها رؤيتها لمدى التقدم في مدينة عمّان الصغيرة تدرك مدى تأخر حبيبتها بغداد الآن. وانتهزت الفرصة للقيام بدور المضيف وأمضيت وقتاً طويلاً معهما. وعندما ألحت ميسون على لقاء عائلتي الممتدة في الأردن، كان من دواعي سروري تقديم الطرفين لبعضهما البعض. وكان والداي على وصول إلى عمّان من الولايات المتحدة الأميركية أيضاً لقضاء إجازة الصيف، وكنت متلهفة لتعريفهما على الزوجين العراقيين القويين اللذين تبنياني في بغداد. ومثل الكثير من العراقيين، كلما أمضت ميسون وقتاً أطول في عمّان، بدأت في التساؤل بشأن مستقبل العراق أكثر.

بعد ذلك، في أوائل أيلول/ سبتمبر من العام 2004، جعل اختطاف اثنين من عمال الإغاثة الإيطاليين من الواضح أن الأمور من الممكن أن تسوء أكثر بكثير. وفي هذه الحالة، كان الفرق هو في الطريقة التي جرت فيها عملية الاختطاف، فلم يتم قتل عاملي الإغاثة بواسطة عبوة ناسفة على

جانب الطريق، أو القبض عليهما عند نقطة تفتيش شرطة زائفة. لقد كانت عملية الاختطاف أوقح من ذلك بكثير.

في وضح النهار، قام عشرون رجلاً مسلحاً في أطقم ثياب عمل بإيقاف شاحناتهم من نوع جي إم سي بالقرب من المنظمة غير الحكومية الإيطالية، وساروا إلى الداخل، وأخذوا الامرأتين وزميلتيهما العراقيتين بدون إطلاق طلقة واحدة. وفيما بعد، انشغل تفكيري بقصة جرٍّ إحدى العاملات العراقيات من وشاحها من المبنى. لقد كانت عمليات الاختطاف هذه هي ذروة الوقاحة، وانطبعت عمليات الاختطاف هذه أخيراً في ذهني كإشارة لا تقبل الجدل بأن الفوضى كانت تسود في العراق.

وافقت على الرحيل من البلد فور قيام يوسف باقتراح ذلك. وقررت أننا وصلنا إلى نقطة متدنية جديدة للوضع الأمني في العراق، وأنه كان يتعين علي أن أغادر إلى الأردن لبضعة أسابيع. وتقبلت سفري بطيبة خاطر أكثر بكثير من إرسالي في نيسان/ إبريل. ولأن هذه الأسر العراقية كانت قد تبنتني عملياً، فقد كنت من بين القلة القليلة من الأجانب الذين كانوا لا يزالون في البلاد. ولم تكن هناك صعوبة في تدبير أمر الرحلة هذه المرة بسبب تناقص حركة المرور إلى داخل العراق وإلى خارجها. ومرة أخرى قام مائس وفادي ويوسف بتوصيلي إلى المطار. ومرة أخرى تركت بغداد مع النية الكاملة بالعودة بعد وقت قصير. ولم ألحظ حتى أنني كنت أسافر في الذكرى السنوية الثالثة لهجمات 11 أيلول/ سبتمبر.

* * *

وقد عدتُ. وتم اطلاق سراح عاملتي الإغاثة الإيطاليتين بعد ثلاثة أسابيع. وكنت قادرة على العودة إلى بغداد، ولكن فقط بخطط أمنية معقدة ومعززة حتى أكثر من قبل. لم يردعني ذلك، ولم أستطع أن أتقبل ببساطة أنني كنت عديمة الفائدة تماماً في العراق. وحتى عندما سمعت عن اختطاف مارغريت حسان، مديرة وكالة الإغاثة كير (CARE)، كنت مقتنعة أنه سيتم التعامل معها بالطريقة ذاتها التي تم التعامل بها مع عاملتي الإغاثة الإيطاليتين.

ومع ذلك كنت قلقة على مارغريت. كنا في كثير من الأحيان نجد نفسينا في الطرف نفسه أثناء مناقشة مجلس تنسيق المنظمات غير الحكومية في العراق، وأنا أكنُّ احتراماً عميقاً لخدمتها في العراق على مدى العقود الثلاثة الماضية. كانت العديد من المنظمات العراقية المحلية تقوم باعتصامات احتجاجية من أجل عودتها، ولم يؤدِ أي اختطاف آخر لأجانب إلى مثل ردة الفعل هذه من السكان المحليين. لقد تم اختطافها في منتصف تشرين الأول/ اكتوبر، وكنت مقتنعة بأنها ستعود إلى المنزل قبل عيد جميع القديسين.

كان إنكاري، عند التأمل في أحداث الماضي لأي نتيجة أخرى ضرباً من الجنون. وفي هذه المرحلة، كان لدى كل أميركي يعمل أو يعيش في العراق شركة أمنية متخصصة من نوع ما مسؤولة عن تحركاته، أو أنه لا يغامر بالخروج خارج المنطقة الخضراء. وكانت إجراءاتي الأمنية هي ذاتها منذ دخلت العراق: مائس وفادي ويوسف. ورفضت أن أتخذ أي ترتيبات طويلة الأجل للإقامة في المنطقة الخضراء. ولو كان ذلك هو خياري الوحيد، فقد كان من المنطقي أكثر أن أقيم في عمَّان.

أظهرت نقطة الانهيار الخاصة بي نفسها بالطريقة التي تتسم بأكبر قدر من الأنانية، وقد أتت خلال شهر رمضان المبارك. كان هذا ثاني شهر

رمضان لي في العراق، وكنت أخطط للقاء والدي في عيد الفطر في عمَّان، وكنت أترقب بشوق تلك الإجازة. إلا أنه، وقبل أيام قليلة من العيد، أعلنت الحكومة العراقية بأن مطار بغداد سوف يُغلق لأجل غير مسمى، وستكون الحدود براً مغلقة أيضاً أمام المسافرين.

أصبتُ عندما سمعتُ الأخبار بالذعر. لقد أمضيتُ الشهور القليلة الماضية وأنا أكافح من أجل دخول العراق والبقاء فيها، وفجأة كل ما أستطيع التفكير به كان الخروج منها.

الآن!

ومع كلبتي.

هناك لحظات أشعر فيها بالخجل من الطريقة التي تصرفتُ بها أثناء تلك الأيام القليلة. كنت أتصل بيوسف كل ساعة، أبكي وأتوسل إليه أن يجد طريقة لكي أخرج فيها من البلاد. وبين الشهقات كنت أسأله كيف يمكنني أن آخذ كلبتي قشطه معي. لم أفكر أبداً من قبل أن آخذ قشطه معي إلى الأردن. إلا أن شيئاً ما في أعماقي كان يعرف أنني لن أعود للعراق في أي وقت قريب، ولم أكن أحتمل فكرة أن أتركها وأسافر.

أصبت تقريباً بنوبات من الهستيريا عندما أخبرني يوسف أن قشطة لن تكون على الأرجح قادرة على السفر إلى الأردن. حاول أن يذكرني بأننا ما زلنا لم نحدد حتى إن كانت هناك طريقة لجعلي أخرج من البلد.

رفضت في الأيام القليلة الأولى السفر بدون قشطه، واضطر يوسف لطلب المساعدة من زينب، رئيسة منظمة «نساء من أجل نساء» الدولية، لكي يجد مكاناً لها. وعرضت زينب مزرعة عمها في المحافظة الجنوبية،

وهي منطقة أكثر أمناً، كمنزل جديد لها. وفقط بعد أن كنت آمنة في الأردن لعدة أسابيع استطعت أن أتذكر برعب كيف قمت بانتزاع وعد من يوسف بأن يقوم بتوصيل قشطه إلى المزرعة بنفسه.

لكن مشكلتي الخاصة لم تُحلّ بالسهولة ذاتها، فلم يكن هناك رحلات تجارية مغادِرة للبلاد، وكانت الطائرات الوحيدة المغادِرة من العراق هي طائرات الجيش الأميركي إلى مدينة الكويت. ومرة أخرى وجدت نفسي مضطرة للجوء إلى آن ميرفي طلباً للمساعدة.

* * *

في اليوم الذي تم ترحيلي فيه، كنت المرأة المسلمة الوحيدة التي تغطي رأسها في بحر من البزات العسكرية في كامب فكتوري، القاعدة العسكرية الأميركية المجاورة لمطار بغداد. ومن خلال مظهري، أصبحت ممثلة فعلية للشعب العراقي تُطرَح عليَّ أسئلة من قِبل كل جندي التقيته تقريباً. لماذا يكرهوننا؟ لماذا لا يسمحون لنا بمساعدتهم؟ لماذا يقومون بحماية الزرقاوي (القائد الرئيسي للقاعدة في العراق)؟

كنت عند وصولي إلى الكويت، مستنزَفة عاطفياً وغير مهيأة نهائياً للخبر المدمر الذي استقبلني في اللحظة التي نزلت بها من الطائرة: كان يُعتقَد أن مارغريت حسان قد توفيت.

وطوال الثماني والأربعين ساعة التالية كنت في حالة لا سبيل للمواساة فيها. كنت أشهق كل ثانية في رحلتي إلى عمان.

كنت في حاجة ماسة للدعم العاطفي، وبدلاً منه قامت صديقة أردنية لي بتوبيخي لأنني أنتحب على أجنبية في حين كان يموت العراقيون بأعداد كبيرة. لقد أدى الغزو الأميركي على العراق إلى جعل تفكيرها مستقطباً. ومثل الكثيرين غيرها، استُبدِلَت قدرتها على التعاطف مع فقدان إنسان بتعصب سياسي. وتلاشت أي ذرة تفاؤل كانت موجودة لدي بشأن مستقبل العراق.

16
الأصابع الأرجوانية لا تنظف

◖ أدت صدمة اضطراري للهرب من العراق جنباً إلى جنب مع وفاة مارغريت حسان إلى إرغامي على التسليم بأن استقرار العراق الهش قد تدهور، وربما أن وقتي هناك قد انتهى. وعلى الرغم من أن تعاملي مع مارغريت كان فقط من خلال مجلس التنسيق بين المنظمات غير الحكومية في العراق، إلا أنني كنت أعرف قصتها جيداً. كانت مارغريت، بوصفها امرأة أيرلندية متزوجة من عراقي، تجسِّد إمكانية تجسير العالمين. وقد عاشت في العراق لثلاثة عقود، وبقيت في البلد في الوقت الذي هرب فيه حتى العراقيون.

وعلى الرغم من هذه الصحوة العنيفة، كنت مصممة على البقاء في الأردن، التي كانت قد أصبحت مفترق طرق للمثقفين العراقيين ولمنظمات الإغاثة الدولية، من أجل الاستمرار بعملي لتأمين مستقبل أفضل لنساء العراق.

أردت نهاية سعيدة لقصتي، ولم أكن أريد أن أرحل بدونها.

لم تكن حقيقة أنني غادرت العراق جسدياً، تعني أنني كنت مستعدة لأن أترك ورائي كل الأعمال التي أنجزناها، وقد جاءت أعداد لا تحصى من

النساء العراقيات اللواتي عملت معهن من أجل رؤيتي في عمّان. وعلى الرغم من أن تدهور وضع العراق «الجديد» والألم غير المحتمَل الناجم عن مفقوديهم قد جعلهن يهرمن، إلا أنهن كنَّ، ورجال بلدهن، لا يزلن يمتلكن تصميماً عنيداً على وضع الأمور في نصابها الصحيح.

وفي الوقت ذاته، بدأ عدد أصدقائي العراقيين الذين يستقرون الآن في عمان بالازدياد، و توجه حتى عدد أكبر منهم إلى سوريا. انتظرنا جميعنا انتهاء العام 2004 معتقدين أن العام 2005 سوف يجلب معه أملاً جديداً.

خلال هذه الفترة، أخذ يوسف وفادي إجازة تغيب عن عملهم في العراق وحضرا إلى الأردن من أجل حضور دورة تدريبية في تكنولوجيا المعلومات والمالية، مدتها شهرين، على حسابهما الخاص. وقد أدى وجودهما إلى تخفيف انزعاجي بشأن العمل من أجل العراق من على بعد، وقام ثلاثتنا بقيادة فريق مراقبة انتخابات للتصويت في الخارج، والتي كان من المقرر لها أن تجرى في كانون الثاني/ يناير من العام 2005. وعلى الرغم من مشاعر الشك بشأن قيادتهم المحلية، كان العراقيون فخورين بحقيقة أنه قد تم تحديد موعد للانتخابات. وكان لدى النساء العراقيات، اللواتي تحدثت إليهن، أمل كبير في أن تكون هذه هي نقطة التحول التي كان الجميع في انتظارها. وكان يوسف وفادي يتناقشان ليلاً ونهاراً بشأن الحزب السياسي الذي سيتم انتخابه، وعندما علّق أحد الأردنيين بأن الانتخابات كانت مهزلة، استشاط صديقاي من الغضب. وعلى الرغم من المعاناة المستمرة لعامين تقريباً، كان العراقيون فخورين جداً بالتطورات الديمقراطية في بلدهم. وصرح يوسف بحماس بأن البلدان العربية الأخرى كانت تشعر بالغيرة في سريرتها من أن العراق كان في طريقه لممارسة الديمقراطية الحقة.

وقال فادي في إغاظة، «إخواني العرب بحاجة فقط لأن يروا ويتعلموا، فالعراقيون سوف يستلمون دفة القيادة مرة أخرى.

في الواقع أن السنة الجديدة جاءت بأمل جديد، فقد جذبت الانتخابات العراقية إلى صناديق الاقتراع نسبة مذهلة وصلت إلى 70 بالمائة من السكان. وبعد الإدلاء بأصواتهم، كان العراقيون يغمسون أصابعهم في حبر أرجواني اللون، وهذه الأصابع الملطخة بالحبر أصبحت شارة شرف. كان العراقيون في كل مكان في العالم يحيّون برفع إبهام أرجواني.

أرسلت نساء عراقيات رسائل إلكترونية لي بشأن تجاربهن في التصويت، ووصفن كيف أنهن استيقظن في الصباح الباكر وارتدين أفضل ثيابهن وتوجهن نحو مراكز الاقتراع، ووصفن الحماسة الوطنية التي ملأت الشوارع في كافة أنحاء العراق. وقام متطوعون بتوصيل كبار السن والمعوقين إلى مراكز الاقتراع، وقام الجيران بالطهي لبعضهم البعض كما لو كان يوم الاقتراع يوم عيد ديني. وقامت إحدى النساء باصطحاب أبنائها معها، على الرغم من المخاطر الأمنية، لضمان أن يشهدوا واحداً من أعظم أيام العراق في التاريخ.

ذكر فادي ويوسف الشيء ذاته في أوساط المغتربين العراقيين الذين ملؤوا المدارس الأردنية من أجل إضافة أصواتهم إلى أصوات نظرائهم داخل البلد، وعاد كل من فادي ويوسف وهما يلوحان بالإبهام الأرجواني باعتزاز، ووصفا الطوابير الطويلة من العراقيين الذين انتظروا لساعات من أجل الإدلاء بأصواتهم. وأقرا بخجل بعدد المشاجرات التي انضما إليها عندما كان أردنيون يمرون بسياراتهم ويصرخون بعبارات فظة عن العراقيين.

قال فادي، «أنظري،» وهو يحاول أن يفرك إبهامه في مغسلة المطبخ. «إنه لا يُزال! جميع الناس الذين كانوا يقولون إن هناك احتيال إنما هم كاذبون.» سحب إبهامه ولوح به نحوي، كما لو كان إبهامه، الذي كان يشبه حبة زبيب، هو الدليل الذي يحتاجه المرء لدحض شائعات الاحتيال.

كانت الانتخابات الناجحة مدعاة للاحتفال، ولكن الخبر من منى تغلب علي. ففي إحدى الجلسات التدريبية في كربلاء، أصبحت المناقشة متمحورة حول حقوق الحضانة. وبدأت النساء في التشارك بقصصهن عن فقدان الحضانة لأبنائهن الصغار إلى أزواجهن المتعسفين. وشاركت منى بقصتها. وفيما بعد اقتربت منها واحدة من المشاركات الأكبر سناً.

وقالت، «إن قصتك تشبه إلى حد كبير قصة أم خطيبة ابني، من أين أنت؟»

وبعد حوار سريع، أصبح من الواضح أن قصة منى كانت في الواقع هي القصة ذاتها، وكان ابن المرأة سيتزوج من ابنة منى المبعدة عنها منذ مدة طويلة. ورتبت لمنى لقاء ابنتها بعد أربعة عشر عاماً من الفراق.

اتصلت منى بي وهي تبكي. «هذه مكافأتنا على العمل الذي قمنا به. لقد أرسل الله لي ابنتي!»

أشعر أنني كنت مغفلة بالوقوع في فخ الدعاية الإعلامية المبالغ بها بشأن العراق الجديد مرة أخرى. ولكن الوجود بين العراقيين في ذلك الوقت كان أمراً مبهجاً.

* * *

أدركْتُ في وقت لاحق أن الانتخابات لم تكن وحدها هي التي أعادت آمالي في العراق. بدأت، كوني موجودة في الأردن، بعيداً عن البيئة التي مزقتها الحرب والتي كانت تحيط بالحياة اليومية في العراق، أرى فادي ويوسف في ضوء جديد. وعندما لم يكونا في التدريب، كانا إلى جانبي. واتضح لي تدريجياً أن ذلك كان يتجاوز المجاملات المهنية. لقد أنشأنا صداقة قوية جداً، وذهب إحساسنا بالإخلاص المتبادل إلى ما هو أبعد من العمل، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بيوسف.

وفي هذه الأثناء، احتجَّ جسدي على محنة الأشهر الثلاث الماضية التي أظهرت نفسها بدنياً، فقد عاودني ألم ظهري الحاد مرة أخرى، وكنت بحاجة إلى جراحة ثانية. وكان يوسف إلى جواري طوال العملية، وكان التفاني والاهتمام اللذان أظهرهما تجاهي واضحين جداً.

كنت في بغداد أمارس أخلاقيات العمل الصارمة بأن أكون مأخوذة بالعمل بكل جوارحي في كل ساعة صحو، ولم أفكر كثيراً بشأن ظروفي الاجتماعية إلى درجة أنني دفعت المعايير للمرأة المسلمة الأميركية من أصل عربي إلى أقصى حدودها، ولم أمنح أي تفكير لحياتي أو مشاعري الشخصية. أصبحت في الأردن فقط واعية للمشاعر التي أكنها تجاه يوسف. لقد كانت أكثر من أنني كنت معتمدة عليه في بغداد. لقد أدركت مدى افتقادي إلى وجوده، وأدركت أن وجوده بالقرب مني في وقت الحاجة أصبح أمراً مألوفاً للغاية.

بعد شهر تقريباً من مجيء فادي ويوسف إلى عمان، ظهر حسين، وشرح لي أن العراق كان يتحول بسرعة نحو الأسوأ. وعلى الرغم من آمالي بعد الانتخابات، لم أفاجأ بسماع الخبر.

لقد كانت آخر مرة رأيت فيها حسين في الكاظمية، وكان والده قد اختطِف وأطلِق سراحه، وكان من العُرف زيارة أي عائلة وتهنئتها بعودة المُختطَف إلى منزله. وانضممت إلى عائلة يوسف أثناء ذهابها لشراء خروف لتقديمه إلى عائلة حسين للاحتفال بعودة أبو حسين سالماً.

ونظراً للوضع، كان حسين يأمل أن ينقل ميسون وأبناءه إلى عمَّان. وقمتُ بمساعدته طوال شهرين في البحث عن شقة واستكشاف المشاريع التجارية المحتملة. إلا أنه بعد تجربة التعامل مع البيروقراطية الأردنية التي تجعل التحرك عسيراً، بدأ تصميم حسين يتداعى.

لقد انعكست أدوارنا. أصبحت أنا الآن المُضِيفة والمرشدة والمطلِعَة على بواطن الأمور عندما يتعلق الأمر بهجرة العراقيين إلى الأردن. وتجولتُ وحسين وفادي ويوسف في كافة أنحاء الأردن، مستكشفين عمَّان بالتفصيل، ومستطلعين مأدبا والبحر الميت. وكانت هناك متعة مريرة في هذه النزهات. فقد كان من الرائع بالنسبة لهم رؤية بلد جديد، ولكن كل منعطف في الطريق كان يذكرهم فقط بشبابهم الضائع. وفي كل فرصة، كانوا يعلِّقون على كيف أن العراق انزلق إلى العصور المظلمة على الرغم من جميع موارده، بينما الأردن، وهو بلد يفتقر إلى الموارد الطبيعية، قد قفز فجأة إلى الألفية الجديدة.

* * *

سأكذب لو قلت إنني قد تفاجأت تماماً عندما صرح يوسف أخيراً بمشاعره نحوي. وكما اعترفت لنفسي، كان هناك جزء مني واعياً لمشاعري

تجاهه بعد وقت قصير من قدومه إلى عمّان. ومع ذلك، فقد تفاجأت عندما قالها فعلياً. وشرح يوسف نيته في معرفتي بشكل أفضل خارج نطاق بيئة العمل.

اختار يوسف المكان المثالي، فقد كانت مجموعة صغيرة من موظفات المكتب الرئيسي وموظفات عراقيات لمنظمة «نساء من أجل نساء» الدولية قد تجمعن من أجل اجتماع تخطيط استراتيجي في منتجع في البحر الميت، وكانت اجتماعات الأيام الأخيرة خيالية. كنا نقضي صباحاتنا في عصف فكري بشأن إلى أين نأخذ نشاطات منظمتنا، وكنا نمضي أمسياتنا ندخن الشيشة بجانب بركة رائعة. وقد كان هذا محيطاً مختلفاً تماماً عن ذلك الذي كنا معتادين عليه. وكان الشعور بالحياة الطبيعية غامراً تقريباً. وكانت تلك الأمسيات عادة تستمر إلى ما بعد منتصف الليل وكانت مليئة بالضحكات بينما كنا نروي مغامراتنا المتنوعة في العراق.

وفي إحدى الأمسيات، قررنا جميعنا أن نمشي ونشاهد البحر الميت في سكون الليل. وكانت حديقة الفندق التي تنخفض في سلسلة من المنحدرات ممتدة لمسافة ميل تقريباً. وكانت الحديقة مذهلة، ممتلئة بالشلالات والجسور الخشبية والزهور الغريبة. كانت واحدة من المجموعة تتوقف وكل خمس دقائق وتنظر إلى المشهد بإعجاب. وعندما وصلنا إلى حافة البحر الميت، كان الحال كما لو أننا عبرنا بلاد العجائب. وكان رأي الجميع أن منظر البحر الميت كان عادياً بعد سلسلة من المشاهد الرائعة، وأرادوا أن يعودوا إلى الحديقة. وقررت أن أبقى لفترة أطول قليلاً، مستمتعة بمنتهى السعادة بالنظر إلى البحر التاريخي. وأحببت فكرة أنني كنت أقف على حافة الماء نفسها التي كان الأنبياء قد مشوا عليها. وقد كنت تائهة بالتفكير في لاشيء عندما أدركت أن يوسف كان لا يزال ورائي.

واستدرتُ وإياه للتوجه نحو البركة. كان المشي نحو الفندق أقرب إلى السير صعوداً من المسار السهل نزولاً. وتوقف يوسف بالقرب من أحد الشلالات وجلس على الحافة. ولوح لي للفت انتباهي. وقال «تمهلي. من الذي يطاردك بالتحدد؟ هل يمكنني أن ألتقط أنفاسي؟» سأل كل ذلك دفعة واحدة. وفي الوقت ذاته أخرج علبة سجائر.

قال وهو يضرب على مكان فارغ بالقرب منه، «تعالي. اجلسي واستمتعي بالمشهد.»

قلت وأنا أجلس بالقرب منه، «ليست طريقة جيدة حقاً لالتقاط الأنفاس.»

لقد كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بعدم ارتياح بالقرب من يوسف. إلا أن رد فعلي كان يعكس عدم ارتياحه الواضح. عبث بسيجارته ومن ثم بدأ بالتعبير عن مشاعره. وأوضح أنه كانت لديه مشاعر عاطفية نحوي ولكنه كان متردداً في مفاتحتي عندما كنا في بغداد. كان يدرك أن الوقت الذي قضيته في العراق جعلني في موقف ضعيف، ولم يكن يريد أن يعقّد حياتي أكثر. أفضى لي يوسف أنه لم يكن يريد أيضاً أن يُنظر إليه على أنه كان يستغلني في هذه الفترة الحساسة. والأهم من ذلك، كان يريد أن يضمن استمرار ثقتنا ببعضنا البعض على ما كانت عليه من قوة أثناء وجودنا في العراق، وكان خائفاً من إدخال الحرج فيما بيننا. واعترف أنه لفترة طويلة كان يفكر في طلب يدي من أجل الزواج، وكان الآن يريد أن يستكشف إمكانية ذلك معي.

أصغيت إليه بينما كان يتعثر في الكلام خلال شرحه. وكنت أعلم أنه كان ينتظر اعترافاتي، ولكنني لم أكن متأكدة من أنني كنت على استعداد

للتشارك بها. كنت أعرف في أعماقي أنه كانت لدي مشاعر قوية تجاه يوسف، ولكنني لم أستطع أن أقرّ بثقة أين كانت جذورها.

هل كان هذا حُباً حقاً؟ أم أنه كان نسخة من متلازمة ستوكهولم؟ لقد أصبحت معتمدة جداً على يوسف من أجل البقاء ووضعت حياتي بين يديه حتى أتمكن من النجاح في عملي. وكانت هناك دائماً جرعات من الأدرنالين تجري بيننا بينما كنا نعالج مشكلة تلو الأخرى. هل كان ذلك هو مصدر عواطفنا؟ أم أنه كان شيئاً مختلفاً حقاً؟ لم يكن لدي وسيلة لمعرفة ذلك.

تخلصت من شعوري بعدم الارتياح وقررت أن أكشف عن كل ما يجول بخاطري من أفكار. والشيء الوحيد الذي كنتُ ويوسف قادرين دائماً على فعله هو التحدث على نحو منفتح وبكل صراحة مع بعضنا البعض. لم أكن أريد أن يتوقف ذلك. عبرّت عن قلقي ومخاوفي، وضحك وهو يعترف بأنه يشاطرني الكثير من الشيء ذاته.

«ولك هو السبب في أنني أريد أن أفاتح عائلتك. هناك طريقة واحدة فقط لمعرفة ذلك. نحن بحاجة لأن نقضي مزيداً من الوقت معاً، بعيداً عن العمل. ولدينا فرصة رائعة للقيام بذلك بينما نحن في الأردن، حيث لا تحيط بنا الفوضى الموجودة في العراق.»

وكما هو الحال دائماً، كان هذا الرجل العملي الذي أصبح صخرتي الصلبة مصيباً تماماً.

لقد كان باستطاعتي أن أستوعب لماذا أراد أن يتحدث مع والدي بشأن الخطبة. ففكرة التواعد غريبة عن المسلمين، ومرحلة الخطوبة تعتبر دائماً كمرحلة تواعد تمهيدية رسمية قبل الخطوة النهائية بالزواج. وشعرت

أنه يتم حثّي على الإسراع، على الرغم من أنني كنت أعرف أن هذا هو النهج العادي للتودد. وقمت بحثٍّ يوسف بأن لا يتسرع قبل أن يفاتح والدي وأن يتأكد من أنه كان واثقاً من مشاعره نحوي.

ضحك يوسف عليّ مرة أخرى. ولاحظت أن ضحكته الآن كانت مختلفة عن تلك التي كنت أسمعها في العراق. وقد بدت هذه الضحكة حميمية أكثر وشخصية أكثر، وشعرت بعصبية مخفية بينما كان يفتح قلبه لي.

قال يوسف، «صدقيني، قمت بإجراء كل أبحاثي بشأن هذا. وتقول زينب إنه من الشائع جداً للأشخاص الذين يعملون في هذا المجال أن ينتهي بهم الأمر بالزواج. وهي تعرف الكثير من الأزواج الذين أقاموا حياة سعيدة جداً.»

سألتُ مصدومة، «هل تحدثت مع رئيستي في العمل بشأن هذا؟»

قال ببطء، «حسناً، هي رئيستي أنا أيضاً. وهي امرأة حكيمة، وقبل أن أتحدث في الموضوع معك أردت أن أتأكد من أن هذا لن يؤثر على عملنا.»

لقد مضى يوسف قدماً لطلب المشورة من زينب، وأنا جالسة هناك أهز برأسي. لقد تفاجأت من أن يوسف قد قام فعلياً بوضع الكثير من التفكير والتخطيط بشأن مفاتحتي. وبدأت فجأة بتجميع الأجزاء معاً. كيف أصرَّ يوسف على تعريفي على جميع أفراد عائلته. وكيف أصرت ميسون وحسين على لقاء والداي عندما كانا في عمّان. وحتى أسئلة فادي أثناء الرحلة أصبحت موضع شك.

سألت، «إذن كل هذا كان مخططاً له؟»

وقال مازحاً، «في الواقع لا. لم يكن أي من ذلك مخططاً له. ما كنت أبداً لأختار عن قصد أن أتزوج امرأة سنيّة اسم عائلتها عمر.» (عمر هو شخصية موضع طعن كبير في التاريخ السياسي للشيعة.)

ضحكتُ. عندما قابلت يوسف لأول مرة، كانت لديه مشاعر معادية للفلسطينيين بشدة، وكنا نقضي الساعات نتناقش بشأن التمييز ضد الفلسطينيين. وأثناء رحلاتنا إلى النجف وكربلاء، كان يوسف يقدمني بوصفي منال العمري، ليتجنب استخدام اسم عائلتي.

وأضفتُ، «ناهيك عن كوني أكبر منك.»

أومأ برأسه. كان بإمكاني أن أشعر بعينيه تنظران إلي، وتناشداني أن أقول المزيد. وكل ما استطعتُ أن أقوله هو، «لا أستطيع أن أصدق أنك تحدثت مع رئيستي في العمل قبل أن تتحدث معي.»

ابتسم يوسف. ومرة أخرى لاحظت شيئاً جديداً بشأن ابتسامته. لقد كان رجلاً وسيماً، وأعطته عيناه البنيتان الناعمتان ووجهه المستدير مظهر الدمية الدب تيدي. ولكن شفته العليا كانت معوجة، وبدا ذلك أكثر بروزاً عندما ابتسم، وقد أعطى ذلك إحساساً كما لو أن يوسف كان رجل عصابات، تقريباً، مفشياً سر الشخصية القاسية المختبئة تحت المظهر الخارجي المحبوب.

«حسناً، زينب ليست الشخص الوحيد الذي تكلمت معه. لقد تحدثت أيضاً مع عماتك.»

سألت، «ماذا؟ متى؟»

أوضح يوسف أنه أثناء إقامتي بالمستشفى لإجراء جراحة لظهري، أصبح قريباً جداً من عماتي وأبنائهن. ومع مرور الوقت، أفضى إليهن وشرح أنه كان ينوي طلب يدي للزواج. لقد كان يريد أن يحصل على إحساس بردّ عائلتي قبل أن يفاتح والدي.

وطمأنني بسرعة، «لم يكن ذلك مخططاً له. ولكن عماتك لسن مغفلات. وقد كان من السهولة بمكان بالنسبة لهن أن يكتشفن كم كنت مهتماً بك.»

سألت، «ما الذي قلنه؟»

ابتسم يوسف ابتسامة المنتصر، «قلن إن أسرتك ستكون محظوظة بأن أكون صهراً لها.»

ابتسمتُ. كانت ابتسامة يوسف مُعدِية، وأحسست بهزة صغيرة في أعماقي. وكان جزءاً مني يريد أن يطمأنه بأننا سنكون في الواقع محظوظين. لقد كان رجلاً رائعاً، وكان بإمكاني أن أراه ينسجم بسهولة مع أسرتي. ومع ذلك، كان هناك شعور أقوى بأن هذا كان يحدث بسرعة كبيرة جداً، وهكذا جلست هناك ببساطة وابتسمت له. ولحسن الحظ أن يوسف كان دائماً يفهم تلميحاتي وعرف أن عليه ألا يضغط أكثر.

جلسنا في صمت مريح لفترة بدت وكأنها دهر، وبدون أي كلمة عدنا إلى الفندق.

*   *   *

لم يكن هناك شك في ذهني بأن علاقتنا ربما تكون قد بدأت قبل أن ينطق يوسف بهذا الالتزام اللفظي. وكلما استعرضت الأشهر القليلة الماضية التي قضيناها معاً، أدركت أكثر الحميمية غير المعبَّر عنها بالكلمات التي ازدهرت بيننا.

لم يقم يوسف بمفاتحتي مباشرة بعد الحديث الذي دار بيننا في البحر الميت، وأصبح حسين هو الوسيط الرئيسي. ومرة أخرى أدركْت أنه لم تكن مصادفة أن أصرّ ميسون وحسين على لقاء أسرتي في الصيف الماضي. كان حسين قادراً على التكلم بثقة عن حقيقة أنه ليس فقط يوسف وأنا نمثل زوجين رائعين، بل إن أسرتينا أيضاً سوف تندمجان معاً بصورة مثالية.

يعتبر التواعد أمراً مستهجناً في الثقافة الإسلامية، والطريقة الصحيحة الوحيدة لكي يتعرف الرجل والمرأة على بعضهما البعض هي من خلال الخِطبة الرسمية. وعلى الرغم من أنني كنت أعرف أن ذلك كان صحيحاً، إلا أنني كنت أعرف أيضاً أن والديَّ كانا سيريدان المزيد من الاطمئنان بأن التزامي تجاه يوسف كان أكثر من مجرد رغبة في تجربة شيء جديد.

أمضى حسين الكثير من الوقت وهو يشير إلى الأرضية المشتركة بيننا، وكان بمثابة الصديق الحميم المؤتمن على الأسرار ليوسف ولي عندما قررنا أن نتخذ الخطوة التالية. أشار حسين إلى أننا كنا محظوظين في العمل معاً جنباً إلى جنب، ولكننا لن نكون قادرين على الانتقال بعلاقتنا إلى المستوى التالي بدون خطبة مناسبة. ومع مرور الوقت، أدركت الحكمة في كلمات حسين.

لم يكن هناك شك في ذهني أن لدي مشاعر تجاه يوسف، فالأشهر التي أمضيتها في الأردن بينت أن مشاعري كانت تتجاوز عملنا في العراق.

لقد كان هناك ارتباط شخصي، وكنت أعرف أنه من أجل اكتشاف حقيقة عمق مشاعري، كنت بحاجة لوقت أمضيه بشكل فردي مع يوسف. كنت أعرف أن ذلك يمكن أن يحدث فقط إذا قام بمفاتحة والدايَّ للحصول على إذن بذلك.

فور قيامي بإعطاء الضوء الأخضر لحسين لتقوم عائلة يوسف بمفاتحة والدايّ، بدؤوا بالعمل بسرعة. وكما كنت أتوقع، رفض والدايَّ في البداية، فقد كانا متحمسين جداً لإخراجي من العراق، ولكنهم لم يكونا متلهفين في أن يكون لي أي شيء يربطني بالبلد الممزق من الحرب. ولكن مثابرة يوسف نجحت، وفي نهاية المطاف تم التغلب على والديَّ.

وكلما أمضيتُ ويوسف مزيداً من الوقت معاً، كلما أصبح من الأوضح أننا كنا مناسبين لبعضنا البعض. وفي غضون فترة قصيرة من الوقت، كنت قادرة على التسليم بما كنت دائماً أعرفه في أعماقي: يوسف وأنا كنا مثاليين معاً.

17

العرائس العراقيات

كانت الأسابيع القليلة التالية نعيماً خالصاً وقد حددتُ ويوسف موعداً للزفاف. عاد هو إلى العراق في حين بقيتُ مستمرة في عملي من خلال مكتب عمَّان. قررنا أن نتزوج في نهاية شهر آب/ أغسطس في عمَّان. كان الوضع في العراق لا يزال خطراً، ولكننا تمسكنا بثبات في الاعتقاد بأن الصيف بعد الانتخابات سوف يكون نقطة تحول بالنسبة للعراق. لا بد أن تتحسن الأمور. وقررنا أن نتزوج، ومن ثم أعود معه إلى بغداد.

ربما أن نشوة الحب هي التي حجبت الرؤية عن أعيننا، فقد كان الوضع في العراق، في الواقع، مستمراً بالتدهور، وكان العنف يصل عميقاً إلى داخل كل منزل لكل أسرة عراقية. بعد انسحاب جميع عمال الإغاثة الدوليين، أصبح هدف التمرد هو المجتمع المدني العراقي ذاته، ومع ذلك كانت القصص تبدو بعيدة، وواصلتُ ويوسف التركيز على العلامات الصغيرة للتحسن.

في وقت متأخر من ليلة من شهر نيسان/ إبريل في عمَّان، تلقيت المكالمة الهاتفة المرعبة من أصدقائي في العراق التي كان لا بد منها عاجلاً أم آجلاً. تمت مشاركتي بالخبر بطريقة مباشرة جداً: صديقنا العزيز صلاح، الذي كان أيضاً واحداً من سائقينا، اختفى.

لم أستطع أن أصدق أن صلاح اختفى ببساطة. كان هذا الأمر يحدث لأناس آخرين، لمنظمات أخرى. لقد اتخذنا كل الاحتياطات وتجنبنا جميع المخاطر غير الضرورية. كان يوسف في بغداد، واتصلت به للتحقق من المعلومات. وفي اللحظة التي رد فيها على الهاتف، أدركت أنه كان حقيقياً. لقد كان صوته مليئاً بالحزن والرعب.

كرر يوسف مرة تلو الأخرى، «كنت معه للتو على الهاتف. اتصل بي وقال إنه قادم.»

حاولنا أن نتذكر اللحظات الأخيرة التي سمعنا فيها من صلاح. أصبح واضحاً أن آخر مكالمة هاتفية له كانت في المساء من مقهى إنترنت، وقد اتصل صلاح بيوسف ليقول له إنه قادم ومعه أخبار عاجلة. أصرَّ صلاح على أنه لا يستطيع أن يعطي أي تفاصيل على الهاتف. انتظر يوسف لساعات، وقرر أن يتصل بنغم، زوجة صلاح. لم تكن قد سمعت أي شيء عن زوجها منذ الصباح، واتصل يوسف على الفور مع باقي أعضاء الفريق، وذهبوا بالسيارة إلى مقهى الإنترنت حيث تمت رؤية صلاح لآخر مرة، وبعد ذلك لم يكن هناك أي شيء.

خلال الأيام القليلة التالية، قادنا البحث عن صلاح إلى اتصالات مع كل طرف من الجيش الأميركي ووزارة الداخلية سيئة السمعة إلى جماعات الميليشيات المختلفة. وأدت جميع الأدلة إلى طريق مسدود.

طوال الستة أشهر التالية، تم إرسالنا للقيام بالعديد من المساعي العقيمة. وفي إحدى المراحل، أكد الجيش الأميركي أن صلاح اعتُقل من قِبل وزارة الداخلية. وقد طلبنا رؤيته. على الأقل أردت أن أؤكد لنغم بأن زوجها كان لا يزال على قيد الحياة. وكلما ضغطنا أكثر، كانت المعلومات

التي حصلنا عليها أقل. وفي نهاية المطاف، جاء كل من الجيش الأميركي ووسطاء الاتصال الذين نتعامل معهم بالرسالة ذاتها: توقفوا عن البحث عن صلاح.

لقد كان ذلك غير مقبول. واصلتُ الضغط، ولكن هذه المرة لم يكن أحد يجيب على مكالماتي. وبعد أسابيع قليلة من اختفاء صلاح، أتى رجال مسلحون إلى منزل والدي يوسف وسألا عن يوسف. لحسن الحظ أنه لم يكن موجوداً في المنزل. وفي اليوم التالي كانت نوافذ سيارة يوسف مكسورة، وإطاراتها مشروطة بسكين. ووجد تهديد بالقتل على مقعد السائق.

عمّ الخوف والفزع بين جميع موظفي المنظمة، فقد كان هاتف صلاح مبرمجاً بأسمائهم وأرقام هواتفهم، وإذا تم اختطافه من قِبل جماعة إرهابية، فلم يكن من المستبعد أن يحاولوا أن يستخرجوا أسماء الموظفين العراقيين الآخرين الذين يعملون مع المنظمة التي يقع مقرها في أميركا.

أغلقت جميع مكاتبنا، وبدأ العاملون بالعمل من المنزل، وترك يوسف ومائس وفادي منازل آبائهم وأقاموا عند أسرهم الممتدة، فقد أدركوا أنهم سوف يكونون الأهداف التالية.

حتى هذا اليوم، لم يتم اكتشاف أي أثر لصلاح أو لأي من أمتعته. وأحد الأشياء الألف وواحد التي ندمت عليها في الوقت الذي قضيته في العراق هو أنني لم أتصل بنغم أبداً. لقد رتبت أمر إرسال المال من خلال موظفينا لإعالتها وأطفالها في حين كان البحث عن صلاح مستمراً. وقد بدأ ترددي برغبة في الاتصال بها فقط عندما يكون لدي أخبار أنقلها. ولكن ذلك اليوم لم يأتِ مطلقاً.

لقد استخدمت كل علاقة لي في العراق لتحديد أي خبر عن صلاح مهما كان ضئيلاً، وناشدت يوسف أن يواصل البحث. وكان لدي إيمان بأن بعض الأخبار ستظهر. وإن استطعت أن أجد أي أخبار عن صلاح، عندئذ سأتصل بنغم. ولكن الأسابيع تحولت إلى أشهر، والأشهر إلى سنوات. ولم تكن هناك أخبار عن صلاح.

المرة الأخيرة التي قام فيها يوسف بزيارة نغم كانت في العام 2007، وكان قد مر عامان على اختفاء صلاح، وقام يوسف بوصف كيف كانت نغم تحزم جميع ملابس صلاح الشتوية وتُخرج ملابسه الربيعية لتضعها في خزانة الثياب.

عندما سألها ما الذي كانت تفعله، أجابت نغم، «يجب أن يكون كل شيء في مكانه المناسب عندما يعود صلاح.»

من الصعب أن نصدق أن هناك الآلاف مثل صلاح في العراق، وما يجعل صدمة اختفائهم أكثر حدِّة هو عدم وجود حل لدى العائلة. وإلى أن يكون هناك مجاهرة بالحقيقة المكدِّرة للغاية، فإن حياة أولئك الذين يخلفهم المختفون تُستهلَك بالتوقعات والتوسلات شديدة المرارة.

* * *

كان يوم زفافي هو أسوأ يوم في حياتي، ولا أستطيع أن أتذكر أي وقت شعرت فيه بأنني ضعيفة إلى تلك الدرجة. كان أدنى حادث يُفقدني السيطرة بسهولة، وكان قلبي مليئاً بإحساس عميق بالخسارة الرهيبة والحزن.

اليوم الوحيد الذي يمكنه أن يتنافس مع هذا اليوم المرعب هو اليوم الذي كان مقرراً لزفافنا أن يتم فيه في البداية، قبل أسبوع.

ومضت عشية اليوم المقرر لزفافنا في القيام بمهمات صغيرة وإعداد التحضيرات النهائية. كانت أسرتي قد وصلت من الولايات المتحدة الأميركية قبل أسابيع، وكانت عائلة يوسف قد حضرت جواً من العراق. كنا قد وجدنا أخيراً فرقة دبكة (رقص تقليدي) متخصصة في الأساليب الفلسطينية والعراقية. ووصل ثوب زفافي من الولايات المتحدة الأميركية، وقمتُ وشقيقتي بإجراء تدريب على ارتداء الثوب للتأكد من أنه لم تكن هناك حاجة لأي تغييرات. وكان الثوب مناسباً تماماً.

لقد كنا نخطط لعمل حفل ديني ومدني في منزل والدايَّ الصيفي، وكان الاستقبال سيلي بعد ثلاثة أيام عندما يصل باقي أفراد أسرة يوسف الممتدة من بغداد. كان والد يوسف وشقيقه وحسين من بين المدعويين الذين كانوا لا يزالون في بغداد، وكان من المقرر أن يصلوا في صباح اليوم التالي. وكنتُ ويوسف نقوم بإعداد الترتيبات النهائية عندما تلقينا مكالمة هاتفية. تم اختطاف حسين.

كان ذلك هو أول جزء من الخبر تلقيناه. قمتُ ويوسف على الفور بالذهاب بالسيارة إلى منزل عائلته، وكان الجميع قد تجمعوا حول ميسون وأولادها بينما كانت تقوم، بطريقة آلية، بحزم أمتعتها. كانت ستعود عن طريق البر إلى بغداد مع الفجر، وكانت تريد أن تتأكد من أنه لن يتم ادخار أي جهد أو مال في مساومات الفدية. وكانت ميسون مصممة على أن تكون هناك عندما يخرج حسين.

بدأ يوسف بحزم أمتعته أيضاً، مخططاً أن يذهب مع ميسون، فقد كان حسين معلمه، وكان يشعر أنه مدين له لسنوات من دعمه. في الأسابيع القليلة الماضية كان حسين يتصل بنا كل يوم في عد تنازلي للزفاف، مشوقاً يوسف بأنه كانت لديه مفاجأة كبيرة ليوم زفافنا.

ولكن عائلة يوسف رفضت خطته لمرافقة شقيقته، فقد كانت التهديدات بالقتل لا تزال حيّة في أذهان الجميع.

في ذلك الوقت، كانت عمليات الاختطاف قد أصبحت أمراً معتاداً مفزعاً. وفي العام الماضي فقط، نتذكر جميعنا تماماً، تم اختطاف وإطلاق سراح والد حسين. وقد مرّ العديد من أفراد العائلات الممتدة ليوسف ومائس وفادي بتجربة مماثلة، ولم يكن هناك أي سبب للاعتقاد بأن اختطاف حسين سيكون أمراً مختلفاً. وبغباء، وعدتُ يوسف أن كل شيء سيكون على ما يرام. وبحلول نهاية الأسبوع، سوف يقوم حسين بالمشاركة بالأحداث، ذات الأثر الهائل، بشكل مباشر.

قال يوسف برزانة، «هل تعتقدين حقاً أننا سنرى حسين مرة أخرى؟»

قلت مقتبسة المقولة الإسلامية، «تفاءلوا بالخير تجدوه.»

ما لم أكن أعرفه هو أن حسين كان قد تم قتله بوحشية فعلاً. وكانت عائلته قد ضللت ميسون بجعلها تعتقد أنه اختطف لأنهم لم يكونوا يريدون أن تفزع ميسون. كما أنهم كانوا يخشون أنه لو عُرفت الحقيقة، فإن ميسون قد لا تعود. وبموجب القانون العراقي، بعد وفاة حسين، فإن حق الوصاية على أبنائه، والحق في ميراثه يصبح لعائلته. وإذا بقيت ميسون في الأردن، فلن يكون بإمكان عائلة حسين أن يطالبوا بأحفادهم.

لم تكتشف عائلة يوسف الحقيقة إلا في اليوم التالي. واتصل بي يوسف وأبلغني بالخبر. وحل محل صدمة وفاة حسين حقيقة أن ميسون وأطفالها أرسلوا إلى بغداد بمفردهم. فقد كانت أمها وأخواتها وعماتها وجميع قريباتها المباشرات اللواتي يفترض، تقليدياً، أن يكن بجوارها لمواساتها، في عمّان. ولم أستطع أن أفكر في أي شيء سوى اللحظة التي تسمع فيها ميسون بالخبر. وتخيلتها تبحث عنا فلا تجد أحداً.

لقد تم استخدام الزهور، التي تم توصيلها للزفاف، في مراسم عزاء مرتجلة في عمّان. واستُخدم الطعام، الذي تم توصيله، لإطعام الضيوف الذين أتوا للمنزل لتقديم تعازيهم وصلواتهم. وبقي ثوب زفافي الرائع معلقاً في خزانة أمي في الأردن.

هرعت أسرة يوسف بأقصى سرعة ممكنة لترتيب نقلها إلى بغداد من أجل حضور الجنازة مع ميسون. ناشدت والدة يوسف ابنها أن يبقى، وكانت الأخبار من بغداد تفيد بأن حسين كان قد عرف قاتليه، وأنها كانت جريمة قتل مدبرة جيداً وتستهدفته. وكان الحي الذي كان يسكن فيه يوسف مليئاً بالهمسات بشأن زواج يوسف من أميركية، وتوسلت له أمه أن لا يعود حتى يكون الوضع آمناً.

كان قلبي ممزقاً. الجانب الأناني مني كان يريد من يوسف أن يبقى، والجانب الآخر، الجانب الذي عرف يوسف، عرف أنه لم يكن هناك شيئاً مؤلماً بالنسبة له أكثر من أن يكون منفياً من وطنه. وكانت فكرة أن يُحرم يوسف من فرصة التعبير عن محبته واحترامه لحسين من خلال حضور جنازته مقيتة جداً. أصرَّ يوسف على العودة، ولم أقف في طريقه.

في نهاية الأمر لم أكن بحاجة لذلك، فقد أدى نحيب أمه إلى صنع القرار النهائي. ارتمت عند قدميه وأقسمت أنها لن تصل إلى بغداد على قيد الحياة إن عاد يوسف. وهكذا بقي يوسف.

في اليوم التالي قامت أسرة يوسف بأكملها بمغادرة عمّان متجهة إلى بغداد. جلستُ في الجانب الآخر من الغرفة أنظر إلى يوسف الذي كان جاثماً بجانب العربة الفارغة لابن حسين البالغ من العمر ستة أشهر.

لم أكن أستطيع أن أتحمل فكرة كون يوسف وحيداً تماماً، ولكن معتقداتنا الأخلاقية لم تسمح لي بالبقاء معه بمفردي إلا بعد مراسم الزواج الرسمية. تطوع ابن عمي طارق أن يبقى معه إلى أن نتخذ قراراً بشأن الزفاف. وحتى هذا اليوم أشعر بإحساس قوي بالدَّين ممزوج بالحسد تجاه طارق لبقائه بالقرب من يوسف في هذه الفترة.

كنت في كل يوم بعد الفجر أخرج لملاقاتها، وكنت أبقى مع يوسف حتى بعد منتصف الليل، مع ابن عمي كمرافق لي. كانت تلك الساعات من النوم تحت سقف آخر تبدو كما لو كانت عقوداً. كنت أشعر أنه من غير الطبيعي أن أكون بعيدة. كنت بحاجة ماسة لأن أبقى إلى جانب يوسف.

نتيجة لذلك قررنا أن نتزوج في نهاية الأسبوع، على الرغم من أن والديَّ كانا يريدان مني تأجيل الزفاف إلى أجل غير مسمى، وأشارا إلى أنه يجب علينا أن ننتظر الوقت الذي كنا سنشعر فيه برغبة في الاحتفال بزواجنا. ولكنني لم أكن أطيق فكرة التأجيل. صحيح أنه ليس لدي رغبة في الاحتفال. وفي الوقت ذاته، لم أكن أطيق فكرة أن أكون بعيدة عن يوسف أثناء هذا الوقت. كنت أريد أن أبقى بجانبه 24/ 7. لقد كان يوسف صخرتي طوال سنتين. والآن جاء دوري.

بكيت في يوم زفافنا من طلوع الشمس حتى غروبها، وكانت خبيرة تجميل تقوم بصبر بإعادة وضع مستحضرات التجميل مرة تلو الأخرى. وعلى الرغم من أننا ألغينا حفل الزفاف، أصر والدايَّ على أن يكون هناك عشاء. وبموجب التقاليد الإسلامية، يجب أن يتم إعلان الزفاف على الملأ، وهكذا قام والدي بدعوة عدد قليل من الأقارب في الأردن على العشاء لإعلان الزفاف. لقد كان التظاهر بأنني كنت سعيدة في وسط كل هذا الحزن يشكِّل تعذيباً بالنسبة لي.

آلمني أن يوسف كان سيتزوج بدون أن تكون أسرته موجودة. وفي كل يوم كانت عائلة يوسف تتصل للتأكد من أنه لن يعود للعراق. وكان الخبر قد انتشر بأنه تزوج من أميركية، وكان يتم تداول التهديدات بالقتل، أيضاً. وفي خضم حزنها، كانت ميسون تتصل بشكل متكرر، مناشدة شقيقها أن لا يعود. وعللت ذلك بأنها فقدت زوجها ولا يمكنها أن تحتمل فقدان شقيقها. ووافق يوسف على البقاء، ولكن بألم شخصي شديد. ووافق على العشاء على مضض.

عندما أتى طارق ويوسف لاصطحابي من منزل والدايَّ، كان يوسف مرتدياً بدلة مع ابتسامة ملصقة على وجهه. وهرعتُ إلى الحمام من أجل آخر فيضان لي من الدموع. وفكرت في كل الأيام التي أمضيناها نخطط لزفافنا، والإثارة وإصرارنا الأحمق على أن نكون سعداء في خضم كل هذه الفوضى .

منذ بداية تخطيطنا للزفاف، أشارت علينا عائلته أن نتجنب أعين الحساد الشريرة وأن نتزوج في السر، وحذرت أمه، «اخفيا حبكما لبعضكما البعض، إنه ليس وقتاً مناسباً ليتباهى فيه العراقيون بأي شيء.»

لقد كنتُ ويوسف نضحك من اعتقاد والدته بالخرافات، وكنا قد اتخذنا الترتيبات اللازمة لحفل الزفاف في فندق الإنتركونتننتال في الأردن، ودعونا أصدقاءنا من كل مكان في العالم، وكنا نعلل ذلك بأننا كنا نستحق أن نكون سعداء. ولكنني لم أكن أستطيع التخلص من شعور قوي بالذنب. لو أننا فقط استمعنا، لربما سارت الأمور بطريقة مختلفة. لقد تحديتُ ويوسف القدر بعناد. لقد استطعنا البقاء على قيد الحياة في خضم الحرب لمدة سنتين. كان يجب أن نكون ممتنَين لمجرد أن عثرنا على بعضنا البعض. ما الذي استحوذ علينا حتى نتباهى به؟ لم يتمكن عقلي من إدراك فكرة أنني ويوسف، بتفاؤلنا وأملنا الكبير في مستقبلنا، كنا نعاني الآن من مأساة جعلت حياتنا شبيهة بحياة النساء اللواتي عملنا بمشقة كبيرة لمساعدتهن.

أواجه مشكلة في تذكر تاريخ زفافي بدقة. لدي حاجة ماسة لحجب سلسلة الأحداث التي أدت إلى مأساة موت حسين، ويرتبط كل شيء في ذهني بيوم زفافنا.

زفافنا مرتبط إلى الأبد بموته.

خاتمة

◀ الفجر يقترب

بعد سبع سنوات، كنتُ ويوسف لا نزال في حالة انتظار مع إحساس بأننا لا نملك زمام السيطرة على مصيرنا. ونظراً لعدد التهديدات بالقتل التي استلمها يوسف بعد زفافنا، قررنا أن نعيش في الأردن في السنة الأولى من زواجنا.

خرجت ميسون وأطفالها من فيلتهم المكونة من ثلاثة طوابق في بغداد، وانضمت إلينا في شقتنا التي تحتوي على ثلاث غرف نوم في الأردن. لقد كان لدي توق لسنوات لرؤية ميسون ترتدي أحد شالاتها الملونة. وبدلاً من ذلك، بقيت ترتدي الثوب الأسود التقليدي الذي كان يميزها على أنها أرملة. كنا في كل يوم ندعو عائلتنا وأصدقائنا في العراق آملين في تلقي أدنى إشارة إلى أن الأمور كانت آخذة في التحسن. ولكن الأمور كانت دائماً تتجه نحو الأسوأ. وبحلول العام 2006 كانت البلاد تتعرض للتمزق بسبب الحرب الأهلية.

لقد كان يتم تدمير كل شيء كنت أحبه في العراق. وفي العام 2007، دوّت تفجيرات انتحارية في كافة أنحاء شارع المتنبي، ما أدى إلى إغلاق سوق الكتاب القديم طوال السنتين التاليتين. أصبحت حياة الناس الذين

أحبهم الآن ممزقة. فقد توفي والد فادي في منتصف الليل. وبسبب حظر التجول، اضطرت العائلة إلى الانتظار حتى الصباح لنقل الجثة من أجل دفنها. وتعرضت هوازان، الابنة الكبرى للعائلة الكردية التي أقمت معها في حي الجامعة، لسكتة قلبية في عمر الرابعة والثلاثين بعد الانتقال إلى عمّان مع موجة من اللاجئين. وبعد سنوات بيّن والدها أنها قد ماتت لأنها أصبحت كسيرة الفؤاد.

يكن هناك مكان ليوسف ولي في عمّان على الرغم من حقيقة أنني كنت أحمل جنسية مزدوجة كأميركية أردنية، فهناك أيضاً، كنا باستمرار نواجه عقبات جديدة. كان زوجي يعتبر شخصاً غير مرغوب فيه كونه عراقياً. ومرت فترة زمنية كان فيها يوسف، شأنه شأن الكثير من العراقيين المعتدّين بأنفسهم، رجلاً بلا وطن ينتظر في حالة من عدم اليقين وعدم القدرة على فعل أي شيء، جواز سفر عراقي جديد ساري المفعول.

لكننا وجدنا طريقة للعودة إلى العراق، وفي هذه المرة بصفة مختلفة. لقد كانت تحركاتنا محدودة، وكان المكان الوحيد الآمن هو داخل المنطقة الخضراء. بقينا هناك، ولكن المنطقة لم تكن سوى نصف المساحة التي كانت عليها في الأصل.

على مدى السنوات القليلة الماضية، عملت من أجل دعم جماعات المجتمع المدني، وساعدتُ ويوسف في التحضير لانتخابات آذار/ مارس 2010. كانت الحرب الأهلية آخذة في الانحسار، وكان العراق قد بدأ بالخروج من حالة العصور المظلمة التي سادت طوال العامين 2007 و2008. ويناقش أصدقاء عراقيون وعائلات عراقية هاتين السنتين بأعين ذات نظرات جامدة، متذكرين الخوف الشديد التي اجتاح كل حي من الأحياء.

على مدى السنوات القليلة الماضية، غطى الأمن وموجة الجهود العسكرية الأميركية لتسليم البلاد إلى الحكومة العراقية على كافة المحاولات لتحقيق تقدُّم فيما يتعلق بقضايا المرأة. وفي الواقع أن لم يتم عمل الكثير للارتقاء بوضع المرأة. وكان التركيز الأولي لجهود كل شخص منصباً على بقائه حياً. إنه لأمر مثير للدهشة أن نجد أنفسنا قد عدنا إلى نقطة البداية. كانت المناقشات على أرض الواقع لا تزال حول كيفية إنشاء مراكز للمرأة، ولم يكن لدى ضحايا العنف من الإناث أي ملاذ غير مركز واحد للمرأة في الشمال. واليوم تم إحياء النقاش حول القرار 137 وتأثيره على قوانين الأحوال الشخصية للنساء. وعلى الرغم من أنه تمت إعادة تسمية القانون بالمادة 41.

لقد عملت في دول أخرى مزقتها النزاعات، ولكن الوقت الذي أمضيته في العراق تلازمني الأفكار بشأنه أكثر من أي مكان آخر ذهبت إليه. لست قادرة على تجاوز تلك التجربة. وما يغضبني غضباً شديداً هو أن الكثير من الأخطاء التي دفعت بالعراق إلى حالة الفوضى كان من الممكن تجنبها. ومن بداية الغزو الأميركي، كان أصحاب السلطة في العراق يخونون شعب العراق بشكل متكرر من خلال الوقوف في حالة انتظار عندما كان المجتمع ينهار، ومن خلال تقديم وعود لم يتمكنوا من الوفاء بها. وكنتُ أعاني من شعور عميق بالذنب عندما أفكر بجميع النساء اللواتي لم أتمكن من إغلاق قضاياهن. وعندما هربت من العراق، هربت منهن أيضاً، ولا يمكنني سوى أن أشعر بأنني تركتهن في وضع صعب بدون مُعِين. إن العراقيين يواجهون معضلة قاتمة: إذا بقوا في بلدهم، فإن حياتهم تكون معرضة للخطر، ولكن إذا غادروا البلاد، يتم جعلهم يعانون من الشعور

بأنهم عبء ثقيل في أوطانهم الجديدة. إنهم مجبرون، بشكل أساسي، على الاختيار بين الموت والذل.

ومع ذلك، يواصل العراقيون انتظار بزوغ الفجر.

استمرت منى بدفع العمل في منظمة «نساء من أجل نساء» الدولية قُدُماً، مواصِلة البرنامج لمساعدة النساء الأكثر ضعفاً، وقد حضرت زفاف ابنتها، ويعيش ابنها الآن معها في النجف.

تزوج ميس وانتقل إلى إنجلترا حيث يواصل دراساته العليا.

يعيش فادي الآن في سان دييغو، حيث يتواجد في قلب المشهد الاجتماعي العراقي.

استقرت ميسون وأطفالها الثلاثة مرة أخرى معي ومع يوسف في فرجينيا الشمالية.

كرستُ ويوسف حياتنا المهنية للعراق.

وفي الوقت نفسه، نشهد مآسي شخصية نجمت عن ازدياد انعدام الأمن داخل العراق، وهروب العراقيين إلى دول الجوار بينما تنحسر مشاعر الأمل. وتبدو فرصة قيام المجتمع الدولي بمساعدة العراقيين خلال أزمتهم الوطنية بعيدة على نحو متزايد. كان الأمل الأفضل للشعب العراقي هو قوتهم ويقينهم وقدرتهم على تولي زمام السيطرة على مصيرهم. ونظراً لأنني عشت بينهم، ورأيت تصميمهم، فأنا لا أزال متفائلة بأن بإمكانهم صنع مستقبل أفضل لأنفسهم. ولا يمكنني سوى الدعاء بأن لا يقف المجتمع الدولي وحكومتهم في طريقهم.

* * *

على مدى السنوات السبع الماضية، كانت أحلامي الأكثر نبضاً بالحياة هي بشأن تجاربي في العراق. وما أثار دهشتي هو أن أكثر شخص أحلم به كانت فيرن هولاند، وصلاح هو التالي. وتتمحور أحلامي المتكررة به حول توسلي ليوسف بأن يواصل البحث عن صلاح.

حلمت مرة واحدة فقط بحسين، ولكن ذلك الحلم محفور في عقلي بشكل لا يُمحى. إنه يضم كافة مشاعري تجاه العراق.

في حلمي أرى حسين بذات الطرق التي كنت أراه فيها في الحياة: بسيط ولطيف ومتعمق في الإحساس.

يبدأ الحلم بإدراك أنه يوجد زائر في الغرفة الأخرى، وأقف عند عتبة الباب، وأنا أعرف أن الزائر هو حسين. لا أريد أن أدخل، وأنا مندهشة من إدراك أنني أشعر بغضب يموج في داخلي. وللحظة أشعر كما لو أنني سأرى حسين الذي هجر زوجته وأطفاله وتركهم لعالم قاسٍ، رجل تركهم في البرية حيث يأكل الكلبُ الكلبَ، بدون إجراءات وقاية أو حماية لمستقبلهم. لا أريد أن أراه. طاقته تدعوني، وأفكر في نفسي، إنه هنا. لا يمكنني أن أخيب ظنه.

أدخل إلى الغرفة وأجلس مقابله. لا نقول شيئاً لبعضنا البعض. لسنا مضطرين لذلك، لأن النظرة الظاهرة على وجهه تقول كل شيء. هل أعتقدُ حقاً أن هذا هو ما يريده؟ أنه عند هذه السن اليانعة في الثانية والثلاثين، كان سيرغب في ترك عائلته؟ حتى للحظة، هل أصدق أن هذا سهل عليه؟

لم أرَ أبداً وجها مليئاً جداً بالتعبير. لوعة وحسرة تنبعثان من كينونته بكاملها. ومع ذلك، فإن ما يمزق قلبي هو نظرة الشوق في عينيه. ينحنى

نحوي ويتكلم عن كم هي جميلة ميسون. ولبرهة وجيزة يسمح لنفسه بابتسامة حزينة. إنني أشعر بوخز في قلبي عندما أرى الكبرياء في ابتسامته وهو يعبر عن تقديره لزوجته. ويمر الحزن، ويصبح وجهه مشوهاً بالألم. يحاول أن يجبر نفسه على الابتسام في وجهي، ولكنه يخفق في ذلك. وبدلاً من ذلك، يعود الأسى إلى وجهه، ويتبع ذلك صمت.

لا يمكنني أن أجد كلمات داخلي، وليس لدي شيء أقوله. كل ما يمكنني التفكير به والدموع تنساب على وجهي هو أنني آسفة. ليس لدي الحق بأن أكون غاضبة منه، وأنا آسفة أنني لُمته. أعتقد أنه يسمعني، لأنه يومئ برأسه.

صفع بيديه على ركبتيه، تماماً كما كان من شأنه أن يفعل عندما كان يزورني في منزلي في حي الجامعة أثناء ما أسميه ويوسف السنوات الذهبية. وتقول إيماءته، «الجلوس هنا رائع ، ولكن لا بد من أن أرحل.» وقبل أن يغادر ينادي على أطفاله الثلاثة، فاطمة! علي! حمزة! ويأتون راكضين إلى الغرفة. أشاهدهم وهم يعانقون ويقبلون بعضهم البعض.

يقول حسين، «تصرفوا بشكل جيد، وكونوا طيبين مع منال.» ويومؤون برؤوسهم، وتجيب فاطمة بابتهاج، «لست بحاجة لتذكيرنا. إننا نحبها.»

في حلمي، أتبادل مع حسين ابتسامات صادقة، وإن كانت ابتسامات حزن وخسارة. ويلتفت لإلقاء نظرة أخيرة على أطفاله، والأمل يملأ عينيه. ومن ثم يرحل.

نبذة عن المؤلفة

استوديو 3 برذرز
في عمان، الأردن

منال م. عمر هي مديرة برامج العراق في مركز السلام ما بعد النزاع وعمليات الاستقرار في المعهد الأميركي للسلام (USIP). شغلت منصب رئيسة فريق للمعهد الأميركي للسلام في بغداد من تشرين الأول/ أكتوبر 2009 إلى كانون الثاني/ يناير 2010. انضمت منال عمر إلى المعهد الأميركي للسلام كمسؤولة برامج لبرنامج المنح في آب/ أغسطس 2008. وفي السابق، كانت مديرة برامج إقليمية للشرق الأوسط لدى منظمة أوكسفام البريطانية، حيث استجابت لأزمات إنسانية في فلسطين ولبنان. ولدى منال خبرة واسعة في الشرق الأوسط. وقد عملت مع منظمة «نساء من أجل نساء» الدولية كمنسقة إقليمية لأفغانستان والعراق والسودان. عاشت منال في بغداد من العام 2003 إلى العام 2005، وأنشأت عمليات في العراق. بدأت حياتها المهنية كصحفية في الشرق الأوسط في العام 1996، ووظفتها اليونسكو للعمل في واحدة من أول مهامها الرئيسية في العراق في 1997-1998. عملت منال لأكثر من ثلاث سنوات مع مجموعة اقتصاديات التنمية التابعة للبنك الدولي. ونفذت برامج تدريبية في

اليمن والبحرين وأفغانستان والسودان ولبنان والأراضي الفلسطينية المحتلة وكينيا، والعديد من البلدان الأخرى.

تم نشر لمحة عن أنشطة منال في وسائل الإعلام الرئيسية من قِبل واشنطن تايمز وإل إيه تايمز والـ بي بي سي وإن بي آر وغليمور ولندن تايمز ونيوزويك. وكانت مقالاتها ومقالات رأيها تنشَر في الغارديان وواشنطن بوست ومجلة عزيزة (www.azizahmagazine.com) ومجلة إسلاميكا.

منال هي عضو في مجلس إدارة نساء بلا حدود، وهي منظمة غير حكومية يقع مقرها في النمسا، وهي عضو نشط في مجتمع المسلمين الأميركيين (American Muslim community). وهي كذلك مؤسِّسة ورئيسة مجلس إدارة أسوده (Asuda)- الولايات المتحدة الأميركية، المنظمة الشقيقة لأسودا - العراق، وهي منظمة مكرسة لمكافحة العنف ضد المرأة. وفي العام 2007 رشحتها مجلة إسلاميكا لتكون واحدة من عشرة أشخاص مثاليين يشكِّلون الإسلام في أميركا. تحمل منال عمر شهادة الماجستير في الدراسات العربية من جامعة جورج تاون، وشهادة البكالوريوس في العلاقات الدولية من جامعة جورج ميسون.

«امشِ حافياً وسوف يؤذيك الشوك...»

- مثل تركماني / عراقي

قصة جذابة عن أمل ويأس، غبطة وشوق، كتاب حافية في بغداد يأخذك إلى الخطوط الأمامية لنوع مختلف من المعارك، حيث يكون المقاتلون، الذين لا يتم تمجيدهم في قصائد، أقوياء ونابضين بالحياة - وإناث.

منال عمر، واحدة من عمال الإغاثة الأميركية من أصل عربي، تسافر إلى العراق لمساعدة أكبر عدد ممكن من النساء لإعادة بناء حياتهن. وسرعان ما تجد نفسها تنجر إلى قصص بطولية لشعب مصمم على النهوض من رماد الحرب والعقوبات، وإعادة بناء حياته في مواجهة فوضى ساحقة. هذا سجل لصداقات منال عمر مع العديد من العراقيين الذين تنهار حياتهم أمام عينيها. إنه حكاية حب، حيث تتعمق علاقتها مع أحد الرجال العراقيين في بلد يعاني من حالة اضطراب. وهو قصص لنساء العراق ينفطر لها القلب، حيث يتصارعن مع ما يعني أن تكوني أنثى في وطن لم تعودي تتعرفين عليه.

«تنجح منال عمر في تصوير الواقع الصعب للحياة والعمل في العراق الذي مزقته الحرب، واقع يروي قصة حب وأمل وسط القنابل والتفجيرات.»

زينب سالبي، مؤسِّسة ورئيسة مجلس إدارة منظَمَة نساء من أجل نساء الدولية (WOMEN FOR WOMEN INTERNATIONAL)، ومؤلفة الكتاب الأكثر مبيعاً على المستوى القومي (مع لوري بيكلوند) بين عالمين: الهروب من الطغيان: النشوء في ظل صدام (BETWEEN TWO WORLDS: ESCAPE FROM TYRANNY: GROWING UP IN THE SHADOW OF SADDAM)

«صورة رائعة وصادقة وملهِمة لناشطة في حقوق المرأة في العراق، تناضل من أجل مساعدة النساء المحليات أثناء استكشافها لهويتها. إن منال عمر هي مرشدة بارعة إلى داخل العراق، حيث أنها تفهم المنطقة وتتكلم العربية وترتدي الحجاب. وفي تناوب بين المضحك والمأساوي، تحمل رسالة قوية للنساء، وتوصلها من خلال أسلوب روائي جميل.»

- كريستينا آسكويث/ مؤلفة أخوات في الحرب: قصة حب وعائلة والبقاء على قيد الحياة في العراق الجديد (SISTERS IN WAR: A STORY OF LOVE, FAMILY AND SURVIVAL IN THE NEW IRAQ)